كريستوف اونو دي بيوت

ترجمة: بشرى أبو قاسم

الغوص

جائزة الأكاديمية الفرنسية للرواية 2013



رواية

دار نينوى

كريستوف أونو دي بيوت

Christophe ONO-DIT-BIOT

الغـوص

PLONGER

رواية

GALLIMARD - July 2013

جائزة الأكاديمية الفرنسية للرواية

ترجمة: بشرى أبو قاسم

كريستوف أونو دي بيوت

صحفي وكاتب فرنسي من مواليد ٢٤ كانون الثاني ١٩٧٥ من مدينة الهافر - فرنسا.

صدر له خمسة أعمال: المحطم ٢٠٠٠

ممنوع لكل امرأة أو أنثى ٢٠٠٢

جيل عفوي ٢٠٠٤

البورماني ٢٠٠٧

الغوص ٢٠١٣

حصدت أعماله عدة جوائز من أهمها جائزة الأكاديمية الفرنسية للرواية لعام ٢٠١٣ عن رائعته "الغوص".

بشرى أبو قاسم

كاتبة ومترجمة سورية من مواليد ٢٤ نيسان ١٩٨٠ ستراسبورغ - فرنسا.

نقلت إلى العربية: ماذا جرى للمتوحش الأبيض ٢٠١٢

حالمون ٢٠١٢

ثورات ٢٠١٣

الأكاليل الثلاثة ٢٠١٤

صدر لها: "ضجيج الأسى" عام ٢٠١٥

الغوص

الرواية الخامسة للكاتب والصحفي الفرنسي كريستوف أونو دي بيوت، حصلت على جائزة الأكاديمية الفرنسية للرواية عام ٢٠١٣. الكاتب من مواليد ٢٤ كانون الثاني ١٩٧٥ في مدينة هافر في فرنسا.

الغوص هي من أجمل روايات الحب التي عرفها الأدب الفرنسي الحديث. غوصٌ في أعماق بحرٍ من حب وحزن وفن. قصةٌ يقحمنا الكاتب بأدق تفاصيلها لنعيش معه تباريح الهوى.

يتبوأ سيزار مكانة في الإعلام ويقع في حب إسبانية تهوى فن التصوير "باز"، كما أن لها هواية بالسباحة والمخلوقات المائية لدرجة أنها تتبنى سمكة قرش اسمها "نور"

تقرر السفر برحلةٍ مجهولةٍ وتقضي حتفها بشكلٍ غامضٍ فيجدونها مرميةً على أحد الشواطئ.

يتقفى سيزار أثر زوجته ليكشف سر وفاتها وفي رحلته يكابد فيها مرار الأسى وعلقم حبٍ مفقود. يروي لابنه هكتور هذه الرواية لتبقى والدته حيةً أبداً، وتبقى قصة حبهما الحزينة بين يدي الإنسانية. بدأت حكايتهما من معرضٍ لصورٍ قامت هي بالتقاطها وبوصفه صحفياً رغب بلفت نظرها إليه، فحرر مقالاً عن المعرض لكنه أساء فهم الصور ما أثار سخطها فطلبت مقابلته.

نفحات هيام تلفحنا في أجمل العوالم فناً، وكأننا نقوم برحلة مع الكاتب لنقع بحب إسبانيا وحبيبته الإسبانية، كما ستهزنا عواصف من غضب في

مواجهة عالمٍ اكتسحته التكنولوجيا وشوهت أرقى المعاني. أما عـالم البحـار فهو الرحلة الأعذب التي يهبنـا إياهـا كاتبنـا الموهـوب لنغتسـل مثلـه مـن الأحزان.

صراعٌ بين الثقافة القديمة يمثلها سيزار الذي يصعب عليه التصالح مـع الحياة المعـاصرة التـي تمثلهـا بـاز. صراعٌ بـين الرجـل ودوره والمـرأة، بـين الأمومة والأبوة. مفاهيم شتى ينثرها بين ثنايا صفحاته ليحاورنا ويـداعب قيثارة قلوبنا المنهكة بعجلة الحياة.

الحب حتى الموت يحيا في عيون هكتور.

يقول المثل العربي العامّي: "اللي خلف ما مات"

هكذا وجدوها عارية وميتة على أحد الشواطئ العربية. تبلور الملح عـلى جلدها.

تحريضاً.

نصيحةً.

إليك يا بني أكتب كتابي هذا.

قصة حب

أفضل ما يمكن

بدأ كل شيء بمولدك، بالنسبة لك.

انتهىٰ كل شيء بمولدك، بالنسبة لنا.

أنا والدك وهي والدتك. حياتك موتنا، موت هذا "النحن"، وحدة الجسد والروح التي سبقت ولادتك: رجلٌ وامرأة يربط الحب ما بين قلبيهما.

الحقيقة غير موجودة إنها تشبه أيّ مُطلقٍ لا نتوصل إليه أبداً.

لا يمكنني سوىٰ أن أهبك حقيقتي الناقصة الجزئية ولكن كيف لي أن أقدمها بشكلٍ مختلفٍ؟

ستنقصك دائماً الحقيقة من وجهة نظرها، سردها للأحداث ومشاعرها وطابع صوتها إن كان بوسعها أن تكلمك، حركاتها وأسلوبها لو شاءت أن تكتب إليك. لكن ما أعرف عن آخر مرحلة من حياتها أنها لم تترك أي مجلّة أو تسجيل أو رسالة أو دفتر. لا شيء سوىٰ تلك اللوحات المحاكة بخيوطٍ زرقاء لعلها كنزٌ ثمين جداً ستقرأ أعماقها يوماً ما.

كم أحببتها وكم كرهتها، والدتك لأكون صريحاً معك حتىٰ ولو أنك لم تشهد علاقتنا الزوجية، الزواج حربٌ، سترىٰ ذلك بنفسك حين تقع بغرام امرأة.يا لهذه العبارة ما أغربها! يا له من مشهدٍ مضحكٍ أن أتخيلك مغرماً وأنا أنهض من مكتبي وأذهب لرؤيتك في غرفتك وأنحني فوق سريرك، أشتمّ رائحتك وأنت تنعم بالدفء في ثياب نومك برسم الحمار الوحشي،

لست مغرماً الآن سوى بدميتك ذات الرأسين والفانوس العجيب الذي اشترته والدتك من أجلك. ذاك الفانوس الذي يلقي على الجدار أسماكاً مذهبة تموج حول المرجان فترسم على وجهك، ومنذ أيامك الأولى، ابتساماتٍ أدخلت البهجة في قلب كل من يراك.

كل من رآك عدا هي.

هل أنا بهذه القسوة لأرمي الحجارة في بحيرة السعادة التي نجلس على ضفافها عندما نشهد ولادةً ما؟ ربما لا بكاء بل وبشكل خاص لا بكاء ولا دموع، لن أنسى أبداً أنني مدين لك بهذا، النهاية.

ولكن فلنبدأ يا بني الصغير، بالحدث الأكثر أهمية في التاريخ.. الحدث الذي يبدأ منه كل شيء: ولادتك.

معاناة جنين

أيقظتني تلك الصرخة، صرخةٌ أطلقتها الجنيات الطيبات اللواتي يحطن بالسرير وكنَّ حتىٰ اللحظة يسرفن بالنصح ولكن في تحوّل مرعب فإنهن كشفن عن حقيقة طبيعتهن، تحوّلن فجأة لأفواهِ شؤم، وبسرعة هائلة خلال ثلاث دقائق قررن أن عرق الحياة سيقطع لكنه بعد لم يُحل.

- نكاد نفقده!

فتياتٌ يرتدين المريول الأبيض، إحداهن شقراء واثنتان سمراوتا البشرة وقصيرتا القامة، بدت عليهن الحكمة إلىٰ أن استخدمن تلك الأدوات القاطعة بأيديهن البيضاء. أجل أفواهٌ تزعق: "نكاد نفقده!" لكل من يريد أن يسمع، ربما حتىٰ أنت علىٰ بعد مترٍ من أفواههن وأنت تكابد ألماً مبرحاً في وعائك الأموي وسط أحشاء والدتك.

رأيت أنابيب من البلاستيك الشفاف تدخل ما بين فخذيها ويسيل الدم الأسود فيها، في حين وضعت فتاة أخرىٰ علىٰ وجهها كمامة الأوكسجين، لمحت في عينيها الدهشة، إنها مثلي عاجزة عن فهم السبب الذي آلت بسببه الأمور إلىٰ المأساة.

قلن سابقاً: "كل شيء علىٰ ما يرام، لا تقلق، النبض طبيعي"

إنهن كاذبات، لم تكن نبضات قلبك طبيعية، قلبٌ صغيرٌ بحجم حبة طماطم وأنت بهذا العمر الصغير. قلن: إن الضغط الهائل لرحم الأم أنهك جسدك وكبسه.

قلن: "النبض قويٌ جداً"، ثم أضفن: "لن يحتمل، سنفقده". نهضتُ بقفزةٍ واحدة لأتجه نحوكما إلا أن الضباب حال بيننا، ضباب نزل على عيني كستائر مسرحِ مَرضي واحترق صدغاي بحرارةٍ مباغتة. رأيت قبل أن أرتجف إحداهن وهي تمسك بالمقص.

تهدّئ الإبرة القطنية الألم، كنت أكره تلك الكلمة لكن تناقص كرهي. أُعطيت الإبرة تاركة حفرتها بشكلٍ طبيعي وحُقن المخدر ما بين فقرات العمود الفقري، سار الأمر على ما يرام. طلبوا مني الخروج كما طلبوا من كل الآباء المتحمسين. تُلحق تلك الإبرة ذات طول يتجاوز عدة عشرات السنتيمترات بطول ذراعِ طفلٍ تقريباً الأذى بالأعصاب التي تعرضت لمحنةٍ قاسية. لا ترى المرأة شيئاً من هذا فليس للنساء عيونٌ في ظهورهن على عكس ما تروي الأسطورة المدنية الشائعة بين الأزواج الخائنين. قاموا بما يجب أن يقوموا به، استراحت. إنها جميلةٌ كما هي دائماً، بذاك الشعر المربوط والمريول الأخضر الذي أرتدي مثله وأمسك بيدي كتابي، الإلياذة، ربما بسبب اسمك أو بالأحرى اسمك وليد الإلياذة.

هكتور "الإله الأعلى بين الناس والبطل الأكثر وسامة في الإلياذة". لا تتجاوز نسبة ذكر "أخيل" السفاح الغاضب المأسور بتسبيحه الإلهي الخاص الخمسين بالمئة، كما أنهم لا يتحدثون عن "أوليس"[1] وآلاف المكائد. هذا الميل الخاطئ للمرتبة الأولى دفع أدواره السيئة لرحلةٍ دامت عشرين عاماً. هذا عدل.في حين أن هكتور "ذا القبعة المتلألئة" "مروّض

---

1 – أوليس: بطل أسطوري في الأوديسة لهوميروس، "أوليس ذو ألف دور" هو من ساعد الإغريق على الحصول على طروادة بعد أن تخيل فكرة حصان يخفي في داخله محاربين.

الأحصنة"، كان يعجز على القيام بعملٍ شائن واحد فهو شابٌ متيقظٌ وقوي ويحب والديه وزوجته وابنه. لم تخنق تلك الكرامة أعداءه الذين أجهزوا عليه، ثم ثقب قدميه وأدخل فيها حبلاً، علّقه بعربته ثم ساط الجياد ليجرّ جثته حول المدينة تحت أنظار والديه العزيزين وزوجته وابنه الذي كان أصغر من أن يدرك ما يرى. لم يعصِ هكتور الله إلا أن أثينا[1] آزرت أخيل، كما ردّت عليه سراً الرمح الذي رمى به هكتور دون أن يصيبه، القذرة أثينا. هكتور هو البطل الأكثر وسامةً في الإلياذة. سأطلق عليك اسم هكتور. هاأنذا أنتظر ولادتك وبيدي الإلياذة.

قالت إحدى الجنيات: "خذ قسطاً من الراحة، أنت على هذه الحال منذ ست ساعات".

خلدنا للنوم بعد أن تبادلنا ابتسامةً وطبعت قبلةً على جبينها. افترشت هي وبطنها الكبير السرير الكبير في حين أسندت رأسي إلى الطاولة وتوسدت معطفي بعد أن ثنيته.

- نكاد نفقده!

يسيل دمي، وتدور عيني، أما ساقاي فقد اجتاحتها نملات حمراء تبصق أسيدها على أعصاب عضلاتي. يلتقط الجهاز الذي يقيس التقلّصات أنفاساً كقفزةِ السقوط وجُنت الإبرة. "إن التقلصات تزداد قوةً وقلبه يرتخي، نكاد نفقده!"

---

1 - أثينا: آلهة يونانية، آلهة الحكمة والعلوم والفنون. كما أنها آلهة حرب. سميت أثينا باسمها.

تجول عينا والدتك أعلى الكمامة التي التهمت نصف وجهها بحثاً عني وأنظاري هامت بعيداً، اقتحم أحد عباقرة الطب السيئين وتربّع في بحر الشِعر الذي ينظُم ولادتك، أراد أن يحرمنا ولادتك. اعترضت. اصطحبوها على سريرٍ ذي عجلات، غابت هي ونظراتها التي تناشدني. اتجهت نحوها قبل أن أنهار، قالت إحدى الجنيّات وهي تستدير نحوي: "لا يمكنك مرافقتها" فتسمّرت كسنجابٍ صغير.

لم تعد هنا. إنها وحيدةٌ الآن لعلّ الموت الذي في أحشائها يرافقها فقط. موتك أنت. جلست أرضاً كبطلٍ إغريقي هزمته قوةٌ خفيّةٌ، لابد أنها آلهةٌ مخادعة تخون هكتور الجديد.

والدتك بأمسّ الحاجة لي وأنا محتجزٌ هنا خائر القوى في غرفة الولادة التي لم تجدِ نفعاً.

ولادة

لحظاتٌ عدّة دامت دهوراً.

نصحتني السيدة التي تكنس الأرضية باحتساء فنجانٍ من القهوة. أحتسي القهوة فيما يقارع ابني الموت؟ خرجت ممرضة من الباب المزدوج المؤدّي للحجرة وقبل أن تختفي خلف عتبة غرفةٍ أخرى، لفظت عبارةً دون أن ترمقني بنظرةٍ حتى: "ما توصلنا لاستعادته".

جئنا لنهبه الحياة وإذا بي أحصل على علبةٍ صغيرة، فتحتُ كتابي:

لاح الفجر بأنامله الوردية، اجتمع الجميع حول محرقة هكتور المشهور ثم قاموا بإخماد المحرقة التي أضرمت نيرانها بالنبيذ الأسود. ثم جمع إخوته ورفاقه عظامه البيضاء وهم يتأوهون وتسيل دموعهم على وجناتهم مدراراً. وضعوا عظامه المحترقة في مِرمدةٍ[1] ذهبية ولفّوها بمشمال[2] أرجواني.

ماذا اقترفت أيدينا؟ جلست في الممر واهن القوى، وأنت هناك في الحجرة معها، في بطنها. أنت ابني الذي لا أعلم بعد إن كنت تنتمي لعالم الأحياء.

---

1 - مِرمدة: إناء كان القدامى يجعلون فيه رماد الموتى بعد حرقهم.

2 - مشمال: ملحفة كانت تشتمل بها نساء الإغريق.

"هلاَّ أتيت سيدي!"

استعادت عذوبة صوتها بعد أن تحررت يداها من المقص. عاد النعيق لجنيةٍ. طلبت مني أن أتبعها وهي واقفةٌ في نهاية الممر، هل تبتسم؟ ربما.

هناك ممرات تشبه الأنفاق. التهمت بخطواتي الراكضة البلاط المتلاصق الأخضر والأزرق، تطنُّ أذناي كالزنبور وعيناي تحملقان بعتبة الغرفة التي يتدفّق منها نور المصباح.

مازالت الكمّامة تغطّي وجه المولِّدِ الذي انحنىٰ فوقك يستمع لأنفاسك، أنت ذاك الشيء الصغير وردي اللون ذي الشعر الأسود، وجهك مرسوم ببهاء. أنت ابني.

قلت بصوتٍ مكسور: هل كل شيء علىٰ ما يرام؟

- كل شيء علىٰ ما يرام.

- أردت أن أقول، ألا يعاني الألم؟

مدَّ لي المقص، تراجعت خلفاً.

- ألا تريد قصَّ حبل السرّة؟

في البدء قلت: "كلا".. ثم أمسكتُ بالأداة المعدنية. عرقلتُ حركة الممرضات اللواتي كدن يسلبنك حياتك. زُمَّ الحبل السري بملقطٍ من البلاستيك أصفر اللون، قصصت بمستوىٰ الملقط، سال سائلٌ أسود فقال لي الطبيب: "أسود لِغِناه بالأوكسجين". نظرت إليَّ بتلك العينين الزرقاوين، لون عيني حديثي الولادة. حملك ووضعك علىٰ ساقيك،

اعترضت قائلاً: إنه مازال أمامك متسعٌ من الوقت وإنـك منهـكٌ إلا أنـك قمت بخطوة رِجْلٍ بعد الأخرى كرائد فضاء نـزل علىٰ وجـه القمـر. قـال الطبيب: "سينسىٰ ويتعلّم من جديد" ثم أخذ طولـك ووزنك، طلـب منّـي أن أدوّن القياسات علىٰ لوحٍ أبيض بقلمٍ تفوح منه رائحة الكحول.

عقَّب مكرّراً: "كل شيء علىٰ ما يرام"

قلت في سرّي: أخيراً يمكن لي أن أصدقه، سألت: "ووالدته؟"

- ستنتهي العملية ويمكنك رؤيتها بعد نصف ساعة.

لم أبكِ فالحياة هي من ربحت.

سألتُ الممرضة وقلمها يلـوّح في الهـواء مـستعدّة لتـسجّل عـلىٰ سـوار الولادة:

"ماذا ستسمّيه؟"

تتلألأ حروف اسمك "هكتور" أمام ناظري ولكن شعرت أنـه لا يحـق لي لفظ هذا الاسم القيِّم والحاسم وحدي دونها وهكذا علىٰ محمـل الـسرعة في القاعة الرديفة لغرفـة العمليـات، أجبـت بتلـك الكلمـة المـستخدمة في هياكل الولادة: سأنتظر الماما.

دُهشت الممرضة وقالت: أليس لديك اسم له بعد؟

نظرت إليك وقلت في خَلدي، لا يجدي الانتظـار نفعـاً، عـليَّ أن أضـمَّ جسدك الصغير وأشدّك نحوي حيث تنبض الحياة ونكوّن معاً عائلة، قُلـت إنني قبلتك كما نقبل تتويجاً ثم لفظت الكلمة كطقسٍ، كتعويذة قلت اسمك الجميل لـك أنت فهذا لا يعنيها هي: "اسمك هكتور"

طلبت مني أن أنزع سترتي، نظرتُ إليها باستغراب، ابتسمتْ وأعقبتْ:

"ليتلاصق جسدك مباشرةً مع جسده". تحولت حواجبي لإشارة استفهام، تابعت: "حتى تبثَّ فيه الدفء وتعلّمه أن يتعرّف عليك"

خلعت قميصي والتصقتُ عاري الصدر بجسدك الصغير العاري الدافئ الغافي في أحضاني تحت سقف غرفة المستشفى، تحسست بفمك الصغير نهدي ولكنك لم تجد شيئاً لدي كل شيء إلا هذا وجلّ ما أملك هو أنت، أنت يا ولدي.

إبحار

ليست الرحلة التالية من أجل هكتور. هناك أشياء أخرى، أشياء كثيرة، لا يمكنني البوح له بكل شيء. يصعب البوح بكل شيءٍ لابنٍ عن أمه، بل الكثير، تقريباً كل شيء ولا شيء. كتبت لأنني يجب أن أذرف كل هذا الحب المضاد وسأقتطع فيما بعد حقيقة كم كرهتها والدته التي وجهت لي تلك الضربة.

اتصلت بي السفارة: "عليك أن تتعرّف عليها". إذاً هم ليسوا واثقين، هناك جواز سفر إلا أنهم غير واثقين. انهارت قواي، أنا أرغب بها حتى الموت. أقسمت يوماً ألا أطأ خارج جغرافيتي الحالية الحميمة وألا أذهب إلى هناك خارج أوروبا، ألا أذهب هناك حيث لا نعرف سبباً للموت. أردت لها ذلك: يا للورطة!

طلبوا مني فك حزامي. يؤلمني بطني. نفذت المطلوب بإذعان المحكوم وما فعلته إلا من أجله هو، ابني ذاك الذي نسف القواعد التي نظمت حياتي طوال السنوات الأخيرة.

أنا في المطار، أمام البوابة، يحيط بي موظفو الشركة بياقاتٍ بيضاء وزيّ الشرطة الموحّد كآلهةٍ جامدة. فككت رموز اسميهما "نيكولا وكريمة". كريمة امرأةٌ جميلةٌ، ظلت ترمقني بنظراتٍ لا يجوز خلطها مع اهتمام شهواني، ربما هو بكل بساطة مجرد فضولٌ لاذع لشخصي، أولاً لأن الساعة لم تتجاوز السابعة صباحاً بعد ثم لأن قلّة النوم والإنهاك العصبي والدموع

عبثت بملامحي. لاحظت كريمة أن هناك خطباً ما بينما ظلت نظرات نيكولا أسيرة كريمة.

قالت بنبرة سكان منطقة سين-سانت-دونيس القاسية: "هذا لا يجوز. سيدي". سحرتني عيناها ذات اللون الكستنائي الفاتح إلا أنها غالت بالتبرّج وكذلك شفاهها الممتلئة التي لو شاءت لأهدتك أحلى ابتسامة.

لم تكن تنظر إليَّ هنا بل تتفحصني. سبرت القلق الذي يساورها، أعرف ما يجول بخاطرها، مفهومٌ من كلمةٍ واحدة. ابتلعت لعابي ونظراتها تزداد حدةً وكأنها ضربةُ مخلبٍ.

"أتريد خلع نعليك"؟

لعله كان سؤالاً لكن نبرة الجملة لم تكن استفهامية، إنه الاستفهام الطلبي. كريمة لا تسأل بل تؤكد، هذا ما تعلّمت فعله. أكدت كريمة أنني أنا أرغب بخلع حذائي. استشطت غضباً، شعرت به يغلي في حلقي. كان بوسعي أن أنفث طوفاناً ولكن لم تخطر لي هذه الصورة. لعل صدمة غضبٍ جارف هي الكلمة الأصح. ردّة فعلٍ غير مناسبة لا لأنني تعرضت بصحيح العبارة لكلامٍ عنيف أو مهين بل لأنه نقطة البداية لما سيأتي.

أرغب بها حد الموت.

عليَّ أن أستقلّ الطائرة لأتعرّف على جسدها. عثروا على جواز سفرٍ لكنهم غير واثقين من الهوية. على يساري، على بعد ٥٠ سنتيمتراً حقيبتي الصغيرة بلون الخاكي، حقيبة متجوّل حول العالم، سحبتها ناعس الأهداب حيث ركنتها منذ خمس سنوات. ها هي تنزلق كدجاجة على البساط المتحرك المطاطي. بعد لحظات ستبصق أسرارها البائسة بوجه وابلٍ من

أشعة غاما: صورتها وكتابي الوحيدان الذان حملت معي الإلياذة والأوذيسة بالإضافة لجهاز الهاتف الذي يصلني بك، أنت السبب الوحيد الذي أحيا من أجله.

انحنيت وحللت رباط حذائي ووضعته على البساط الملطخ خلف حقيبتي. ارتديت كيسين زرقاوين من البلاستيك مغلقين بالمطاط، لكن شكلهما لا يشبه تماماً أقدام إنسان، احترت بين رؤيتين فإما أنها تشبه أقداماً تشوّهت إثر مرضٍ عضال نفخها الماء والدم والتقيح، فتوجب إخفاؤها أو أنها أقدام السنافر المخلوقات الزرقاء ذوات قبعات فريجي[1] كما في برنامج الأطفال الشهير قديماً، ولكن ألم تكن أرجلها بيضاء؟

آه، إنه النسيان الذي نعاني منه في سن الرشد، أعدك هكتور بأن أبذل قصارى جهدي وأن أحاول فهم إشاراتك الثقافية وألا أغلق بابي في وجه عالمك حتى حين تسخر مني.

أشارت إليَّ كريمة بالتقدّم نحو البوابة المرصعة بصمامات ثنائية، اللحظة الحاسمة، عضت كريمة على شفتيها، انتابني شعورٌ أنني سأدوّي رنيناً يواجه شكوك كريمة. تكاد تنطق بها أشكّل لها من تهديد سالت قطرات العرق ما بين كتفي، شدّت يدها على جهاز هاتف الخدمة. أغمضت عيني وعبرت، كما نتجرّع كأساً، أدركت خلال جزءٍ من عشر الثانية ما أنا مقدمٌ على تركه، سأترك جمال أوروبا ووجه ابني ووجه مادون ليبي التي تشبه والدتك كثيراً والتي صادفتها قبل خمسة عشر يوماً في أحد القصور قرب

---

1 - قبعات فريجي: قبعات نسيجية معقوفة من الأعلى - حمراء أو صفراء - تعود لأصول إغريقية. مع مطلع ١٧٩٠ اعتبرت رمزاً للثورة الفرنسية وسمّيت قبّعات الحريّة.

حديقة لوكسمبورغ. معرضي الأخير. المعرض الأخير في الأقسام الفنية النافعة لهذه الحضارة التي أفارقها. ما استطعت ردع رعشةٍ سرت في جسدي ولا حلمي بفنجان قهوة الذي تحول لكرةٍ من سائل تصطدم بجدار معدتي.

فتحت عيني عبرت إلى الطرف الآخر ولكن الجهاز لم يصدر رنيناً، إلا أن هالةً من قلقٍ أكبر أحاطت بأحداق كريمة الجميلة.

ما الذي خلق هذا الحدس؟ ما هي الإشارة التي أساؤوا فهمها؟

بسطت كريمة راحة كفّها بينها وبيني كدرعٍ وقالت: "لحظة، سيدي". جالت بنظرها بحثاً عن أحدٍ ما لكنها لم تعثر عليه، فأشارت للرجل الجالس خلف شاشة المراقبة حيث تتعرى الحقائب والأكياس والطرود في عرضٍ آلي. قالت وهي تضع بعصبية خصلة من شعرها المخضب خلف أذنها: "جيروم، هلاّ أتيت لو سمحت". ضغط المدعو جيروم على زرٍ وأوقف حركة البساط. انضم إلينا، تمتمت له شيئاً ما. استدار نحوي وقام بمسحٍ ضوئي لي كالحقائب ثم أومأ لزميلٍ له اتجه نحوي مباشرة.

"أبعد ذراعيك سيدي".

جسَّ ضلوعي وباطن فخذي وربلة ساقي. تراقب كريمة بأنظارها المليئة بالشك. توقف للحظة ليجس قلبي الذي تتعالى خفقاته أكثر فأكثر ثم عاد مجدداً، نهض وهزَّ رأسه نفياً لزميلته. عاد لمكانه وعاد البساط لحركته.

ترددت كريمة ونظرت إلى جهاز الهاتف تحت وطأة أعصابها التي لابد أنها الآن تهتز كأوتار قيثارة، سرت حرارة في جسدها، لابد أن الثقوب التي

اخترقت بشرتها استرخت، صار بوسعي أن أشتمّ عطرها العنبري. إنها تعرف الطريقة المتّبعة في حال عبور مسافرٍ مشبوه إلا أنها لم تتوصّل لقرارٍ يعلقه، وددتُ لو أقول لها: "هيا، هيا كريمة، أنت لست مخطئة، عبوري خطرٌ، اتبعي حدسك!"

وددت لو توقفني حالاً، لو تقيّد يداي بالحديد، لو تضمني في أحضانها لمنعي فألتصق بجسدها المتّقد. آه لو ترميني لكلاب الشرطة أو تفقأ عيني بضربات عصي في أحد المكاتب السرية في أقبية "رواسي"، أي شيء عدا أن تتركني أستقل هذه الطائرة.عندها يمكنني أن أقول لابني: كنت أرغب إلا أنني ما استطعت، منعوني من الذهاب.

جلست على أحد المقاعد المعدنية المغطاة بالسكاي كما هو متعارف عليه في المطارات. مقابلي رجل ذو هيئةٍ نشيطة وقديمة، بقلنسوةٍ ولحية يرتدي قميصاً عسكرياً بدون أكمام فوق عباءته بلونٍ كريمي تصل حتى الكاحل كصورة النبي في القرن السابع. يجب محاكاته، لكنه لم يكن يستقل الطائرة، لا مجال للمساومة. خطرت بيروت على بالي وساءتني الذكرى التي سرت على طول عمودي الفقري.

- اعذرني لما جرى منذ قليل..

إنها كريمة، تبتسم في وجهي كنبعٍ من نورٍ يلوي تجهمي. ابتسامة لا بل هي كلمة لا تحمل معناها، يجدر بنا القول ضحكةٌ خلابة ما دامت تحمل من روحها.

- وعلامَ تعتذرين؟

- بدوت عصبياً جداً، ظننت أنك..

في نبرتها سحر الأشياء المحطمة. ألمس في لهجة الضواحي النبرة السوقية التي فقدناها نحن أهل باريس منذ أن ابتعدت باريس عن كونها مدينةً شعبية منذ أن أصبحت شوارعها حكراً على الفتيات المتمدنات بالغرة والباليرنيا[1] وتعاملهن المُضجر والممل.

قالت بتردد: "لدينا تعليمات، إلا أنني أضجرتك قليلاً"

أعقبت: "كلا لم تثيري ضجري. قمت بعملك"

استرخت، يا لحماقة أن يطمئن المرء لحجة العمل في حين يؤنبه ضميره لسوء ما اقترف. بل لمن الجنون أن تمنعه من التمرد حتى... هاهي ذا، تجلس بجواري، تصرفٌ غير لائق يصدر عن مندوبةٍ في الأمن. كما لا يمكنني البوح بهذا لك. أخذتْ شهيقاً عميقاً وتنهيدةً، لاح صدرها ما بين أزرار قميصها الأبيض، كانت ترتدي صداراً ذا مربعات من ماركة فيشي لونها أبيض وأحمر. لامست عام ٦٠ لأبتعد قليلاً عن "رواسي". إنه غسيل دماغٍ ناعم، تواسيني في غمرة هذه الأفكار القاطعة كحجر الصوان التي قضّت مضجعي منذ الاتصال الذي تلقيته من السفارة. أشحت ناظري فلا أغرق بتخيل جسد كريمة. أخشى أن أعود على عقبي بسحر هذه النعومة الفائقة. لحسن الحظ، أنك لن تقرأ هذا يا هكتور وإلا لثارت حفيظتك وقلت: "ماذا، هل ستتمكن من التخلّي عن مهمة التعرّف على والدتي؟" كلا، طبعاً، لذلك أشحت ناظري.

تنهدت مجدداً، سألت: "ألست على ما يرام؟"

---

1 - باليرنيا: حذاء نساء يشبه حذاء راقصات الباليه.

قالت:

- أود من كل قلبي أن أقوم بتوقيف أحدهم.

- أحد من؟

- إرهابي. قُتل والدي على أيديهم في الجزائر.

غطت وجهها بيديها، قلت: "أنا آسف" ثم أردفتُ قاصداً اقتحام ما هو شخصي أكثر بما أننا في الواقع لن نلتقي مجدداً.

- يكاد ولدي يخسر أباه بسببهم.

رفعت يديها ثم أمعنت النظر في وجهي وقالت:

- ولكن أب ابنك هو... هو أنت؟

- نعم، أنا.

رمقتني بنظرة عجزت كلياً عن فهم قصدي.

لئلا تحاول فك الرموز، لئلا تمعن "بالقيام بعملها" ربما أيضاً لئلا تفكّر بالموت، نهضتُ وتركتني على مقعدي المغطى بالسكاي دون أن تلتفت نحوي. تداركت نفسها وعادت لعملها، رمقها الملتحي بنظرة سيئة، كم أكرهها.

الكره نفسه الذي أكنّه لوالدتك إذ أرغمتني على معاكسة الوعد الذي قطعته على نفسي.

البخاخ مزيل الغبار

التقيت بوالدتك في منتصف ليلة من ليالي حزيران. في إحدى بقاليات الدائرة رقم ١٤ في باريس، في الجهة المقابلة للحي الذي أسكنه لابد أن المادة سحرية حتى يقبل البقال بقلب متجر، كما لابد أنها ساحرة حتى يقبل القيام بذلك.

كانت ترتدي كنزةً ذات قبعة بتماسٍ مع جسدها، كتب عليها بالأحرف السلتية I LOVE ASTURIAS حينها، ظننت أنه اسم أحد فرق الروك. تصغرني بخمسة عشر عاماً حسب تقديري. وقف العامل على دفٍ صغير، وهي كانت تناديه باسمه، أعجبت بهذا التواطؤ. قرأت في عينيه افتتاناً يساوره استلطافٌ لذلك المخلوق الغريب الذي ترغمه على أن ينطوي على نفسه وهو بهذا العمر، فوق الرفوف المليئة بكرتونات البيتزا المجمدة كتب عليها "إيطاليا في المنزل" وجبنة الكممبر[1] المخطوف من أفواه فهودٍ ذهبية وخضار الشمس المخملية معروضة على القرميد وكذلك الخس الملتوي تحت علب البلاستيك حيث تتلألأ قطرات البخار.

قالت: "أؤكد لك مالك، إنها موجودة، رأيتها ذاك اليوم.."

لهجتها غريبة.

- أحلف لك، إنهم لم يصنعوا منه المزيد، باز.

باز، ذكرني هذا الاسم Pez الصغار، السكاكر التي كنت أتناولها في طفولتي. عشقتها من فوري.

---

1 - كممبر: جبن دسم من لبن البقر يعرف باسم المنشأ.

- "بلى، بلى، أمعن النظر، طلبَ علي المخزون الأخير من أجلي".

قالت أيضاً بلهجتها كلمة مخزنٍ عوض مخزون.

أطلق الرجل الممتلئ قصير القامة صرخة رضا، لوّح وهو واقفٌ على الدف بعلبةٍ معدنية. تأملت ما بيده بتلك العينين السوداوين المتلألئتين.

- لدي أربع، هل تريدينها؟

- أريدها جميعها.

وضع العلب الأربعة على طاولة العرض، سحبت حمالة نقودها، كيس نقود ملوّن ومرصّع باللؤلؤ. هزَّ البقّال رأسه وقال قبل أن يدخل يده في قمقمٍ زجاجي وناولها دباً صغيراً من الشوكولا: هديةٌ من المنزل.

قالت: "أنت حبٌ إذاً". لثمته على وجنته واتشحت الليل مختفيةً دون أن ترمقني بنظرةٍ حتى.

كان لدي متسعٌ من الوقت لقراءة الكتابة الحمراء التي تغلف الأسطوانات الثمينة: بخاخ مزيل الغبار.

هذا يسلب اللّب... ولكن لماذا كل هذه الإثارة؟ ترى ما أهمية هذه البخاخات؟ تشوّقت لمعرفة السبب. دخل شابٌ صغير يعتمر قبعةً بشكل متوازن على رأسه الحليقة وكنزة عريضة جداً حيث كُتب مثل: "إذا كانت الحياة مومساً فأنا قوّادها"

سألت البقال وأنا أناوله زجاجة نبيذ بوردو: "ما الغبار الذي تنفضه هذه الأشياء؟"

أجابني الرجل وهو يحملق في صندوقه: "لا أعرف سيدي"

سيدي: هـذا يعنـي أن الـدرب مـازال طـويلاً أمـامي حتـىٰ نتخاطـب بأسمائنا. وقف الشاب خلفي بيده علبة من البـازلاء وهـو عـلىٰ عجلـةٍ مـن أمره لدفع ثمنها..

بقي الدفء في مكان، راودني حدسٌ غريب.

قلت: "تفضل، سيدي القوّاد..."

تفرَّس في وجهي وثنىٰ فمه: "كيف تكلمني هكذا، أنت؟"

رسمت ابتسامة عريضةً، أصبت بعـدوىٰ الطاقـة الإيجابيـة التـي تبثهـا الزائرة المسائية. أشرت إلىٰ كنزته، فهزَّ كتفيـه. تـسلقت الـدّف وتفحـصت بدقة فعثرت خلف أحد الصناديق الكرتونيـة عـلىٰ "بخـاخ مزيـل الغبـار" أمسكته.

رمقني الرجل، من وراء صندوقه، بنظرةٍ قاتلة:

– هل ستأخذ هذا سيدي؟

– نعم.

تردد، عرفت ما يجول في خلده، شجعته، قال:

– الشابة التي رأيتها، بحاجةٍ لهذا...

– ألم تأخذ أربع زجاجات؟

– بلىٰ، لكن تم استهلاك هذه الماركة وهي بحاجة لها بالضبط..

– ولماذا إذاً لم تبعها هذه أيضاً؟

– لم أرها.

– للأسف.

أطرق، بدا أنه يعتصر ألماً. اقترحت:

- أعيدها لك لو قلت لي ما اسمها.

- قال ممتعضاً: هذا غريب.

ما سعرها؟

تردد ثم قال: اسمها باز.

- ماذا تعمل باز؟

- إنها مصوّرة.

فهمت أنها تستخدم هذا لتنظيف أدواتها.

- ما اسم عائلة باز؟

تفحصني بقسوة، لم يعد امتعاضاً بل إنذار أبٍ يلوح بلافتةٍ كُتب عليها: صيدٌ خاص". ابتسمت، يا لهذه الشابة التي أعادت لي من أول ظهورٍ لها في حياتي السعادة التي خلت أنني فقدتها منذ سنوات.

- إذاً أخبرني ما اسم عائلة "باز"؟ أحب رؤية صورها..

قال دون أن يرفع نظره إلي:

١٠ يورو وخمسين.

أجبت: "مالك، أنت غيورٌ جداً"

دفعت وخرجت، بثت أنوار المدينة ابتسامات في خاطري.

خطرت لي كلمات "توزار" من تمسد لي جسدي والتي لم تكن تغدق عليّ بسعادةٍ حسية هائلة فحسب بل حملت معها من جبال بلاد شان حيث ترعرعت حقائق عديدة قررت تصديقها. كانت تقول:

"لا يتوقف جسدنا عند حدود الجسد". وهي تضع يديها على ظهري الذي تحوّل لوترٍ من العقد جرّاء مصادفات الحياة المعاصرة. فهي وأجدادها يرون أن إهابنا ينبسط إلى سبعةٍ أغلفة إضافية لا تراها العين المجرّدة وتشعُّ كالهالة.

يتماهى جسدنا في الفضاء، فتعرفنا بالطريقة التي يدركنا أمثالنا، حتى قبل أن يروننا. كانت تغدق علي بنظراتها وتتبختر يداها الآسيويتان اللتان تشبهان champollion[1] على النقاط المؤلمة للوتر الذي أعاني منه، تشرح سر الهبات الإلهية والوقوع في الحب من النظرة الأولى وأيضاً تلك الظاهرة التي عشتها أنت نفسك يا هكتور حين دخلت للمرة الأولى إلى الحضانة، وقلت لي: "ذاك الأشقر شرير"، حتى قبل أن تتحدث إليه...

تفسر عبارةُ الطبيعة الفطرية للتعارض المغناطيسي حين نقول عن بعض الأشخاص "لا أشعر بهم". أمواجٌ سيئة؟ هكذا تقول توزار: "بالطبع وإلا فلماذا هناك أشخاص لا يمارسون العنف أبداً وبعضهم لا ينفك عن العنف؟"

كنت أتمدد على بطني، عارياً تماماً خلا سروالٍ صغيرة من الحرير البري الذي نسجته النساء - الزرافة[2] على حدود سنيوبيرماني[3]. أتنعم بألسنة

---

1 - champollion شامبوليون: ١٧٩٠ - ١٨٣٢، مؤرخ فرنسي لتاريخ مصر، فكك رموز الكتابة الهيروغليفية.

2 - النساء الزرافة: مجموعة kayan مؤلفة من ٧ آلاف شخص تعود أصولهم لبيرماني في ميانمار، هربوا إلى تايلاند، تضع نساؤهم حلقات حول أعناقهن حتى يبدين كالزرافات تسموا بالقبائل ذات الأعناق الطويلة.

3 - سنيوبيرماني: المنطقة الواقعة بين الصين وميانمار.

الحرارة التي تسري في شعاب عضلاتي المعينية. عارضتها بقولي: إن تمثالاً ضخماً منحوتاً من المعادن المصهورة يركض أقل من آخر يخاطر بأن يتحول لمرمىً...

"هذا صحيح ولكن هناك رجالٌ صغار لا يواجهون مشاكل أبداً لأنهم يشعّون في حين يجذب غيرهم الأشرار من حولهم لأنهم يرشحون الخوف فندرك أن لنا الغلبة عليهم"

كانت تقول: "إنها تعالج أشخاصاً فوضويين" لم يعد النور يشعّ منهم، خامدين كنجومٍ ميتة. يفرغونها بفراغهم ويتركوها منهكة بعد جلستهم. تسعى بتدليكها لبثّ النظام في طاقاتهم وتداعب طاقتي فأغمض عيني مستسلماً للسعادة.

لماذا لا يحظى كل شخصٍ بفرصة أن يسلم ظهره بانتظامٍ ليدين بهذه المهارة ونحن في القرن الحادي والعشرين الذي تغزوه وسائل الاتصال ويعتبره الجميع قمة الحضارة؟ حلمت بإعلان جديد عالمي:

"ولد الناس أحراراً ومتساوين بالتدليك". استسلمت للنوم، حلمت:

"لا تتوقف أجسادنا عند حدود الجسد". رغبت في أن أصدّق هذه القراءة الشعرية للعالم. وإلا كيف نفسر الجاذبية المذهلة التي مارستها والدتك علي؟ وبثلاث لحظات لا أكثر؟

تصادمت أمواجنا.

إنها مصوّرة في إحدى الصحف، لن يكون العثور عليها أمراً صعباً. وبدأت المطاردة، مطاردة باز.

العثور على باز

لابد أن تعرف يا هكتور أنني كنت والدك ولكن لدي مهنة أخرى: صحفي.

كنت أكتب أيضاً روايات، إلا أنني توقفت في تلك الفترة لأن كتابة رواية هي ماراتون وكنت أفضّل العدو بأقصى سرعة عند الاقتراب من الهدف.

يتطلب عصرنا هذه السرعة، لا شيء يمضي، بل يقال إن الثقافة لم تعد تحمل شيئاً وإنها تفرض وجودنا في المتاحف وتفصلنا عن العالم.

يُقال إنه في هذه الحقبة اندثرت الكتب. لماذا؟ يعمل جيلنا كثيراً ويطاردون الزمن، لا يقرؤون إلا على الشاطئ وبما أنهم يفتقرون للمال اللازم للذهاب إلى الشاطئ بسبب الأزمة فما عادوا يقرؤون. بل وأكثر أيضاً، نسمعهم يقولون مع ذلك أنه لا شيء يقارع متعة قراءة كتاب إن استسلمنا لها. يقولون هذا كالمخيمين القدماء الذين يتحدثون عن تسلقهم للجبال فيما مضى. وهاأنذا هنا لأذكرهم بأنه لابد أن يهبوا لأنفسهم هذه المتعة فالمتع هي كل ما يبقى لنا من حياة فانية. تتبدد الأحزان الكبرى ولكن لا يزول ألق ضحكة صديقك المفضل الذي يقول لك في خضم حفل إنه يحبك حتى الموت ولا ذاك التألق الذي يرافقك حين ترى للمرة الأولى تحفةً فنية من الرخام وتدرك آنذاك أنك لست تمثالاً من رخام وتشع شعابك العصبية أمام هذا الخلق من صنع يدٍ بشرية. كما تبقى ذكرى عذوبة الماء خالدةً حين تقرر الذهاب للسباحة في حرٍّ خانقٍ، وأيضاً حين تمنح نفسك رشفةً من الكحول تبثُّ النار في عروقك وتجعل منك شخصاً جذاباً.

سأستغل الفرصة لأسدي لك نصحاً يا مخلوقي الصغير ذا الأربع سنوات: لا تهمل جسدك أبداً، إنه أداتك الموسيقية دعه يهتز ويعزف وخذ منه أجمل الأحاسيس. اعمل عليه ليكون جميلاً وبهياً وأهيفَ رشيقاً ليتغلغل في كل مكان ويلامس كل الأجساد الممكنة ويسبح في كل مياه. اجعل منه حليفك الأفضل، دعه يشعّ واطلب منه كل شيء.

يراودني شعور بأنني توليت مهمةً: الراهب الجندي لخدمة الثقافة، ذاكرة عالمي المتطلعة نحو المستقبل.

مكتبي هو الحي الذي أعيش فيه بالكامل، معبدُ ثقافة بَنَتْهُ مئات الكتب المتراكمة كأبراجٍ لم تبنَ بعد في دبي، أعمالُ تنقيح إجبارية. تستمد نورها من نافذةٍ كبيرةٍ تطل على حاجزٍ من أبنية حولها أحد المصوّرين فيما مضى لعملٍ فني. حاجزٌ تتخلله ثقوب النوافذ أراقب من خلالها السكان، لدى هبوط الليل.

كنت أسهر على مراقبتهم. يبحثون بين صفحات الصحف عما يسلب ألبابهم المنهكة بهجوم الآلات، يبحثون عما يعيد إليهم أنفتهم كبشرٍ. لوحات، أفلام، كتب، مسرحيات... أشعر بخفقان الإبداع وكنت أعرف وجوه الجمال التي ستلوح وتنفجر في وجه العالم لترسمه من جديد. كنوزٌ في متناول يدي، كتبٌ يسرقني ألقها ما إن أقلب صفحاتها. حسبي العناوين لأقع أسير فرحتها: الجمال عديم الجدوى، المهووسون، آلية النساء، الضجيج والهيجان، فتيات النار، الألعاب البيتيارية[1]، كحوليات، بطلٌ من هذا الزمان، كتاب الرجل، مورافاجين، رسائل أضراء في متناول من يرى،

---

1 - البيتيارية: مهرجان إغريقي كان يقام في دلف مرة كل أربع سنوات تكريماً للإله أبولو.

حب أصفر اللون، المرأة ذات الثلاثين عاماً، دراسة شيقة حول سحر الحب المتبادل في هذا العالم وفي العالم الآخر...

آه! يا لسحر هذه العناوين!

كما أنني أحببت الصور والدراسات الأحادية التي يقوم بها الفنانون أمواتاً كانوا أم معاصرين تبث الدفء في روحي، تنبثق منها آلهةٌ عارية تعتمر قبعات وفلاحين شعث بسراويل منتفخة وكذلك وحوش برؤوس عجلٍ ومعارك دامية ونساء بأحواضٍ رملية جمالهن يخدش الأبصار وجنياتٌ زرقاوات، عواصفٌ في سماوات تعبرها صور وفلزات من البرونز منحوتة في Bénin. كان لدي دواوين شعر تقول:

حيينا أصناماً بخراطيمها الطويلة
عروشاً مرصعة بجواهر مضيئة
قصوراً متقنة بحفلاتها الساحرة
التي تودي المصارف للخسارة

هل مات الأدب؟ كلا، بل هو في رقادٍ وحسب. سأسهر من أجله، قلت لك. إنه في "سراديب الموت" كما قال أحد كاتبي المقالات والذي أمضى شبابه في سهول البامبا في أميركا الجنوبية برفقة مدخن تبغ كوباني، أكنّ له إعجاباً خفياً لأنه يحظى بقدرة هائلة على رمي عدّة صواريخ تضيء سماء هذا العصر. قال لي خلال لقائنا الأخير: "الحنين ما هو سوى ركلةٍ على مؤخرتنا". كنت عندها في ضيافته في غرفة الاستقبال المحاطة عمودياً بجوائز معدنية من المفترض أن تمسك السقف من الانهيار.

نعم.. ما الحنين سوى ركلة على المؤخرة ترغمنا على التحرك لئلا ننهار أمام القدامى الذين أظن ومنذ عصور الآلهة أنهم يفرحون بأن يروا فينا استمرار كل شيء ظناً منهم أننا ما فقدنا شيئاً.

وإن كان الأدب في سراديب الموت فلابد أن يخرج منها عما قريب. كأوائل المسيحيين الذين نظموا بعضهم وتواعدوا عبر رسم أسماكٍ على جدران روما بالطباشير إلى أن تدفقوا في العالم كأن شيئاً لم يكن.

نارٌ كامنة. ستلقي البراكين حممها قريباً.

كنت أحب أيضاً دوار الحداثة. قلت لك إنني علّقت عداد السرعة، حتى أنه كان مرئياً. استيقظ فجراً أتجمّل ثم أندسّ في سيارة أجرة تشبه قرشاً ضخماً أسود اللون. يروق لي السير على الزفت وأنا أصغي للموسيقى. موسيقى تغني "So young" أو "I wanna be abored" تلك الموسيقى التي كنت أصغي إليها وأنا في العشرينات من العمر والتي عُثر على تسجيلاتها القديمة وأُعيد تسويقها لأننا في زمنٍ: "إعادة التسويق" كم كنت أستمتع حين تحملني تلك الموسيقى وأنا عجوز إلى شبابي حتى أصل إلى الأستوديو الذي يلمع بشكل غريبٍ كيقطينةٍ وردية اللون، أجل، كنت أحب أن يجملونني ويقومون بكيّ قمصاني ويسألونني إن كنت أرغب بفنجان قهوة ويجهزون مكبرات الصوت كما راق لي أن يقوموا بتحريكي وأكون مرتاحاً للحظة! راق لي أن أركض نحو الهدف وأحرق أمام الملايين نزعة الزهد والعدّاء التي تحيا داخلنا والتي ستظهر يوماً. لم أعد أكتب بسبب القضية. أقدم في الأستوديو ما بين دفقات الأمواج كتب الآخرين وأفلامهم وأعمالهم.

في هيكلي الخاص هناك مئات الأفلام، من بينها قصةُ الموسيقار الـذي لم تعرفه والذي غنى أغنية "viole-moi" أي "اغتصبني". كان أول من أعلن أن "أعمال التنسيق المطبقة على كل شيء والترفيه الملكي واستحالة استعادة حق الطعن وتحويله لمادة للبيع كلها قد بطلت". لـدي كـل إصـداراته سأطلعك عليها يوماً إن شئت وإن وُهبت عمراً.

أطلت السهر على علبي السحرية مـدفوعاً بحماسٍ شـديد ففيهـا مـؤن تقتات عليها روحي ومكونات شعوذتي.

يسير العالم بشكل سيئ والصحافة تلاقي المصاعب. تنبعث الأخبار من كل حدبٍ وصوبٍ مجاناً ويفترض علينا بيعها. لكنني كنت الراهب الجندي كما سلف وقلت، دون جهدٍ يـذكر، أطـوف كـل يـوم راكضاً الأدراج الحلزونية وبيدي تلك النصوص البابلية، تلك الصور ذات الأشكال والتي أحفر خطها المعدني. كانت تحريضاً مستمراً شيءٌ ما يثير أعـصابي ويكفيني طيلة حياتي.

أصبحت حكيماً أي دون حـراك، ودارت رحى المعركـة القادمـة هنـا، سهرت على عتبات العالم القديم، أغرف من الينابيع القديمة وأخلطهـا مـع مياه الحداثة البراقة لأحصل على أفكـاري الخاصـة وأتلـذذ بالـصفحات أو بكمية من بصمات الأصابع. أرغم نفسي على تكرار شعار شاتوبريان وأنا في برجي الزجاجي: "الصحافة هي الحديث في حالة الصاعقة، إنهـا الكهربـاء الاجتماعية"

عـدوت إلى هـدفي ولكـن المغلفـات الفعالـة الـسبع الخاصـة بوالـدتك شوشت مغلفاتي.

خرجت في اليوم التالي من كوتي الزجاجية ونزلت إلى "مسطح الصور" وهو قاعة كبيرة مغطاة بالموكيت ومليئة بالحواسيب يختبئ خلفها أنـاسٌ. لا يجب فصل الموظفين بعضهم عن بعض. منذ مطلع القرن الحادي والعشرين مع نهاية القرن المنصرم، وجدت المؤسسات أنه من الجيد الانضمام لنوعٍ من الشيوعية الفضائية. يعود الامتداد الجغرافي الحميمـي في المؤسـسة للجميـع أي إنه لا يعود لأي شخص، سمي هذا: "الفـضاء المفتـوح" إنـه النقـيض تماماً للكوكب الخاص، نخاريب دون فواصل لخليةٍ كبيرة تدعى المؤسـسة. طبقت مؤسستنا أيضاً الطقوس ذاتها.

في يومٍ من ذات الأيام، استقبلت مـصوراً ذائـع الـصيت في الـستينات، الرجـل الـذي كـان في فرنـسا آنـذاك مزخـرف الأسـطورة المذهبـة لتلـك السنوات. كليشاتٌ ضوئية ومضيئة كما أنها مهتزة تمثل حياةً مليئـةً بـالجنون لا تـشوبها الغيـوم. أسـاطير لـزمنٍ بُجِّلـت فيـه الآلهـة شـعبياً "جـوني" و"سيلفي": جـسدٌ بهـي وشُـقرة كالليـث، راي - بـان بقياسـات ملكيـة، أحواض سباحة في وضح النهار بأشعة الشمس وشفاهٌ مغطاة بزهور الربيع وعناقاتٌ فخمة وصادمة عـلى المقعـد الجلـدي في سـيارة Ford Mustang تعانق الأفق.

يضع ربطة عنق بأبهة عالية، قال لي وكلبه طليقٌ بقربه:

- "انتظر سيصبح الأمر كذلـك، صحيفة"

سألت: "مـاذا تعني؟"

- ليس هناك أرائك!

- وإذاً؟

- إذاً ماذا ستفعل لتتكلم؟ لتفكر؟ لتتأمل؟ لـتحلم؟ لتبـدع! أي لتمتـع قراءك، لابد أن تحصل على إحداها. أليس كذلـك؟

إنه حقيقـي ربـما مؤسـف لكـن هـذه الجملـة التـي أنـشأها متمـردون نوكيفيلان (احتفظت في مكتبي على جواب من تلك الحقبـة التـي شـهدت مخاض الصحف والتي لم أكن أعرفهـا، أريكـة مـن ماركـة "كنـول" رائعـة بيضاء مع وسائد حمراء. تـشبه إلى حـدٍّ كبـير مـا رأيتـه في مؤسـسة لامبـدا. نتسمر خلف شاشـاتنا المـضيئة لنرسـل إيمـيلات أو نجيـب عـلى الهـاتف (أحياناً نردّ للشخص ذاته الذي أرسل لـك برسالة عـبر الإنترنـت هـذا مـا يتطلبه حسن السلوك، وآخر عـلى المجيـب الآلي في المكتـب والثالـث عـلى المجيب الآلي في الجوال وأخـيراً الرابـع برسـالة SMS. هـل تجـرؤ عـلى ألا تتصل؟)، كان بوسعنا جميعاً في النهاية بيع قروضٍ عقارية أو بيتزا الفـصول الأربعة أو إقامات سياحية. أصبحنا دون فخر ولا حـراك محركـي الأخبـار الغزيرة المتبدلة باستمرار والتي لا يمكن تخطيها. إننـا ننـشر الأخبـار كمـن ينشر العطر.

كنت آمل في أن يتغير كل هذا وأن يصبح قدرنا في متناول أيـدينا مجـدداً شهوانياً وكهربائياً حسب دورنا كما في قطار العالم. استفاقت البراكين داخلي حاملةً معها ما يليق بها من رعشات.

راقت لي المؤسسة ولوقت طويل، الجو العام فيها كان ظريفاً لا يخلو مـن بعض المشاجرات والملاسنات البذيئة، إلا أنني كوّنت صـداقاتٍ وعـشقت عملي الذي يتطلّب منّي الكثير من العمل والمعرفة تقريباً، معرفـة كـل شيء عن كل شيء.. كما عليّ أن أبقى متيقظـاً وأفـسح المجـال للحماسـة متحـدياً الضغوط الدائمة. إنه عملٌ ذو معنى.

لنعد بالحديث إلى والدتك التي سعيت جاهداً لتقفّي أثرها. يتأمل الرسامون عشرات الصور تمر على شاشتهم المضيئة آتيةً من العالم بأسره ترسلها الوكالات لينتقي منها اختصاصيو الصور المرئية ويحتفظوا بما يخدم مصالح المؤسسة وما تودّ أن تعرض للعالم ساعة بساعة.

نزلت لمقابلة رئيس الرسامين اسمه أنطون، كنت أحبّه كثيراً بل أكنّ له احتراماً كبيراً. لو لم يكن ذلك تأنقاً بالكلام لقلت إنه يشكل قلب الصورة. لأن العين هي الأساس ولن يكون أنطون رئيس الرسامين لو لم يكن سوى تلك العين، كما كان له أنف مثل الكمأة قادر على مطاردة الصور المرئية في إنتاج الصور العالمي عبر عدة ضغطات ماهرة على فأرة الحاسوب.

كان منكباً على عدة صور لقائدٍ سياسي يحب تناول "chili con carne"

- مرحباً أنطون كيف حالك؟

لم يستدر، ظلّ غارقاً في بحثه إلا أنه سمعني:

- إنني تائهٌ في البيئة السياسية...

- يجب أن أجد أحد المصوّرين.

- ما اسم عائلته؟

- لدي اسمه الأول فقط، انطون، إنها مصوّرة اسمها باز.

هنا، استدار لأن أنطون يهوى الفتيات ويوليهن انتباهاً كاملاً. تعرض شاشة حاسبه صورةً لإحدى الغانيات اللائي يحرضن مناطق الرغبة في الدماغ.

- ماذا قلت؟

- باز، باء ألف زاي.

- في أي وكالة تعمل؟

- ليس لديّ أدنى فكرة...

عزف على جهازه وسأل:

- ما الموضوع الذي تعمل عليه؟

- أنطون، لا فكرة لدي. جلّ ما أعرف عنها أنها تشتري "علب مزيل الغبار".

- صفها لي.

- العلبة؟

- كلا، المصورة.

- لا غبار عليها.

ابتسم وقال: تسرّني رؤيتك منتعشاً هكذا. يقال إنك ستذهب لتقوم بريبورتاج...

- حين يدخل الجمل من خرم الإبرة...

- لم يعد عليك التفكير دائماً بهذا، بات من الماضي.

قلت لأعود إلى ما يعنيني:

- سمراء وعيناها كالفحم المشتعل، نار سوداء مثل شعرها. ترتدي كنزة كتب عليها I Love Asturias يبدو أنها ترتديها على جسدها مباشرة بغياب واضح لملابسها الداخلية.

قال متظاهراً بالامتنان الساخر:

- آه حسناً! سيساعدني هذا.

- ارجو أن تجدها من أجلي.

عدت إلى غرفتي الزجاجية، أرسلت فاكساً ثم غرقت في ألبوم أو اثنين إلى جانبي وفيهما صور لمصورين بدؤوا حديثاً، تساءلت في سري: ترى هل أعثر على موضوعٍ جيد للمجلة؟ أحدهم يدعى بيتر هوغو، التقيت به في باماكو منذ سنوات قبل أن أقع في الغرام. سأعود إليه يا بني، بهدوء فلابد أن تفهم بشكل جيد أسبابي ودوافع المأساة. يعمل بيتر في نوليود وهي هوليود النيجيرية يتم إنتاجها في لاغوس، عاصمةٌ غارقة في العنف الشديد في بلدٍ مشبعٍ بالبترول وينزف فساداً وموتاً، رضخ بسرعة مقابل حفناتٍ من المال، تعكس تلك السينما الأرض التي ربته: السحر الأسود والجنس والدم والبترودولار. قلّبت الصفحات حيث القَتلى خلف الرسومات الشعائرية تتبعهم الفتيات بصدورٍ منتفخة كالبصل وعيونٍ منقلبة.

ما الموضوع الذي كانت تعمل عليه باز؟ رباه لا على الموت.

دُقّ الباب، آنذاك كان لمكتبي باب.. إحدى الميزات التي لم تدم وهربت أمام ما انتشله "الفضاء المفتوح".

كان أنطون من دق الباب، وقف أمامي وناولني حافظةً من الكرتون.

- بهذه السرعة؟

ساورني قلقٌ غريب.

- أظن ذلك.

أخذت الحافظة.

أضاف قائلاً: أظن أنك ستقع في حبها.

فتحت الحافظة الكرتونية وعثرت على صور لشواطئ، رمل وصخور وكراسي طويلة مع أناسٍ يرتدون زي السباحة. صور تم التقاطها عن بعد من الأعلى ربما. شيء ما يشبه النمل. جارحٌ ومؤثر بآن واحد.

اعتراني الارتباك، لا تشكل هذه المشاهد المبتذلة شيئاً من ميولي ولكنْ لهذه الصور التي تبدو سابحةً في نورٍ أبيضٍ سحر خاص، لابد أن أنطون قد قرأ ملامحي، قال:

- إنها تعمل على تصوير الشواطئ، هذه فكرة مميزة أليس كذلك؟

- أجل... ولكن لماذا قلت إنني سأحبها؟

- هل كنت تفضّل مصورة حروبٍ مثلاً؟

لمح في عيني الإزعاج، أضاف: - أترى..؟

- كيف عرفت أنها هي؟

- إنه موقع "باز" ببساطة.

- ربما هناك أكثر من واحدة...

- هناك واحدة أخرى.

- فتاة أخرى اسمها باز؟ إذاً دعني أرَ ماذا فعلت الأخرى...؟

- لا داعي.. إنها هي.

توقف راسماً ابتسامة يشوبها الضيق فساورني الشك مما يرمي قوله:

- أمعن النظر سأدعها لك حتى النهاية..

داخل الجيب هناك حافظة أخرى أكثر دقة ولونها أزرق سماوي فتحتها وأنا أمسك أنفاسي، قفزت من فوري فأمام عيني وبكل عظمة ارتسمت

"أرداف"، أرداف امرأة جالسة على حافة سرير ويعلوها خط الورك الرائع وذاك الظهر المقوّس تلاقيه ذراعان مرتفعتان يعلوهـا جِيّـدٌ مغطـى بـشعرٍ أسود اللون يأخذ شكل المعين.

- من أين نكشت هذا؟

- عمل طالب، ألبوم مدرسة الفنون الجميلة عام ٢٠١٠.

- التقرير؟

- هل بصرك جيد؟

- ستة على عشرة، يمكن أن أكون ربان صيد.

- إذاً انظر، الجهة اليسارية في الأسفل.

- هناك خالٌ؟

- وشم.

- لا أحب الفتيات اللواتي يشمن أنفسهن.

- إذاً دعها وشأنها إلا إذا كان ذلك من أجل مقالٍ يتعلق بالعمـل.انظـر فهذا الوشم مثيرٌ للاهتمام حقاً، فأنا أعلم بهذه الأمور..

- لا أرى شيئاً.

- كبّرت الصورة، في الصورة التالية.

- كبّرت الصورة؟ صورة أردافها؟

- قلت لي: اعثر عليها من أجلي..

- وماذا بعد؟

- هذا الوشم يثبت أنها هي، ذكرت لي "أستورياس" أليس كذلك؟

- أنا نفسي لا أعرف ما هي "أستورياس".

- I Love Asturias، الكنزة التي ترتديها.

- حقاً..

- أستورياس هي منطقة في إسبانيا.

- لا أعرفها.

- إنها منطقةٌ في إسبانيا، يشربون فيها خمر التفاح.

- من الطبيعي جداً ألا أعرفها وكأنها لم تكن موجودة.

أمعنت النظر في نتيجة تكبير الصورة: بضعة سنتيمترات مربعة من الجلد كامدةٌ بعض الشيء، في حجمٍ ظريفٍ منتفخٍ، رُسم صليبٌ على هذا الجلد بلونٍ أسود ضاربٍ للزرقة صليبٌ له أربعة أغصان متباعدة بالمسافة نفسها عن المركز الدائري ككوكبٍ صغير، عُلِّق على كل غصنٍ أفقي حرفان معلّقان بسلسلة موشومة بشكلٍ رائع: أول حرف وآخر حرف باليونانية (ألفا وأوميغا).

أعقب أنطون:

- إنه رمز أستورياس: صليب الملائكة أو صليب النصر: Cruz de la Victoria

- لهجتك مرعبة..

- هذا الصليب هو صليب الملك الإسباني القوطي "بيلاج" هو محرّض Reconquista أي الفتح المسيحي الإسباني في موريه les Moures

هززت برأسي وقلت:

- إنك تعرف الكثير...

- أجريت بحثاً للتو. يمكنني أن أخبرك بالمزيد عن "بيلاج" الذي كان حامل رماح آخر الملوك القوط في هيسبانيا[1] و"لذريق" الذي لقي مصرعه على يد جيوش طارق بن زياد المحارب الاستراتيجي في الجيش الأموي في معركة "وادي لكة" التي أتاحت للعرب احتلال شبه الجزيرة العبرية....

- يا لهذه الثقافة..!

- عبر الإنترنت. بالمناسبة ستقيم باز معرضاً بعد أربعة أيام.

- أين.؟

أعطاني العنوان ثم غادر وأنا أناديه كالمجنون:

- انطون، هلا تركت لي الصور لو سمحت.

هاك يا بني! لن تعرف أبداً أنني رأيت أرداف والدتك قبل أن أرى عينيها. كان لا بد أن أقول إن كل شيء بدأ بالعكس آنذاك.

1/ - هيسبانيا هو الاسم الذي أطلقه الرومان على كامل شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال وأندورا وجبل طارق وجزء جنوبي صغير جداً من فرنسا) واسم إسبانيا في اللغة الإسبانية مشتق من هيسبانيا.

فن باز

كيف أصف لك بعدة أسطر معرضاً فنياً من القرن الحادي والعشرين؟ مساحة واسعة بيضاء، "white cube" كما تسمى. تفوح رائحة الشامبانيا والناس يسعون لإظهار لباقتهم وهم ليسوا سوى صلع وفتيات يضحكن بقوة ليخفين فراغ الحوارات التي تغص بأسماءٍ لا يعرفها سواهن، باستيهامٍ[1] من فنانين ما كنَّ قط ولن يكنّ أبداً ربّات فَنّهم.

خاصة أن الأمر ليس كذلك أبداً.

دفعت باب أحد المغاسل القديمة في الدائرة الثامنة عشرة. هاك، مغسل، يبدو أن الماء عكس النجاسة.

لم أجد في الداخل صلعاً يتقنعون الرفاهية ولا نساء طاعنات بالسن يضحكن كالفتيات الصغيرات، بل وجدت فيضاً من الشباب، هيئة شباب وأعصاب شباب ودم شباب. فتياتٌ رائعات الجمال يبتسمن تحت تلك الغرة كاللبؤة، يزين شعرهن بتيجانٍ ويرتدين فساتين عرس حافيات الأقدام أو مع حذاء الدراجات النارية. كما أن هناك فتيانٌ يرتدون كنزات فضفاضة أو قمصاناً ملونة أغلقوا كل أزرارها حتى آخر زر مع بنطال ضيق مرفوع بفلينات أعلى العرقوب المثقل بأحذية ضخمة. أما شعرهم فكثيف وحليق على الجانبين وفوق الرقبة، أما النظارة فلها هيكلٌ قشري، يا لهم من جماعة مدرسة فنون حقيقيين. تتوسطهم والدتك ملكة تلك الخلية التي

1 - استيهام: تصوير تخيلي خادع من حلم أو هلوسة.

تطنّ نشاطاً وحيوية. ترتدي فستاناً ملوناً وشعرها مرفوع كعالمة بشكل زهرة السحلبية الدامية.

لو أنني في أي معرضٍ يقام في الدائرة السادسة في باريس حيث تتلألأ نفائس شارع السين أو مازارين المعاصرة لقدم نحوي فوراً أحدٌ ما وسألني كيف حال المؤسسة. أما هنا، فلا شيء فأنا رجلٌ بالثلاثينيات صحفي بل عجوز ودخيل.

لا شامبانيا هنا بل كوكتيل من المعارف بأسماء آلات تصوير. يمضي هؤلاء الناس وقتهم بالتسلية وإنه لأمرٌ غريب في هذا الزمن. هل هذا يعني أن هذا الجيل الجديد سينقذنا من براثن الجيل السابق والذي أورثنا فرنسا - يخشى نصف سكانها، حسب استطلاع رأي حديث - أن يصبحوا متسولين؟

تأملت والدتك بجمالها الفاتن وسط هؤلاء الناس رائعي الجمال، بثّ هذا الشباب فيَّ الدفء. أخذت كأس Leica يحتوي على فودكا.

عرضت شطآنها بشكلٍ انتقائي جداً يفسح المجال للبصر بالتنزّه لوقتٍ طويلٍ. شطآن من البحر المتوسط وخلجان صغيرة حيث يطلُّ فيضٌ من تفاصيل: عجوزٌ تحيك جورباً وتضع نظارات مثل نجوم أفلام الخمسينيات. طفلٌ في دولاب السباحة تحت أنظار مربيته الإفريقية بوجهها المرحب ووالده الذي يتظاهر بقراءة الجريدة لكنه لا يزيح ناظريه عن المربية. المنقذ يغفو على كرسيه في منصة المراقبة البانوراميا. انعكاس أشعة الشمس على الصخور وعلى أدوات نوادي كرة القدم التي يضربون فيها المنشفة الإسفنجية. آلهات الجمال فينوس يفترشن الرمال، يلاصقن بطونهن على فرشٍ وطيئة طرية بعد أن تأكدن من فك صداراتهن لئلا تنسى الشمس

أن تلوّن بالسمرة المحببة الآثار البيضاء التي خلّفتها الحمالات وأخريات عرضن نهودهن للشمس غير آبهات لنظرات المتسكعين الذائبة التي تتصبب رغبة، لا تخطئها تلك الحدبة الظاهرة على سراويلهم القصيرة. تضج هذه الصور بالحياة. تتمتع تلك القادمة من أستورياس بعين مصورٍ. أخذت نفساً عميقاً، شعرت أنني بحالةٍ جيدةٍ، يراودني إحساس بالحياة حين يلف جمالها في شبكية عيني كدوامات.

وقع اختياري على كتلة صخرية تتسلل نحو البحر كشرفة غطسٍ معدنية يتلاشى الزبد النابع من الأمواج راكعاً عند أقدامها. صخورٌ مسطحةٌ يتمدد عليها أشخاصٌ، في الصف الأول خلفاً يتمدد صبي صغير بأرجلٍ نحيلة يرتدي زي سباحة بلون أخضر تفاحي وبشرته كامدة اللون مغطاة بزغبٍ ناعم (تكشف الصورة كل هذه التفاصيل)، يرفع يده كواقية له من أشعة الشمس. تذكرت طفولتي آنذاك، لكنني الآن عندما أتأملها أفكّر بك أنت يا بني.

اتجهت نحو العارضين وقلت: إنني أرغب باقتناء هذه الصورة، فوضعوا لاصقة على الإطار، العنوان في أسفل الصورة: "متعة الوجود" ابتسمت وقلت في سرّي: هذا حقاً يختلف عن عنواني "خبرة ١" و"خبرة ٢" وعن كل تلك العناوين الطنانة. استدارت باز نحو العارضين، أظن أنني قرأت على وجهها الاعتزاز مختلطاً بالخشية. خشية أن تفلت نظرتها، فكل صورةٍ بالنسبة لها نظرة سيمتلكها غريب من هذه اللحظة. يبدو أنها ما لمحت تقارباً مع تلك اللحظة التي صادفتها فيها في البقالية، حاولت جذب أنظارها، نجحت إلا أنها استدارت فوراً.

- كان بوسعي أن أقدّم نفسي بحضوري، كنّا حاضرين بالنهاية في الحاضر وجذورنا ضاربة في الزمن وفي الواقع وفي الفعل.

في النهاية نحن دائماً مستعدون لشق طريقٍ في خارطة الحنان الخاصة بنا، أي في بلد الحب الذي اكتشفته "مادلين سكوديري" في القرن السابع عشر مع مشاهير ذاك العصر الموصوم بالصالونات حيث الإغراء يوازي الفنون الجميلة. في تلك الخارطة نحاذي نهر الهوىٰ وقرىٰ يطلق عليها اسم إحساس وملاطفة واهتمام مع تذاكر ناعمة ومغازلة ولكننا أيضاً قد نتخبط في بحيرة الإهمال. لو تعارفنا لتمكنتُ من رؤية ملامح وجهها عن قرب فألاحظ إن كانت تذكر لقاءنا الليلي السريع أو تذكر أمواجي التي فرقعت تلك الأمسية بسبب أمواجها ما بين صناديق البيتزا وأكياس الخس. ربما كان بوسعي أن أخمن إن كان لي التأمل بنزهةٍ قادمة علىٰ شطآن البحر الخطير المثير الذي يترامىٰ نحو الشمال الأقصىٰ. "البحر الخطير لأن من الخطورة لامرأة أن تتخطىٰ حدود الصداقة الأخيرة بعيداً عن ذاك البحر حيث تدعىٰ "الأراضي المجهولة" هذا ما كتبته الهاربة مادلين سكودري التي كانت تعلم هشاشة السمعة ولكن كم من الممتع تخطيها.

سألت عن السعر، أخرجت رزمة من الأوراق النقدية وناولتها لأحد العارضين. لو دفعت بالشيك، لأعطيتها اسمي. بكل بساطة؟ قلت: سأرسل أحداً ليأخذها غداً. وخرجت لأحضان الليل أحلم بصوتٍ يقتحم الصمت ويقول لي: "سيدي المشتري، من أنت؟ هل نالت إعجابك شطآني؟ إذاً لابد أنك ستحب الوشم القوطي..

بالطبع ما حدث شيء وما خرج أحدٌ.

تملكني الحزن لأسبوعٍ تقريباً.

هكتور، يجب أن أقول لك: إنك يوماً ما ستقع بالحب، هذا ما خطر لي يوم ولادتك حين رأيت شابين في الحافلة التي أقلتني بعيداً عن المستشفى حيث رأيتَ النور. عبرت الحافلة أمام دار التوليد. دقت الأجراس من أجلك، لم أكن أرغب بالعودة سريعاً. إنها الساعة الخامسة صباحاً والفجر يلوح فوق المدينة أما أنا فارتميت في آخر الحافلة الثقيلة الفارغة تتملكني فكرة أن تحملني إلى المنزل بإيقاع الشوارع والإشارات الضوئية والأبواب التي تفتح وتغلق.

في الموقف التالي، استقل الحافلة شابان عاشقان. شابٌ وفتاة جميلةٌ كتلك الفتيات اللواتي أحببت حين وصلت إلى باريس، فتيات بشعرٍ قصيرٍ ونظراتٍ جريئة يحيط بها النمش. أما الشاب فأطلق شعره طويلاً بلا مبالاةٍ ممتعة ويرتدي حذاء من الجلد البالي. ضمَّ الفتاة بين ذراعيه وأرخت رأسها على صدره، تلاقت نظراتها بالأفق حيث يتغير الضوء ليوقظ المدينة أما هما فظلت نيرانها متقدة. أتخيل اللحظة التي قد يكونا فيها في مأمنٍ ليفلت جسداهما العاريان ككلاب الصيد على سريرٍ غرفة مسقوفة. مشهدٌ نراه من الأعلى، من كوّة الباب.

فكّرت آنذاك فيك، قلت في خلدي: إنها إحدى أنواع السعادة بالحياة أن تجد نفسك في حالةٍ مماثلة، ستمنحك الحياة هذا. على الأقل هذا ما منحتك إياه.

تدور في رأسي نظرتها وزهرة السحلبية التي تزيّن شعرها وذاك الصليب الغبي. الصليب المرسوم على أردافها، صليب النصر الذي صلبني. يا

لأنطـون القـذر. لمـاذا جعلنـي أرىٰ ذلـك؟ أسرني الملـك الإسـباني الويستقوطي. أتحرق رغبةً للعيش في "أوستوري"، تلك المنطقة في إسـبانيا حيث يشربون خمر التفـاح المنتج في "نورمانـدي"، تـرىٰ هـل يـصارعون الدجاج عوضاً عن الثيران؟

كتبت عدة أسـطرٍ عـن عملهـا وجهزتهـا للنـشر في العـدد القـادم مـن الجريدة. أعرف أنك ستقول لي أن أسخّر وضعي العام لمـصالح شخـصية، سأذكرك فقط أنه في مجال الفن نحب لدوافع شخـصية لأن الأعـمال الفنيـة المصورة منها أو الممثلة تحرّك في وجداننا شيئاً ما. حمل مقالي عنوان: "امـرأة وشطآن":

تتملك الرغبة الرجال والنساء والأطفال، رغبة الارتمـاء في المـاء، متعـة الوجود في العالم. المتعة التي تخلّفها مداعبة الـريح وصرخـات الفـرح التـي يطلقها من معهم. متعة أن يكونوا معاً متمرّغين بالرمال. أطلقت باز إيغويلرا لاسـتر الـشطآن لكنهـا ليـست بـصورة شـواطئ إنهـا "حوريـة الـشطآن" لفريدريك ليتون تنتقل لعصر الفـراغ الـذي يجمـع الجميـع، صـانعة تجمـع القديم والحـديث لتحتـضن بنظـرةٍ شـاملة الطقـوس التـي تمـارس حـول الكراسي الطويلة فتتمازج ألوانها، باعة حلوىٰ متجولـون ومناشـف تـتلألأ بنور الشمس في المساحة الفارغة. وهنا اسكيمو من الشوكولا يقـع مـن يـد أحد الأطفال الذي دفعه طفلٌ آخـر. يـد أبٍ ترتفـع ليعاقـب ويـد أمّ تمتـد لتواسي. هناك، قبلة يتبادلها مراهقان متشوّقان لاكتشاف نكهة الآخر. رجلٌ عجوز يبيع بوالين علىٰ شكـل سـمكة، تلمـع حراشـفها بـوميض الـصيف. تلوح ابتسامته المرهقة تحت الألوان العابرة لتقول إن أفكاره بعيدة عن هنا.

باز إيغويلورا لا ستر هي ديباردون للسمرة المحببة ونجي للأحداث الشمسية. إن الشطآن التي تصورها شواطئ حياة كما أنها شواطئ زمن، زمان محدد للأبدية حيث تتأمل الإنسانية بثوب السباحة راغبةً بأفقٍ آدمي.

وددت أن أضيف شيئاً ما عن النور شديد البياض لمؤلفاتها، وعن القلق المبهم الذي ينبعث منها دون أن أجد له شرحاً.

اختار انطون كصورةٍ مرافقة إحدى اللقطات التي أخذتها لشاطئ مكتظٍ قرب أحد المعامل. مدخنتان محززتان بالأبيض والأحمر كصاروخين يتجهان نحو السماء الخلابة. منظرٌ لعطلةٍ مدفوعة تشعُّ دائماً بذاك النور. ظهرت الورقة.

منذ يوم الافتتاح وما توقف رأسي عن الطنين ومعدتي ترفض ما يقدّم لها من طعام. وددت الولوج إلى هذه الصورة وألاقيها هنا في هذا المنظر.

كم وددتُ أن تشرح لي ما يجول في رأسها وتغمدني بنظراتها مع نفس ذاك التعاطف الذي تبديه في لقطاتها. أردت ألا أكلمها أثناء الافتتاح وألتزم مكانتي المضحكة، ألتزم بحكمة سنّي دون أن ألوذ لعقل المجتمع. كان من السهل جداً أن أقدّم نفسي. تباً. إن الحياة قصيرةٌ جداً لا تستحمل هذا النوع من التردّد وها أنا شارفت على الأربعين تماماً.

أثقلت كاهلي كآبةٌ مرهقة ورافقني إحساس أن حياتي تفلت مني والإخفاق يلازمني وخاصة أن كل شيء يخبو من حولي شيئاً فشيئاً وكاد الوضع يزداد سوءاً لو أنني ما رأيتها بعد أن ألغيت كل مواعيدي.

أمضيت وقتي أرى صورها على الشبكة وأحاول إيجاد نصوص تتحدث عنها وأفتش في ماضيها الذي ما وجدت عنه أي شيء، ليس لديها موقعٌ

خاصٌ بها ولا صفحة على الفيس بوك، زودني موقع المعرض بمعلومات عرفتها مسبقاً: إسبانية عمرها ثلاثة وعشرون عاماً تعود أصولها لمنطقة أستورياس، درست الفنون الجميلة في باريس وتعمل على تصوير الشطآن. ما عثرت أبداً على صورتها عاريةً. كان بوسعي أن أسأل انطون إلا أنني خشيت أن يعثر على أشياء قذرة، فهي بالنسبة إلي تلك الفتاة ذات الزهرة على شعرها والتي تجمع "بخاخات إزالة الغبار". الفائدة الوحيدة التي جنيتها من أبحاثي التي لا نهاية لها أنني أنجح بأي فحص يتعلق بأستورياس وصوامع الحبوب وموسيقى آلة القرب وجائزة أميرة أستورياس وفريق كرة القدم ريال سبورتينغ خيخون. تُهت في مناظر لابد أنها أمعنت النظر فيها، تهتُ وهدرت وقتي.

بعد مضي ثلاثة أيام على نشر المقال، تلقيت رسالة.

أول كأس مع باز

الظرف صغير لا رائحة له، فقد الزمن رومانسيته.

أما الكتابة فسريعة وضعيفة الأنوثة، تلخص النص بعدة أسطر:

يبدو أنك ما فهمت شيئاً من عملي لكن المقال كان جميلاً. إن كنت ذاك الرجل الأنيق الذي ابتاع صورةً من أعمالي فلابد أن أصحّح حكمك الذي يكبدني خسارةً فنية فادحة.. باز.

تبع النص رقم هاتفها.

يا للعنف ويا للأناقة!

ضربت لها موعداً في الفندق المفضل لدي "اللولوتيتيا"، وهو يلوِّح ذكرىٰ مشؤومة للبعض لأنه كان مقر الاستخبارات النازية إبان الحرب ثم الناجين من المخيمات. أما بالنسبة إليّ فهو المكان الذي يحضرون فيه أفضل "موجيتو" في باريس والذي يضم بعضاً من الكتّاب، الصنف الذي أحب أولئك الذين لا يفرّون حين نقرأ لهم هذه السطور، يا هكتور، بين عالم يزداد ضجراً...

لدي في لوليتا أصدقاء وعادات، "الذئب" هو لقبٌ أطلقه، مثلاً، علىٰ أحد أفضل الكتّاب الفرنسيين، مؤلفٌ من تيار الأورفكية[1] يعيد النساء من الموت بأن يلقي عليهن جبة الذكريات المتألّقة. كم راقت لي موهبته.

---

1 - *الأورفية Orphism، (باليونانية القديمة: Ορφικά)، هو اسم أطلق علىٰ دين كان يعتنق ويمارس في اليونان القديمة والعالم الهلنستي، والتراقيون، ارتبطت أدبياً بأسطورة أورفيوس.*

أما من أطلقت عليه اسم «الثعلب» فمهووسٌ بالمسابح والنصوص الصوفية. كان يحرّر مقالاتٍ وروايات وقصائد، نجح في ولائم العشاء. هما صديقان ولهما تلك الهيئة وذاك العبق الباقي من الأشياء الجميلة الميتة، تلك الأشياء التي نندم عليها في الحياة، والتي لن تنبعث من جديد، هؤلاء الناس مثل المرجان الاستوائي. استغرقت الحضارة عقوداً لتنتجهم فكانوا صنيعتها أو مخلوقها الضوئي لكنهم شديدو الهشاشة، يقضون حتفهم بتغيير يطرأ على الجو الاقتصادي للزمن أو بازدياد طفيف للخشونة والقسوة في المناخ المالي. لا تعود عليهم ألوان كلماتهم وأشكالها بأي مردود يذكر.

يفتح "لوليتا" أبوابه لاستقبالهم، مازال فندقاً جيداً. يحمل صورة الفندق الأدبي بجداره، بسطٌ وأرائك بلونٍ أحمر قرمزي عابثٍ يروق لي جسداً. هناك فن وديكور الثريات منحوتات معدنية، الخادم الإنساني.

كنت أطأ أرضاً محتلة.

لابد منها لاستقبال انفعال كهذا.

بالطبع، أتت ولكن متأخرة. والدتك دائماً تأتي متأخرة، إنه أحد مبادئها. كنا في شهر تموز، أتت أو علي أن أقول لاحت، لاح طيفها بفستانٍ بحري هادئ، مقلم بالأزرق والأبيض. شعرها يهفهف رطباً على جيدها المتلألئ بسلسلةٍ ذهبية. رشيقةٌ جداً هيفاءٌ أكثر من أي وقتٍ مضى كامدةُ اللون. وضعت على الأرض سلةً من القصب تخرج منها منشفة، تنبعث منها رائحة كلور قوية.

نهضتُ لملاقاتها إلا أنها أشارت إليّ بالجلوس ثم جلست. غضون وجهها تنذر بما هو أسوأ.

شرعت فوراً بالحديث دون رسميات:

- إنه أنت؟

تلك الطريقة بالحديث الجارحة كثورٍ من ميورا يقفز خارج الزريبة (أعرف أن هذه المقارنة بعيدة ولكن جيدة. إنها الإسبانية الأولى في حياتي).

- أنا؟

- أنت من اشتريت الصورة..؟

- نعم، أنا.

- لم أكن واثقة، لم أرَ بشكلٍ جيد كان الوقت ليلاً.

نظرت من حولنا وهي تعضُّ شفاهها، شعرت أنها ستلفظ ما يقتلني. صححت جلستي بل وباعدت جوانب ياقة قميصي لترى أين يجب أن تسدد، قلبي يخفق بشدة، عَلت الحمرة وجنتي بسبب الروم[1]، مدت لي المروحة السقفية دعماً مقبولاً.

- حسناً، رغبت بمقابلتك لأشكرك على قصد مقالك إلا أنك لم تقل سوى Tonterias.

استمرت بلفظ الكلمات بطريقةٍ غريبة وتُقطع المقاطع اللفظية بالسكين حتى تظن أن دورك سيحين قريباً. لفظت كلمة ترّهات بشفاهٍ مزمومة وكأنها تعبّر عن شيءٍ مقزّز للغاية. خليطٌ من عصي مصارعة الثيران وطبق التورتيلا.

سألت: وماذا يعني Tonterias؟

---

1 - الروم: عرق قصب السكر.

أجابت بسرعة: هذا يعني: حماقات.

وجهت لي ضربةً قاضية ما وجهها لي أحـدٌ قـط. مبتدئـة وخمـسة عـشر سطراً في إحـدى الـصحف الفرنـسية الكـبرى تعرّضـني لهـذه الوقاحـة. سخرت في سرّي من هذا التعارف ومع ذلـك عـليّ أن أبقيهـا هنـا، قابلتهـا برفع الكلفة نفسه:

- هدّئي من روعك لو سمحت.

- لن أهدأ.

رفعت صوتها، حدجنا روّاد هذا المكان المكتظّ بنظراتهم فابتسمت لأبثّ الطمأنينة في نفوسهم، تابعت باز:

- لا يحق لـك أن تكتب أي شيء عن أعمال الآخرين فقط لأنك تعمل في صحيفة، ليس لديك كل هذه السلطة.

- أما قال لـك أحدٌ في فرنسا إننا لا نرفع الكلفة مع شخصٍ لا نعرفه.

- حسناً!

أشارت بيدها ثم نهضت، حملت حقيبتهـا عـلى كتفهـا، سـقطت نظـارة السباحة على البلاط، نظارة زرقاء، التقطتها وقلت لها وأنا أناولها إياها:

- ابقي هنا، أنت من طلبتِ مقابلتي، إذاً فلتبقي. ليس لديّ متـسعٌ مـن الوقت كما ترين.

جلست مجدداً ووضعت حقيبتها على ركبتيهـا، ارتـسمت عـلى وجههـا ملامح الحزم والتوتّر بل عدوانية مجنونة.

قلت: ضعي هذه الحقيبة الشمطاء جانباً.

نفذت ما طلبت، ناديت النادل: - كأسين موجيتو، جوليان.

استدرت نحوها وقلت:

- لا يليق هذا الاسم بك، باز.

- باس "أي اعبر".

قفزت ترىٰ هل تطردني؟ قلت: عفواً؟

- إنك تسيء اللفظ، إننا نلفظ "باس" "Passe" بالسين لا بالزاي.

أحزنتني صيغة الاحترام التي عادت لتتحدث بها، لفظت السين كحرف الثاء لسانها بين أسنانها كرأس فرخ حية صغير يلامس رأسه الزهري الصغير أسنانها. قلت محاولاً تدارك الموقف:

- هلا سمحتِ لي بأن أستمر بمخاطبتك من دون رسميات.

ابتسمت فسرىٰ في قلبي الفرح. تابعت وإذا بالموجيتو يصل بالوقت المناسب، اقترحت أن نشرب نخبنا فهزّت برأسها. تابعت القول:

- إذاً اشرحي لي ماذا كتبت فكان ترّهات؟

تنهّدت.

- كل شيء أو تقريباً كل شيء خاطئ... لمست في صوري السعادة في حين تعبر جميعها عن الغم، قرأت تجاذباً حيث لا يوجد سوىٰ التنافر. قلت "شطآن حياة" في حين أراها "شطآن لا حياة فيها"

تفرَّست في وجهها ولمحت العواصف التي تهبّ من نظراتها، استأنفت:

- فقط كلمة "ركل" تطن في مكانها في مقالك.

رشفت جرعة من الموجيتو قالت: لذيذ. وعبرت عيناها عن شراهة.

، أجبتُ أسيراً لسلطان كآبةٍ هاجمتني على حين غرّة: آه بالواقع هل الكآبة شعور؟ هل يسعنا القول: شعرت بالكآبة؟

تابعت بفظاظة:

- هل وجدتهم سعداء أولئك الناس الذين صوّرتهم؟

- حسب ما بدا لي، نعم..

- إذاً، دعنا نكفّ عن الحديث.

قالت هذه الجملة بلهجتها الغريبة. ساد الصمت ثم اخترقته بسرعة لتقول:

- ألم تشعر بالاختناق حين رأيت الصور؟ بأولئك الناس الذين يشغلون الفضاء...

- كلا.. أود أن ألفت نظرك أنني اشتريت واحدة...

- إن الصورة التي اشتريتها هي الوحيدة التي لا يراودنا فيها شعور الاختناق. هي الصورة الوحيدة التي يضج فيها البحر بالحياة. صورةٌ فيها حركة وتعبّر عن نفسها.

لم أكن واثقاً أنني فهمت كل ما قالت. اليوم بالطبع يأخذ كل شيء لوناً مختلفاً تماماً. فتاةٌ عيناها معلقتان بالشاطئ لابد ستغادره يوماً ما، وأن تنحرف عنه.

- إذاً عبارة "متعة العيش" ما هي سوى سخرية؟

- ها قد بدأت تفهم. للأسف، حررت مقالك.

قلت: - أنا آسف.

- لو أنني مشهورة للاحقك الخزي.

- لو أنك مشهورة لما أخطأت.

ضحكت، لاح نورٌ في عينيها السوداوين. قالت وهي تلاعب بالقشة قطع الثلج الذائبة في كأسها:

- إنه أول مقال عن أعمالي. سيكون بمثابة مرجع.

قلت: - إنك بهذا تشرفينني، ثم لا ضير لو أحببنا كل البشر أو على الأقل رمينا عليهم هالةً وهمية.

تنهدت: "بل وأكثر من ذلك، لقد بيعت كل الصور، منذ..."

ابتسمت: "يجب أن يسرّك الأمر؟"

- سيقول الجميع: إنهم اشتروا قطعة من السعادة الإنسانية "شاطئ الحياة"، ابتسمت بحزنٍ وأضافت وهي تحدّق بي: كان مقالك جميلاً.

شعرت قلبي ينهار. نظرت إلى ساعتها، خفت لا أريد أن تغادر.

- شكراً، إن موهبتك هي من دفعتني لهذه الكتابة. في صورك الكثير، إنها تتكلم، كلمتني..

تفوّهت بسخافةٍ مدمّرة، فكرت بأنطون أول من لمس قيمة شطآنها، قال "إنها شيقة"، عبارةٌ تدلّ بالنسبة له عن حماسٍ مجنون. غاب طرف القشة بين شفاهها، تأملت السائل الذي يعبر بالأنبوب البلاستيكي الصغير: نسغٌ من الروم والنعنع.

قالت: سأعود إلى إسبانيا لألتقي بوالدي.

- متى ستغادرين؟

- يوم الإثنين.

لفظت أخيراً ما يجدي نفعاً: - هذا مُسلٍّ رائع وأنا أيضاً.

كنت مضحكاً. ما المسلّي في أن يتجه شخصان إلى البلد نفسه؟

"مصادفةٌ" إن اقتضى الأمر، شيء غريب لو أردنا إضفاء الدراما.

أما أن يكون أمراً مسلياً، يا لها من حما...

- هل ستذهبين إلى "خيخون"؟

انفجرت ضاحكة مما أغاظني رغم جمال اللقطة وعذوبة الضحكة النابعة من صوتٍ خفيضٍ.

كررت محاولاً تقليد نبرة صوتها: نعم أنا ذاهب إلى رهيرهون.

هزّت رأسها وقالت: مستحيل، إنها لا تجذب أحداً.

- أنا ذاهب لأجري تقريراً.

- آه حسناً! تقرير حول ماذا؟

أخذتني المفاجأة فاخترعت: حول خمر التفاح؟

قالت بالإسبانية: Tonterias losidra! [خمر التفاح! سخافة!] ضحكت مجدداً قبل أن تنظر إلى ساعة يدها ما أثار سخطي لأعلى حد.

- ما عنوانك هناك؟ من الجيد أن نتمكن من...

- نتمكن من ماذا؟ قالت وهي تضع خصلةً من شعرها الأسود خلف أذنها ارتجفت داخلها فتاة المستعمرات، فعَلَتْ الحمرة وجنتي.

هكذا وجدت نفسي في أستورياس، بلد والدتك أي نصف بلدك يا هكتور!

باز أستورياس

تعود أصول والدتك إلى خيخون، إذاً هي مدينتك يا هكتور ولابد أن أكلمك عنها، لكن أولاً سأخبرك بأمر ألا وهو لا تنتظر في الحياة مبادرة القدر، إنه يراك سينجذب إليك لو رآك تبادر بل سيكون رفيقاً طيباً ويمد لك يد العون ولكن لابد أن تقوم أنت بالخطوة الأولى. حتى ولو كان الأمر عبثاً.

ملاحظة هذا لن يكون أبداً، لمن العبث أن نعبر جبال الألب على ظهر الفيل ومع ذلك فقد فعلها هانيبعل ومن العبث الذهاب إلى الهند مروراً بالمحيط الأطلسي لكن كولومبوس فعلها، ستقول لي إنه لم يجد الهند، هذا صحيح إلا أنه وجد الهنود ولم يكن ذلك سيئاً، ما أعني قوله يا صغيري: إن عليك الرمي أولاً، عادة ما يشعر الناس بما أقول لك حتى أن اليونان لهم كلمة تتعلق بهذا "Karios" أي فرصة أو اللحظة المواتية، النافذة التي تشرع مصراعيها لك ومنها ستطل. كنت بانتظار أن يعيد أحدٌ اكتشافي. والدتك كانت Karios بالنسبة لي.

خلص لقاؤنا آنذاك دون أن نتبادل الأرقام كالمعتاد. بدا طلب رقمها أمراً بمنتهى السخف بالنسبة لي.

خيخون إذاً هي العاصمة الحقيقية "لأستورياس"، تلك المنطقة المحصورة بين بلد البيك وكانتابريا. إنها الحقيقة لأن هناك عاصمةٌ رسمية هي "أوفييدو" مسقط رأس زوجة الزعيم السياسي "فرانكو"، مدينةٌ من القرون الوسطى فيها كاتدرائية تضم كنز الملوك المسيحيين. "أوفييدو"

كونتيسة ثرية من الكاثوليك. لعله اسم محرض، ربما. "خيخون" أيضاً مثيرة: فتاة من الشعب، فوضوية ثائرة سخرت من القوانين ودهستها لتحيا حياتها. "خيخون" بالنسبة لي هي والدتك تلك المرأة المترددة والعاصفة والمائية والمنفتحة على البحار الأكثر نشاطاً، بحر كانتابريا الهائج والمالح والمتمرّد على البطاقة البريدية، فيحمي المدينة القديمة التي يفوح من شوارعها عبق خمر التفاح المعتق، ثلاثة كيلومترات من واجهات الفن المعماري المتباين بحالةٍ مزرية، تلقي عليه هيئة تشبه كوباكبانا المطلة على المحيط الأطلسي. راكبو أمواج يقفزون على الموج تحت أنظار فتيات جميلات شقراوات وسمراوات يتأملنهم وهم يمتطون زبد البحر وأطفالٌ يتراكضون عند جبين البحر. أوفييدو تأسر بسحرها وخيخون تمنح الرغبة بممارسة الحب.

وضعتُ حقائبي في فندق "Prince de Asturias أمير أستورياس" هو اللقب الذي أطلق على ابن ملك إسبانيا، بالإضافة لكونه اسم الجائزة الأدبية الكبرى في البلاد.

اخترت الطابق الأخير من هذا الحرم ذي الأربع نجوم. تطل الشرفات الزجاجية الضخمة على شاطئ "سان لورانزو" مزروع بخيمٍ صغيرة من النسيج الملوّن حيث تقوم الجدّات بالحياكة وهنّ يتحدّثن "اللغة الأستورية" وهي اللهجة المحكية المحلية، يلقين بين الفينة والأخرى نظرة مطمئنة على أحفادهن الذين ينازلون الأمواج الضخمة.

ليس راكب الموج في خيخون بلطيف، يتطاير شعره في الريح والوشم يلاعب الهواء، نحيفٌ وهو يرتدي ثياب البحر في بحرٍ متجمد. تعود أصول

الناس في أستورياس إلى السلتية. أسلافهم هم "أستورس" وهم غير مريحين فهم أول من نهض لدحر المورووس[1] خارج إسبانيا في القرن الثامن كما أنهم أول من وقف في وجه فرانكو. إن "ديناميتروس" ذائعي الصيت في أستورياس، أولئك المحاربون الأشدّاء الذين صوّرهم روبرت كابا وشنيم وجيرداتارو عام ١٩٣٧، هم سلف راكبي الموج هؤلاء وسلف والدتك. يتمدد على رمال الشاطئ حوالي اثني عشر طفلاً لا تزيد أعمارهم على العشر سنوات ثم يقفون بسرعة على اللوح الخشبي المطروح على الرمال. عندما أفكر بالأمر اليوم يا هكتور أقول في سرّي: سيروق لك تعلّم ركوب الموج حين تكتشف بلد والدتك. سأغمرك بعيني وأنا أقف على الشاطئ أراقبك بزي ركوب الموج الصغير وشعرك الأسود اللامع يتطاير فيذكرني بشعر والدتك. لابد أنك ستكون بأفضل حال في هذا البلد في هذه البقعة من الأرض في هذه المدينة التي عشقتها منذ أن عرفت أنها هنا رأت النور.

يقدّم الفندق للنزلاء الجدد "زجاجة نبيذ ريوجا" ملفوفة بظرافة في شبكةٍ مذهبة وضع عليها لصاقة يقرأ عليها كلمةٌ تبشر بالخير: "فيكتوريا" قلت في نفسي وأنا أتذوّق أول رشفة من هذا المشروب. بدأت المغامرة، كم كنت سعيداً ورغبت برؤيتها، ذهبت لملاقاتها.

من أي نقطة أبدأ؟ شارف النهار على النهاية والشمس تأفل في المحيط أما الهواء المالح فيخز منخاري. كان الطقس ظريفاً، تنزهت على الدرب

---

1 – المورو والجمع مورووس بالإسبانية Moros أو الموريون هو مصطلح ذو استخدام شعبي وعامي يطلق على كل سكان شمال إفريقيا أي المنطقة المغاربية.

المبلّط المحاذي للبحر. ستختبر الأمر يا هكتوري حين تقتفي يوماً ما أثر فتاةٍ في مدينة مجهولة وليس لديك أي دليل إليها لكنك تشعر بها لأنها تتناسب تماماً مع هذه المدينة. تشعر بها لكنك تشعر بالوقت بنفسه أنك تتمكن من لمسها فقط، حينها ستتحول مثلي لكلب يلعق جراحه علّه يخفف ألمها وستتضرع مثلي بصلواتٍ ذهنية للأرواح حتى تنير دربك. كررت في سرّي: Kairos, Kairos.

تدفع الأمهات عرباتٍ تعجّ بصغار أستورياس وهناك يرمي أجدادٌ صنارات الصيد تتلوّىٰ في طرفها دودة الرمل. يتراكض الأطفال يمسكون بأيديهم بوظة تتقطر ذائبةً ويرسل يافعون SMS بجوالاتهم الذكية إرسال SMS أصبح حركة عالمية، رمز تعارف الكائنات البشرية. ربح الثمانية والستون الذين أغرقونا بالدين//لم يعد لدى الناس ما يقولونه لبعضهم بعضاً لكنهم يتواصلون مع بعضهم بعضاً. نجد على الفيس بوك مجموعات تواصل باسم "أحب البطاطا المقلية" أو "لا أحب اليهود" وهما متماثلين تقريباً.

تنهدت، إنني بحاجة للهواء، تضرعت أن تنبعث أمام عيني من ضباب الصيف الذي يتصاعد أمام أنظاري من بعيد، لكنها لم تأتِ. مشيت حتى وصلت إلى بقعة ركوب الموج الأكثر شهرة على الشاطئ والتي سميت "المونغول" لأن الأمواج الهائلة التي تهدر هنا تنسحق على سور مستشفى الأمراض النفسية. تساءلت في سري: إن كان خرير الماء الذي يتخبط على الجدران كل ثلاثين دقيقة يعتبر حقاً مهدئاً لعقلِ مريض مضطرب...

توقفت هنيهةً لأبعثر ناظري على وجه البحر. حاذى الدربَ حاجزٌ جميل ناصع البياض مدعّم بدعائم عُلّق عليها في كل مترٍ تقريباً شعار مدينة خيخون الذي يمثل الملك "بيلايو[1]"

على ترسه ذاك الصليب حيث حرفا (الألف والياء)، صليب الملائكة المشهور الذي أراني إياه أنطون في الصورة الظهرية لباز. ترى هل هي حقاً من في الصورة؟ كيف أتحقق؟ لماذا هذا الصليب الذي يمثل خلافات دينية قديمة؟ قرأت أن الملك بيلايو طرد المخلصين حين رأى "العذراء" في أحد كهوف جبال أستورياس. هل كانت إحدى نساء المنطقة المتوحشات وما رغبت في أن يمسسها سوى أحد سكان أستورياس؟ يبدو أن الريح المترعة باليود أو نبيذ الريوجا قد لعبت برأسي.

شعرت بالجوع والظمأ بعد أن تجرّعت الريوجا لم أكن من أستورياس، كان علي أن أنتقل لشرب خمر التفاح، غادرت البحر واتجهت نحو قلب المدينة فداعب عبقها أنفاسي طاغياً على رائحة اليود.

---

1 - بُلايِ من أَسْتُورِيش Pelagius of Asturias قام بتأسيس مملكة أستورياس.

ممارسة الحب مع باز

الجوع يقضّني والظمأ يحرقني، إنني أؤمن بطالعي. جلست إلى المائدة في مطعمٍ من الحجر والخشب "لاغلانا". ما انفكّت فتاة تزين أنفسها بألماسة تحمل أطباقاً بحرية مغذيةٍ جميعها الأنشوفة من كانتابريا وسمك الشوبا مع عصير التفاح والمحار، الرز بالفخار وكاليماري مقلي لم تكن أطباقاً بحرية فحسبٍ بل أيضاً: قطع لحم الخنزير الإيبيرية وقطع لحم البقر من منطقة ليون.

تلاقي كلمة "خصوصية" بمعنى خصوصية مدينة ما بالطعام ازدراءً ولكن وجود هذه الكلمة يكفي لنفهم أن العالم مازال متبايناً.

تأملت الفتاة دون أن أمس بذكرى باز، نظرت إليها دون رغبة بعينين مسلوبتين بهذا الجمال الذي يأسر الروح مباشرة وبدأت ألمس في هذا الشعب جمالاً، تركت البحر على يميني واتجهت صعوداً نحو "سيمادوفيلا" أي قمة المدينة، راقت لي هذه التسمية التي تذكر أن المدينة ليست غابة بل شجرة واحدة لها جذع واحد وتفرعين اثنين للأغصان والجذور. بالنظر إلى خيخون لا يساورنا الشك أبداً بأن هذه الشجرة هي: شجرة التفاح، تفوح رائحة فاكهتها فيعبق الجو بأريجٍ يدوخ رأسك ويفقدك صوابك على الفور.

لم أكن في إسبانيا بل في أستورياس أو بالأحرى عند الأستوريين رغم أنني ما فهمت سبب هذا "الجمع". دفعت باب بيت خمر التفاح فوجدت حشداً من الناس تتعالى أصواتهم بينما تغور أرجلهم في نشارة الخشب التي تغطي الأرضية برمتها لتمتص دفق خمر التفاح. يمسك من يصب الخمر

الزجاجة ويسندها على صدره أسفل رأسه في حين أن عنق الزجاجة نحو الأسفل فيتدحرج السائل بشكلٍ مستقيمٍ على علو متر وخمسين سنتيمتراً ليصب في كأسٍ عريضة مائلة. تبتلع النشارة نصف خمر التفاح في حين تغور البقية وترغي في الكأس بين شفاه أحد الشاربين. وتبدأ العملية مجدداً من أجل راغبٍ آخر. يستخدمون الكأس ذاته. استفسرت من أحد النادلين عن هذه الطريقة فقال: إن خمر التفاح لا فقاعات له وهذا هو الأسلوب الوحيد لأكسجته. لا تفتقر مصارعة الخمر هذه لما يعود بالنفع، فكم تترك أثراً بالنفس رؤية هذه الزجاجات المائلة في السماء تمطر عصيرها الذهبي. تعلمت أن هذه الكأس العريضة تسمى الكولان أي الأرداف الصغيرة.

خرجت نشوان من المطعم، وجدتُ نفسي في ساحةٍ صغيرة مكتظّة تنغرز بالأرض بدرجاتٍ متتالية لتشكّل شيئاً يشبه الحلبة يتجمع فيه الشباب وينتقل الكولان من فمٍ لآخر. يضحك الفتية والفتيات يدخنون ويتبادلون القبل. اتكأت على جدارٍ من الحجارة القديمة تتملكني السعادة. فكّرتُ بتلك القاعدة الإعلامية في خضم دفق الأخبار والرسائل المنبهة دائماً والآتية من بروكسل لتعلن لنا أن نهاية العالم باتت وشيكة. قلت في سرّي: لعل أوربا تلهث تعباً لكن تحت أقدامها الحياة والثراء وهناك حضارة.

كنت سعيداً. اتجهت لأحضر زجاجة خمر التفاح مع كولان. اخترقت الحشد المبتهج وتلك الفتيات ذوات العيون الغامقة الزرقاء والخضراء وأولئك الشبان الذين يصرخون وفي آذانهم تلمع حلقات. أمسكت بما غنمت وعدت إلى الحلبة. حاولت أن أخدم نفسي، كل ما عرفت فعله هو أن سكبت نصفه تقريباً، وماذا بعد؟ حسناً، كنت بحالةٍ جيدة. ابتسمت

لتلك النجوم التي ثقبت نسيجاً أسود فرشه ليل أستورياس. سمعت اسمي، نظرت إلى الناحية اليمنى فرأيتها.

ناولتني كولان.

هي.

باز.

ــ أراك تقول لي يا هكتور، هذا أمرٌ بسيط فللصدفة يد طائلة. ولكن من ذا الذي تحدث عن الصدفة؟ أنا من جئت إلى هنا؟ إلى مدينة أعرف أنها موجودة فيها. فهل يكون لقاؤنا أمراً غير عادي؟

قالت وقد زرعت أنظارها في أحداقي: "ظننتك تمازحني ذاك اليوم". رشفت السائل من الكولان، كانت مع أصدقائها، فتياتٍ جميلات مثلها لا بل هي تفوقهن حسناً، وكذلك فتيان يمعنون النظر، بعضهم بفضول والآخر بعدائية.

- هل يلقى تقريرك تقدماً؟

ما حدثتك بعد عن تلك القسوة في نظراتها والتي أسرتني منذ لقائنا الأول. تلك النظرة المسلولة كنصل خنجر يتلألأ مختبئاً خلف تلك الأهداب الطويلة الملساء كأهدابك يا صغيري هكتور، كيف لا أرتعد حين أراها... وما حدثتك بعد عن ذاك الثغر الممتلئ الكثيف وعن وجنتيها المزركشتين بالنمش البارزتين أعلى وجهها الكامد ولا عن أنفها الصغير الدائري خلافاً لذقنها المدببة.

سبق أن حدثتك باختصار عن ذاك الشعر الكثيف حالك السواد اللامع ضياءً. يقول العلم إن اللون الأسود يمتص النور أما المرأة فتقول لا يعنيني

العلم. لم يكن شعرها الكثيف واحداً الآن جمعت تلك الشعلات السوداء بعقدةٍ راقصة أفلتت منها خصلة داعبت جيدها، خصلة مشبعة بالملح مثل شعرها لأنها كانت في الماء. في كل مرة ألاقيها أجدها آتية من الماء. إنها إشارة.

تلوح من فتحة فستانها الأزرق الليلي حمالات "المايو" الذي ترتديه.

مسحت فمي بظهر يدي الملطّخ بخمر التفاح وقلت: نعم أظن أن تقريري يسير على ما يرام.

ابتسمت، يبدو أنها لم تخدع. قدمتني "كصديقٍ فرنسي"، راق لي ذلك إذ جعلني هذا متفرداً. قالت لي إنها سرّت بلقائي والحقيقة ما عرف قلبي فرحة كهذه منذ خمس سنوات خلت. سيحضرون حفلاً موسيقياً، سألتني إن كنت راغباً بمرافقتها فقلت: "Con mucho gusto أي بكل سرور". فضحكت.

- حملت حقيبة السباحة الخاصة بها. هناك في لوتيتيا يعبق الجو برائحة الكلور أما هنا فتطغى رائحة اليود.

قاد أحد أصدقائها السيارة بسرعة وكنت أنعم بدفءٍ يبثّه فخذها قرب بنطالي الجينز الضيّق. لن أحدثك عن أصدقائها فبالكاد تحدثت إليهم، ولن أحدثك أيضاً عن الحفل الموسيقي فهي مجموعة أحبها جداً سأذكرها في نهاية الرواية التي لم تخصص للنشر. بالحقيقة لا أعتقد أننا نعيش في زمنٍ يمكن سرده في صيغة روائية، يجدر بهذا العالم المتقطع باستمرار برسائل قصيرة وإيميلات.. سردٌ مقتضب دون إسهاب، الشيء الوحيد الذي يستمر هو: الانقطاع. سأقول لك يا هكتور: إن والدتك كانت تحب الرقص وترقص بشكل جيد بانسيابية ومقدرة.

› أمسكت حقيبتها وتأملتها وكان جنوني بها يزداد.

كانت تسبح بعرقها حين سألتني خارج القاعة: إلى أين نوصلك؟

يا للهول! عادة ما يترافقون وأحياناً يمارسون الحب أما "إلى أين نوصلك؟" ذكرت اسم الفندق، وسرى في جسدي برودٌ قطبي.

ماذا نفعل في مدينة وجدنا فيها الشخص المرام؟ وفي الساعة الثانية صباحاً؟

أفرغت البار الصغير، حاولت قراءة "سيوران من البلياد" مشدوداً ببرنامج على إحدى القنوات الإباحية قبل أن يتغلّب عليّ التعب والكحول. كنت أغطّ بنومٍ عميقٍ حين رنّ هاتف الغرفة، إنها الساعة التاسعة صباحاً أحدٌ ما بانتظاري.

كانت في البهو ترتدي فستاناً أصفر اللون وصندلاً؛ إن وافقت وإن لم أكن مرتبطاً بموعدٍ ما يمكننا أن نمضي النهار معاً. حقنها مقالي الأول بمصل مناعة: لا ترغب في أن آتي على ذكر مسقط رأسها بحماقاتٍ. تصدح في سيارتها الصغيرة مقطوعات لموزارت منفردة بتميزها في قيادة صيفية على ضفاف البحر.

أمسكت بالمقود وتتالت المناظر الخلابة بهضابها الخضراء المترامية والمتمايلة على كشح البساط الأزرق الممتد.

كانت تقود بسرعةٍ كسباق وتنعت تلك الأثقال التي تأبى الخضوع لها "كابرون". عبرنا بمحاذاة دربٍ تنتصب على حافتيه أشجار الصنوبر عندها خففت سرعة السيارة وانعطفت يمنةً عبر الغابة. في نهاية الدرب مصنعٌ انتصبت مدخنتاه أمام أعيننا، مصنعٌ مهجور، كُتب على واجهة مبنى بمربعاتٍ مكسورة عبارة بالدهان: مصنع أوركا للمعادن.

بقي الحاجز المتحرك الأحمر والأبيض مرتفعاً وما عاد يغلق المدخل. اقتحمت السيارة الأبنية المهدمة ثمّ عبرنا المجموعة الصناعية. في الطرف المقابل ما بين صفّين من الألواح الخشبية عادت الغابة، قطعتها رقعة أرضٍ إلى قسمين ومن هنا عبرت السيارة الصغيرة تتأرجح بحذر ثم أصبح الطريق رملياً، تابعت باز لعدة كيلومترات ثم توقفت. أمسكت بحقيبة الشاطئ، غادرت السيارة وصفقت الباب. لحقت بها أعلى التلة التي تسلقتها.

إنه مشهدٌ يسلب اللُّب.

شاطئٌ مقفرٌ ومترامي الأطراف تلعقه بنهمٍ لفائف طويلة من الزبد.

قالت لي: "اسمح لي" تبعتها وتحت أقدامنا تتلألأ بلورات الميكا[1]، توقفت وسحبت منشفة السباحة ثم حلّت أزرار فستانها.. آه أخيراً سأرى الوشم. للأسف، إنها ترتدي المايو "زي السباحة".

قالت لي وقد استدارت نحوي: هلاّ أتيت؟. فتح البحر ذراعيه لاستقبالها، ولي أيضاً إلا أنني ما أحضرت زي السباحة. الشاطئ مقفرٌ تماماً بيد أنني ما رغبت في أن أبدو شبقاً دفعة واحدة.

لا يهم، سأستسلم للسباحة، غابت هي في البحر وعبرت أول حاجزٍ زبدي. إنها تسبح بشكلٍ جيدٍ ومفاجئ. نزعت كنزتي وحذائي النسيجي. صفع الحر جلدي وداعبتني الريح المعطرة بأريج الغابة، عبق نسغ النبات والسرخس ممزوجاً مع غبار الطلع والتراب العضوي، سرت الكهرباء في

---

1 - حجر لامع ذو صفائح.

جسدي. يا للروعة! كانت والدتك تسبح، لم نتعارف بعد، كل ما في الأمر أن بين يدي إحدى صورها. يا لهذه الأستورية العظيمة، طاقة هائلة، رأيتها تسبح كراول وأنا كالأحمق واقفٌ دون حراك، ثم تبأ فكّرت بكلمات أوسكار ويلد: لكي تكون حقاً من القرون الوسطى يجب ألا تملك جسداً ولتكن حديثاً حقاً يجب ألا تملك روحاً ولكي تكون يونانياً يجب أن تكون عارياً. تخلصت من بقية ملابسي واتجهت نحو زبد البحر تداعب الريح أعضائي، غصت في هذا الدفق المنشط وبضربات عدّة استسلمت لعرض البحر، سال الماء على جسدي كالزئبق وغسلني من التعب والكحول. أسرتني هذه الفتاة وتلك الفكرة غيّرت شكل جسدي. أرغمت نفسي على أن أفكّر بشيء آخر، شيء قبيح جداً شيء غير ماجنٍ لأستعيد مظهري المعتاد. خرجتِ أولاً، جففت نفسي وارتديت ملابسي.

خرجت هي من الماء، تلك الفتاة التي لك أن تتخيلها: يتقطر شعرها ماءً كالسيل وجسدها منحوت بالسباحة. جلست على المنشفة وانحنت لتجمع بعض الرمال البيضاء تقريباً وأفلتتها من بين أنامل كفّها المبسوط.

- راق لك المكان؟

- إنه رائع.

- هنا بدأت سلسلة الشواطئ. يدعى هذا الشاطئ Xana أي: الساحرة بلهجة "بابل"

- لماذا سمي الساحرة؟

- يبدو أن إحداهن سكنت هنا، يحاذي البحر غابةٌ قيل إن ساحرةٌ أو جنيّة تسكن فيها من يعلم... على كل حال فهي تجعل الناس يهربون. انظر

من حولك، لا وجود لأي أحد هنا وهذا ما يروق لي. لذلك أخطأت حين تحدثت عن "شطآن الحياة" في مقالك، فالحياة بالنسبة لي لا ناس فيها ولا قرن بوظة أو مظلات وبيرة وشطائر. الطبيعة حرة من الإنسانية.

- لكن لابد من وجود من يرى الطبيعة.

لم تؤتِ بأي تعليقٍ، ملاحظةٌ عبثية أيضاً.

- عفواً مرة أخرى للمقال، كان تأويلاً، مهنتي تتطلّب التأويل، لم يكن سوى كذلك مع رشة من أسلوبٍ تغطّي فقرنا للفطرة...

وضعت ركبتيها تحت ذقنها، تأملت تلك الفخذين الصلبتين، تليقان بفتاةٍ مائية. أعقبت: "بسببك ستتغير حياتي"

كنت أؤثر لو قالت: "بفضلك". سألتها: لماذا تقولين هذا؟

- تبع مقالك عدّة مقالات أخرى، كان يجدر بي القول إنه النجاح...

كنت أعرف هذا، أخبرني جوالي بذلك، إذ كنت أحب حين ألتقي بفتاة أن أعرف ما يُقال عنها في الشبكة الرقمية، وأعرف ما يعرف الناس عنها وأقارنه بما فكّرت أنا. منذ صدور مقالي بدأت الآلة بالعمل: ديباردون[1] للسمرة و"لاويجي[2]" للأحداث المشمسة وغيرها...

تمددت متنهدةً. العزاء والألم هل هي عبارةٌ بسيطة لجسدٍ يتذوّق أندروفين؟

- ألم يسرّك الأمر؟

---

1 - مصور فرنسي ١٩٤٢ هو من صمم الصورة الرسمية لفرانسوا هولاند.

2 - مصورة اميركية ١٨٩٩-١٩٦٨ اشتهرت بالتصوير بالأبيض والأسود.

- أن أنجح بلُبسٍ حاصل؟ أن أُرفع إلى الأوج دون فهمٍ؟ لا أحب الأحاديث المتعلّقة بالفن، أن أعرف إن كان الحوض حوضاً أو عملاً فنياً. لم أعد أحتمل هذا في الفنون الجميلة. أرغب بالتصوير، أرغب في أن ألتقط صورة لما تخبرني أنظاري أن أصوّر. أما ما تبقى، وأين ستحط صوري عند أناس أحبّوها حقاً أو عند أشخاص اشتروها لأنهم نُصحوا بشرائها، هذا لا يعنيني. أما بالنسبة للصحافة والنقد، اعذرني، فهي قضية إدراكٍ حسّي وبالحقيقة إننا لا نتقن الإحساس بالآخرين. تركت الجملة معلّقة ثم تابعت: أتعلم، إن الأمر سيّان بالنسبة لي وكل ما يقولون عن صوري، سواء أقيل شيء أم لا؟ صوري مجرّد فقاعات صابون، لحظات واللحظات لا تدوم...

خلتُ أنني رأيت دمعةً تسيل على وجنتها لكن ربما هي مجرّد قطرةٌ من ماء البحر. فكرت مجدداً بمهنتي، وبعنفوانها. كتابة ما نفكّر، حول عملٍ ما وما يؤثّر فيك ليس له تداعيات عالمية، فقاعات، فقاعات صابون.

تمددت، رأيت نهديها يرتفعان وينخفضان يدفعهما الحجم المتزايد والمتراجع لقفصها الصدري. نامت، لا شيء يهم سوى اللحظة، وددت أن أجري حواراً ذاتياً، لأمنّي نفسي قمت بذلك:

- كيف حالك، سيزار.

- جيد جداً، سيزار.

- هل تعلم لماذا أنت على ما يرام؟

- لأنني على شاطئ خلاّب بقرب امرأةٍ فاتنة. كما يمكنني أن أضيف إنني لست على ما يرام لأنها تبثُّ فيَّ شيئاً من الخوف. ألا تجد أنها مخيفة بقدر ما هي جميلة؟

- لأن نظرتها قاطعة؟

- نعم، ربما من بين أي شيء آخر، لأنني لا أعرف أيضاً ما الذي يعنيها.

- وأنت هل تعلم ما يهمّك؟

- نعم، أظنّ ذلك.

- ما هو إذاً؟

- أن أتذوق ما أمكنني من جمال.

- تريد أن تقول إنك "متذوّق للجمال"؟

- أكره هذه الكلمة التي ترنّ بشكلٍ سطحي ومغرور غير رجولي في حين أن خبرة الجمال كلمة حيوية جداً، إنها نوعٌ من الحركة.

- إذاً أنت رجل أفعال؟

- كفّ عن السخرية، أنت تعرف تاريخي كلّه. أنت تعرف ماذا تركت هناك، وتعرف أنني لم أعد أريد مغادرة أوروبا.

- أنت جبان؟

- كلا، أنا عكس ما تقول، لكن هناك أشياء لم تعد تمدّني بالتسلية. أعشق ستاندال، أترى لكن عندما قال: "يقوم فن الحضارة على تحالف المتع الأكثر عذوبة مع الحضور الدائم للخطر" وجدت ذلك مراهقةً غبية، لماذا تتوجب المخاطرة؟

- لأننا حين نحبّ أمراً يجب أن نشعر بأننا قد نفقده...

- كفَّ عن طريقة التفكير هذه، كفَّ عن هذه الجمل... حشو كلام!

- لكن أنت تعلم يا سيزار أنني أفتقد للتصرّف أحياناً، لتلك الحياة التي عشناها سابقاً، في آسيا حيث الياقوت الأحمر والفتيات السامات وسجناء الأشغال الشاقة الذين التقط لهم دليلك صوراً، الشرق...

- دعنا نتحدّث عن ذلك فيما بعد. الآن، أنا على شاطئ كأرملٍ يناهز الألف عام ويشعر أنه يولد من جديد.

- أيراودك انطباعٌ بأنك لست على قيد الحياة؟

- أشعر أنني أترك الوقت يمر، أملأ مفكّرتي كما نضع الفحم في آلةٍ بمقطورة مجنونة لا نعرف إلى أين تمضي.

- هل تعني المؤسسة؟

- نعم وأعني أيضاً الحياة التي نعيش، رجالاً كنّا أو نساء في مطلع القرن الحادي والعشرين. أتعرف ما الذي راق لي منذ مجيئي إلى أستورياس.. أنني ما نظرت إلى جوالي إلا لأقيم بحثاً عن باز عبر غوغل.

- البحث عبر غوغل، كم أكره هذه الكلمة... لم تعجبك كلمة "متذوّق الجمال" ولكن هذه أسوأ..

- حقاً ولكن غوغل ربح، تفنى الإمبراطوريات ولابد أن يفنى غوغل إلا أن الوقت مازال باكراً جداً على فنائه.

- وماذا وجدت؟

- تسير الأمور لصالحها، انطلقت، انطلقت صورها بقدرة تفوق الخيال، أرغمت على تغيير صالة العرض، سيعود مالها وستُطلب لأعمال أخرى، أشعر أن لي صلةً بالأمر وهذا جعلني سعيداً بعض الشيء.

- يا للنرجسية...

- النرجسية أمرٌ ضروري فهي تمنعك من إهمال نفسك وأن يكـون لـك ثقلٌ عند الآخرين.

- أهو أنت من يصيغ الجمل بل إن هذه الجملة ليست صياغتك.

- لمن إذاً؟

- لا يهم، أتعبتني، أجدك أحمق في بعض الأحيان...

- نعم، أنا أحمق وهذا يريحني، يدفعني للاسـترخاء. لكـن حـان دوري الآن بطرح الأسئلة، ما الذي تفضّله أنت في الحياة؟

- الحب.

- وهي، هل ستحبها؟

- أحببتها.

- إذاً، نحن اثنان...

فتحت عينيهـا ونظـرت إليّ للحظـات دون أن تـتكلّم. ومـا ابتـسمت. مدّدت رجليها السمراوين ذات العضلات، قالت: ألست جائعـاً؟ هـززت برأسي.

- حسناً سأغيّر ملابسي ونذهب.

كنّا وحدنا حقاً وحدنا على الشاطئ. انتظرت أن تخلع المايو ببساطة لكن والدتك كانت محتشمة، ارتدت فستانها أولاً ثم وضعت قطعتي السباحة في الحقيبة وقالت: هيا بنا، ثم عبرنا الغابة.

جلسنا مقابل بعضنا بعضاً فيها بيننا طاولة خشبية تحت الأشجار. وضعت على الطاولة تورتيلا صفراء مثل الشمس وفليفلة تسبح في زيت زيتون لذيذ ولحم فخذ الخنزير بيلوتا الخاص بإسبانيا شهي جداً، بالإضافة لخبز طازج وخمر التفاح الذي ستقدمه لي "كولان" بعد "كولان". الزجاجة خضراء كالضوء الذي يحيط بنا ويخترقه ضجيج الأمواج.

قالت: غريب أن أراك هنا.

- لماذا؟

- أشعر أنني أحيا معك طفولتي وأن أفضي لك بأسراري...

- جرت المسارّة بشكلٍ جيد، حسب رأيك؟

ابتسمت. أسنانها ناصعة البياض يليق أن تصوّر لماركة تفاح. يُوَشّي وجنتيها خالٌ فتّان وخلف ملح المحيط بقعٌ بيضاء.

- ليست إلا البداية، سأصطحبك الآن إلى الأعماق.

باز في الأعماق

"سأصطحبك في الأعماق". بالطبع توقظ هذه العبارة فيَّ اليوم معنىً مزعجاً يحرقني ولكن في ذاك الوقت أخذتها كما هي. نقشٌ في صلب الموضوع، المرحلةُ التي تشكّل مفتاح المسارّة.

كانت تقود دون أن تتفوّه بأي كلمة ودائماً تصدح في حجرة السيارة روكيوم لموزارت وروكيوم هي كلمة مشتقّة من كلمة روكان في الفرنسية أي القرش، و"الروكيوم" هي سمكةٌ كبيرة في البحر تلتهم الرجال، هذا ما كتب "فروتير" وقد أطلق على هذه المعزوفة هذا الاسم لأنه حين يُعضّ المرء لا يبقى سوى غناء القرش.

اسم المدينة التي دخلناها "ميريس"، إنها مدينةٌ سوداء وموحشة تلبد عند سافلة الجبال المحيطة بها مغطاةٌ بالسخام، قالت باز: Lospicos de Europa أي قمم أوروبا.

هناك كنيسةٌ من الطراز الباروكي[1] ومنازلٌ بجدرانٍ عريضة تقام عليها شرفاتٌ خشبية، ظلّت الناحية خلف ظهرنا مع المصانع التي لم تعد تنفث دخانها. باز امرأة خطيرة ونظراتها ثاقبة.

توقفنا أمام منشأةٍ ضخمة مُحاطَة بتلالٍ سوداء كستها الخضرة شيئاً فشيئاً، يعبق المكان برائحة كربون لا يمكن تجاهلها. يتوّج برجٌ معدني ضاربٌ للسواد المبنى بآجرٍّ أحمر اللون بشكلٍ دائري وعلى جانبيه منشأتان

---

1 - باروكي: متعلّق بأسلوبٍ فنّي ساد بخاصة في القرن السابع عشر وتميّز بالزخارف والحركة والحرية بالشكل.

صناعيتان. إنه منجمٌ قديم تحوّل إلى متحف. تدلّت داخله ملابس عمال المناجم من السقف مطلةً على شبكةٍ من الإطارات الفولاذية مسلحةً بفُرضة وما بينها تفغر مواقد الفحم القديمة فاهها. أوقفتني صورة امرأة ممدودة على الجدار، إنها بالنسبة إليّ صورة والدتك، لها ذات العينين، الأنف والثغر مختلفان لكن تلك العينان، تلك العينان المليئتان بالتحدّي المتفجّرتان... إنه رسم يمثل إعلاناً قديماً "الاتحاد الإسباني Explosivos والمؤرخ بعام ١٩٢٤" ويصوّر فتاةً ترتدي فستاناً أخضر اللون، تشعل مبتسمة بطرف سيجارتها الصغير فتيل إصبعٍ من الديناميت وخلفها يضيء نور تفجيرٍ حاصل داخل قناة.

لطالما بقيت باز بالنسبة لي المرأة الغير جاهزة، الرمانة الحيّة، جمعت معلوماتٍ حول الرسم فعلمت أنه لرسام من "كوردو" اسمه "جوليو رميرو دو توريس" والمرأة التي رسمها هي راقصةٌ اسمها "اليزا مونيز" تلقب "لا أمارنيتا"

اشترت بطاقتي دخول، حسبي اللحاق بها، في حين اتجهت إحدى المجموعات لزيارة المكان. تناولت باز قبعتين من خزانة معدنية وأعطتني واحدة ثم غصنا في القنوات. انخفضت الحرارة عشر درجات على الأقل. طُلب منا إشعال الضوء الذي يعلو القبعة. كانت باز تترجم لي حين أسألها، تحدّث الدليل عن ثورة عمّال المناجم في أستورياس في تشرين الأول عام ١٩٣٤ والذين تعرضوا للقهر بقسوة على يد فرانكو الذي قام باستدعاء الفرقة الأجنبية ليضع نهاية لهذه الاحتجاجات، مدعومةً بجيوشٍ عربية من المغرب.

ظنّ سكان أستورياس أن عهد "موريس Moures" سيعود، شهدت وحشيةً مرعبة: "بما أنهم عمال مناجم فقد أتقنوا التفجيرات بشكل عجيب

كان من الصعب جداً تهدئة مفجّري الديناميت ما خلّف آلاف الضحايا وآلاف المعذّبين".

تقدّم الدليل وخلفه المجموعة أما نحن فكنّا في المؤخرة نسير على سكك حديدية قديمة، ألامس بأقدامي تلك القسوة المصقولة، تأملت بنظرات تبجيلٍ ضيق تلك الألواح السميكة من السنديان والتي تثبت الأرض فوق رؤوسنا بمسافةٍ لا بأس بها.

"نهض أهالي أستورياس مجدداً وبعد عامين رمموا هذا. طُلب الألمان للنجدة، قام لوفتواف برمي خيخون بقذائف محرقة تم تجريبها في جيرنيكا"

لماذا لا يتمكن الراشدون من أن يمنعوا أنفسهم من نقل ما لم يحدث للأطفال وكأنه لابد من الإبقاء على نار الثأر؟ روت لي باز فيها بعد أنها عندما كانت صغيرة رويت لها حكاية بياض الثلج وسندريلا ثم قصة أخرى.

إبان الحرب الأهلية، اختبأ في أحد المنازل في الجبل الأخ الأكبر لجدها وهو أحد عمال المناجم ومناضل في Poum كل يوم، كانت أختاه الصغيرتان وهما عمتا باز، تحملان بعض الطعام له ولأصدقائه. كانت طرطقة أغصان الشجرة المتكسرة تحت أقدامهما تبثّ الرعب في قلبهما كما أن الذئاب تحيط بهما، لطالما تخيلتا أن أحداق الذئاب تلمع من حولهما في كبد العتمة وتناهى لمسامعهما لهاثهما الحارق يعلو على خرير النهر. لم يكن عمرهما قد تجاوز العشر سنوات والزاد كان ثقيلاً، في إحدى الأمسيات اكتشف أنصار فرنكو المخبأ، عرفوا أن خساراتهم ستكون فادحة إن ألقوا القبض على الثوار

أحياء، لذا أضرموا النار في المنزل فقضىٰ العم متفحماً مع أصدقائه تحت أنظار الفتاتين اللتين حضرتا المشهد وهما مختبئتان في الغابة، ارتسم الرعب أصفر اللون علىٰ تلك الوجوه الصغيرة في وميض الحريق المندلع.

ولجنا في الأروقة علىٰ بعد عشرين متراً تشير هالة أنوار المصابيح أعلىٰ الجبهة لوجود المجموعة. تراجع البرد بعض الشيء، هبّت نفحةٌ دافئة من أعماق الأرض فتخلخل الأوكسجين. باتت المجموعة بعيدة حينها بل بالكاد ألمح الضوء. يتجه أحد الأروقة يميناً فقالت لي باز وهي تمسك بيدي: "تعال"، سرنا في العتمة لعدة دقائق، لا أعرف كيف تعرف مكانها، مازال الهواء يتخلخل. أصبح الطقس حاراً، فتحت حقيبتها ففاحت رائحة مياه مالحة في الجو الذي أصبح غير قابلٍ للتنفس. توجست خيفةً بل اختنقت، رفعت يدها إلىٰ مصباح قبعتها وأطفأته ثم أطفأت مصباحي. سألت:

- ماذا تفعلين؟

قالت بعذوبة: - صه.

بات الهواء حاراً أكثر فأكثر ودبقاً وآسراً، استحوذ غبار الفحم علىٰ رئتي، أمسكت بيدي وشدّتني للجلوس وجثت فوقي. شعرت بدفء شفاهها علىٰ فمي وطرف لسانها.

رسمت براحة كفي نهديها المكوّرين المحررين من زي السباحة ولامست أردافها فخذي. إنها المرة الأولىٰ لي مع باز. ما راودني انطباع أبداً أنني بلغت غايتي بهذا الوضوح.

ترىٰ هل غفونا؟

أوقفنا نورٌ تلاحقه فراشتان. كانت في أحضاني وأنا في أحضانها. استدارت ورأيت في شعرها المرخىٰ نوراً إلا أنني ما تمكنت أن أميّز شيئاً.

نهضت أمام رجلٍ أبعد نوره حين رأىٰ المشهد.

قال الصوت الرجولي المأسور: ماذا تفعلين هنا؟

فأجابت بصوتٍ خفيض: نحن نمارس الحب؟

خرجت من الأعماق وقد علت الحمرة وجنتي.

سألتني: هل أنت ملتزم بشيء، أي مواعيد؟

هززت برأسي.

- هل تريد البقاء معي؟

ضممتها بين أحضاني.

قالت: إن الأمر سيستغرق وقتاً.

في الجبل

كانغاس دي أونيس[1]، اسم يرنّ بشكل عجيب. كان عليها شراء بعض الأغراض، طلبت مني انتظارها، يعبر القرية نهرٌ غدق يعلوه جسرٌ حجري غامق اللون مذهلٌ حقاً، ومذهلٌ أيضاً الصليب التذكاري لأستورياس والذي يبلغ عرضه ثلاثة أمتار معلّق على الجسر ويكاد يلامس الماء. انبهرتُ بهذا الرمز وبتلك السلاسل التي تمسك بألفا وأوميغا أي "البداية والنهاية". حملتني أفكاري إلى عناقنا في المنجم، فكرت بجسدها الذي ما رأيته لكنني لمسته وشعرت به واستكشفته. انتزعني بوق سيارة من أفكاري، حان وقت المغادرة.

ابتلع الضباب السيارة ونحن في أحضان الجبل، يبدو أن سُحباً كثيفة تنوي تغطية الجرف المترامي على يميني. شارف النهار على الرحيل، لم أعد أميّز شيئاً في حجرة السيارة في ذاك الضوء الصيني عدا الرسم الجانبي لذقن باز البارز. أوقفت الصوت الذي يبثه راديو السيارة. "إن لهذا الضباب تأثيراً عميقاً...". وخاصة أن الفصل صيف.

- عندما كنت صغيرة، كان عندي كتابٌ حول أساطير الزوايا. تحدثوا فيه عن "نوبيرو" إله السُحب والذي يُطلق العواصف أيضاً.

- لا وجود لـ"إكزانا" هنا؟

ضحكت وقالت: إنك تحفظ دروسك بشكلٍ جيد.

- أنت من تتحدثين عن التعليم...

---

1 - هي بلدية تقع في منطقة أستورياس شمال غرب إسبانيا.

- إكزانا موجودة في كل مكان، لا يقتصر وجودها على الشطآن، ولكن هنا في الجبال هناك "كوليبر" أيضاً وهو ثعبانٌ مجنح يسهر على كنوز ما رآها البشر قط. يقال إنه يعيش مع نساءٍ سحرهن.

- لطالما أصغت النساء للثعابين...

أجابت: - هذا شبقٌ صرفٌ.. ثم تابعت:

- كما أن "تراسغو Trasgu" على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية، إنه عفريت أستورياس، قبيحٌ جداً إلا أنه قادرٌ على فعل كل شيء. يروق له الاختباء في المنازل. حين كنت أفقد إحدى ألعابي وأتعب من البحث عنها تقول لي والدتي حين أشتكي لها: لن تجديها أبداً، أخذها تراسغو لا محالة.

سألتها عن والديها فظلّ الغموض يكتنفها واكتفت بقول: "هذا أمرٌ معقد"

هبط الليل وما انتهينا بعد من تسلّق الطرقات المتعرجة ومحرك السيارة يعاني. لابد أنها لمست قلقي فقالت: "أنا أثق بسيارتي" لاح شبك بأشعة مصابيح السيارة وفي نهاية الشبك منزلٌ قالت: "انتظرني". خرجت من السيارة وتسللت عبر الشبك وغابت من حزمة الضوء لتبدو مجدداً حين أُنير مصباحٌ على جدار المنزل يرافقه نباح كلب. وقفت باز عند عتبة المنزل، فُتح الباب ولاح طيف امرأة عجوز. دخلت باز. يلتهم الليل كل ما حولي وأنا أجهل أين أنا ولا أنا مع من عدا أنها مصوّرة مختصةٌ بتصوير الشواطئ. خرجت ومعها كيسٌ كبير وضعته على المقعد الخلفي للسيارة.

قالت: "كل شيء على ما يرام. اقتربنا من المكان". حركت السيارة من جديد وتابعنا الصعود وعندما وصلنا إلى الأعلى، سلكت درباً ترابياً توقفنا في نهايته. ألقت مصابيح السيارة نورها على باب منزلٍ، بابٍ غريبٍ له مصراعين مثل باب اصطبل.

دخلت خلفها، ضغطت فاصلاً كهربائياً فانتشر نورٌ. اقتصر الأثاث في الغرفة تقريباً على طاولةٍ خشبية طويلة وضعت عليها حمولتها الثمينة. في قعر الغرفة هناك كوخٌ صغير يبدو المطبخ وفي الطرف المقابل سلمٌ خشبي يصل إلى سقيفة لابد أنها تضم سريرها.

- أنت هنا في منزلي، حقاً منزلي.

كما توجد مدفأة جدارية وأرضية من الأردواز الأسود.

سألتني: ألا تشعر بالبرد؟

كان لهذه الجملة، كيف أصف لك، وقعٌ في نفسي ما شعرت به منذ زمنٍ بعيد. أمسكت يدها ورفعتها نحو شفاهي، ارتجفت هي.

أضرمت النار، حقاً إنه الصيف لكن الليل في قمم جبال أوروبا يحمل برداً قطبياً، تأملت ألسنة اللهب التي تلتهم الحطب وتتلوى بعذوبة الأميرة سالومي[1] تحرك أجنحتها السبعة، عشراتٌ من الأميرة سالومي طرف تطقطق وتلقي في الغرفة أشعة نور راقصة وتنثر السعادة. تأملت باحترامٍ ممزوج بالخشية ذاك السلم الخشبي الذي سيصطحبني هذه الأمسية لجنّة الأحياء. على مقربةٍ مني، باز تقوم بالطهي، يبثُّ المطبخ إليّ أمواجاً من الحب، لأن شخصاً يطهو من أجلك فهو يريد لك الخير لا محالة. فتاةٌ من القرن الحادي والعشرين بعد عدة حقبات من الحركات النسائية ما اكتفت بأن تضع في "المايكروويف" أطباقاً جاهزة حسبها نزع غلافها اقتصاداً، بل خضار طازجة تضع لبّها مقشراً بلون برتقالي أو أحمر فاقعٍ أو أصفر كالشمس ثم تقطعها بسكينٍ مشحوذة وتقليها في قعر مقلاة مع زيت زيتون، فتاةٌ مثلها مستعدةٌ لتذرف الدموع برائحة البصل الواخزة التي لا

---

1 - ابنة الملك هيردوس الثاني ومعنى اسمها بالعبرية "السلام".

تُحتضر قبل أن تدافع عن نفسها بضراوة، فتاةٌ تضع، كما تفعل هي الآن، الخبز الدائري على المائدة وصحناً من السلطة مع الطماطم الحمراء كوجنتيها حين تستسلم للحب، مع بعض القطع من لحم الخنزير باتا نيغرا بنكهة البندق، هي فتاةٌ عاشقة. تماماً مثل رجلٍ يناولها قدح جعةٍ وهو يبتسم في وجهها بكل هدوء دون أن يسكب في ابتسامته أيّ نيّةٍ بل يسكب فيها كل روحه وحسب. هو رجلٌ عاشق.

أحببت باز ومازلت أحبها. ماذا تريد أن أروي لك عما جرى في ذاك الاصطبل الجاثم على الجبال؟ ماذا يقال حينها؟ القليل.

تأملنا بعضنا طويلاً بهدوء أو تقريباً ثم أسرّت لي عن طفولتها وكذلك فعلت. حدثتها عن ايتروتا وعن الأمونيات التي بحثت عنها مع والدي وعن صندوق الكنز الخاص بي حيث وضعت ميدالية سان كريستوف بالإضافة لحصان بحر مجفف وسن قرش مأخوذ من طبشور الجرف الصخري في برونوفال. كما حدثتها عن جدي الذي أحبّه جداً والذي روى لي قصصاً عن القراصنة وعلّمني كلمات مثل "شراعي" و"قرصان". جدي الذي طبعت قبلةً على جبينه المتجمد قبل احتراق جسده. بقيت روحه خالدةً أبداً عندي.

سألتني: إن كنت قد سافرت، أجبت: بنعم. حدثتها عن أفيون بيرمان وعن المرأة النمر وعن ذاك الرجل العجوز المتمدد يمسك غليونه الطويل الأسود وعن حفيدته التي تحضر له الأواني، كما حدثتها عن تلك النجمات التي ترسم في سماءٍ ذات مثلث ذهبي وجهاً واعداً. تحدثت عن البلسم الناسك في قمة "أتوس" وعن ليالٍ أمضيتها وسط أيقونات فتنهل روحي من البخور تحت أنظار يسوع المسيح وتحت أقدامي صخب أمواج بحر إيجة على بعد مئة متر بالأسفل. حدثتها عن قرى بانشير وسالتو أنجل وأعلى

شلال في العالم وعن السطوح في القاهرة حيث غفوت سابحاً بعرقي وعن الملّة الهندية قرب تريفاندروم في كيرالا حيث اصطحبني خطأ صديقي جول عندها هربت مع فتاة في السابعة عشرة من العمر ولم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة بعد.

قالت لي: إنها تحب السفر أيضاً. قلت لها للمرة الأولى إنه بالنسبة لي فكرة السفر قد أُلغيت وأنني اتخذت قراراً بأن أوروبا هي ميداني ولحدي، كما أن لدينا هنا كل ما نحلم به. ابتسمت، ابتسامة الجوكندا التي لا يمكن لنا أن نعرف أبداً، أبداً ماذا أرادت القول.

أمضيتُ في تلك السقيفة أجمل متع حياتي كرجل. يبدو أن إهاب باز قادرٌ على استحواذ كل شيء وعلى الإحساس بكل شيء. من رأسها حتى أخمص قدميها، وهبتني جسدها كله ولم أكن أعرف ماذا أفعل به، صرت الأداة وكانت هي إكزانا، داعبت ألسنة النار في الموقد وجهها وغيرت ملامحه. وجه، ظهر، جانب، ظهر، جانب لم أعد أعرف ولم أعد أرغب في أن أعرف. جلّ ما أعرف أنني غصت وغصت في أدق تفاصيل جسدها حتى ينابيعها التي لا تنضب. رشفتها حتى الثمالة، شفاهي غائرةٌ في شفاهها الملتهبة، غرقت في عتمتها وأطلت المكوث في ثغرها، التهمتها وعضضتها وهي أيضاً داعبت وعبرت بشفاهها على كل ميليمتر مربع في إهابي ورسمت صلباناً وردية، خدشتني، سلبتني، أنهكتني ووترتني حتى القطيعة ثم ارتعدت كدمية متحركة حركتها متعةٌ منحنية.

نشوانٌ بخمرةٍ فيزيولوجية بنكهةٍ لاذعة، عطر ممسكٌ وعواصفٌ من الانقباضات ومواكب من خفقان القلب يتلوه اتساعٌ غريب، رشفاتٌ طويلة دقيقة ثم عنيفة يتلوها صراخ. كنت بإمرتها في سخرة حب بلا هوادة. ليردد جسدي بعد روحي: أنا أحبها.

فتحت عيني وأول حركةٍ قمت بها هي أن أرفع الأغطية لأرى أخيراً الصليب الموشوم على بشرتها... هذا إن لم أكن وحدي... ارتديت بنطال الجينز نزلت السلم بسرعة، لم تكن في الأسفل أيضاً. فتحت الباب فبهرتني الشمس، وحين تأقلمت مع هذا التألق، كدت أن أقع على ركبتي، يا لهذا الجمال، حقاً قال دانتي دو براداسي "فجأة بدا لي أن يوماً آخر أضيف لليوم وكأنه يريد أن يزيّن السماء بشمسٍ أخرى". تراني هل قضيت من المتعة تلك الليلة وها أنا أفتح عيني في رضوان السعادة؟

تقتحم قلعةٌ حجرية السماء، كفكٍّ يعزلنا عن العالم. أضراس وقواطع صخرية تعض اللون الأزرق حيث تطفو الشمس الذهبية. ينبسط أمام عيني بساط من العشب والطحالب تهبط حتى تلاقي مرآة طبيعية هائلة، بحيرةٌ تنعكس على وجهها الجبال وعلى ضفتها تستعد باز بالمايو البكيني للغوص. صرخت: انتظري! وهرعت نحوها حافي القدمين على التراب الطري، استدارت نحوي قالت: ما الذي يجري؟

- اعذريني.

ما استمر التشويق طويلاً وسحبت المايو فحررت أردافها - آه! أخيراً! هاهو الوشم، ضحكت وقالت: أنت مجنون!

هاهو صليب الملائكة، ألفا وأوميغا، إنها هي!

لثمت الوشم وضممت حوضها بين يدي قلت: نعم، أنا مجنون. تمددت بجواري، لثمت جفنيها ومعصميها. ترى هل سيصل فيلم الحب هذا إلى حاسوب أنطون؟ شكراً أنطون! أنت من قلت لي إن عليّ أن أعيش الأشياء من جديد!

- هل سيرانا أحد...؟

- سيشكروننا.

دُهشت برؤية الدم ينبض بشرايينها الزرقاء الصغيرة التي تغذي أقدامها الصغيرة.

قلت: أحبك، باز.

أجابت: إن ما قلته خطيرٌ جداً.

نهضت وارتمت لتغيب في ماء البحيرة.

في المرآة الزرقاء، تحيك إبر الحجارة الغيوم البيضاء، غصت بدوري لألحق بفتاة الماء تلك.

أمسكت أنفي بين إبهامي والسبابة، زفرت الهواء من رئتي وتركت نفسي أنساب مع الماء بعينين مفتوحتين، اخترقت أشعة الشمس وجه الماء لتداعب النباتات المائية في بحيرة الجبل هذه والتي تدعى بحيرة "إنول" وإنول هو اسمك الثاني.

أمضينا أياماً وأياماً، نجوب المنطقة وأصقاعها وجبالها، من بولنز إلى توريمبيا ومن غولبيوري إلى غانغاس ديل نارسيا. نقيم احتفالاتٍ في مستودع الحصيد بين سنابل القمح المحصودة حديثاً ونسبح في أنهارٍ مياهها خضراء اللون ونسكب خمر التفاح في ميرانديردس، موائد في الهواء الطلق حيث تحتفل عائلاتٌ بأكملها يوم الأحد على طاولاتٍ خشبية طويلة.

تذوقنا كل شيء، وقمنا بكل شيء حتى الصمت في كنائس قديمة تعود لما قبل الرومان، كنوز معمارية مهجورة مثل سانتا ماريا ديل نارانكو أو سان سلفادور دو فالديديوس حيث أنهى أحد ملوك أستورياس حياته بعد أن رماه أبناؤه.

بحثنا عن شواطئ صعبة المنال والطوبوغرافيا شديدة التعقيد والتي يبدو أن عمالقةٌ قاموا بحفرها، قمنا بمسح بعضها بأقدامنا الحافية أثناء الجزر فوجدنا رؤوس الغرانيت تزرع سفحها لتبدو كأسنان تنانين حين يمتزج زبد الأمواج مع الضباب ليرسم مشهداً كونياً، شعرنا بالأسماك وهي تلامس بطوننا العارية، أسماكٌ تلتهمها مساءً في مطاعم متواضعة صغيرة مبنيةٍ في خلجانٍ صغيرة.

كم كانت حركاتها فاتنة، طريقتها بوضع خصلة شعرها خلف أذنها وهوسها بالتمدد صباحاً نافخة صدرها لأبعد حد كما أعشق عادتها بإشعال السجائر بحركةٍ سريعة. خطر لي الإعلان في المنجم وكأنني عند الضرورة سأفجر بالديناميت كل من يهدد حريتها.

طرحت عليها بالطبع سؤالاً حول الوشم، كانت متمددة على بطنها على الرمل في فيء صخرةٍ وأسندت رأسها على فخذي. يرتقي البحر من حولنا حتى تلعق مياهه جسدها العاري، تتبعت بإصبعي خطوط هذا الرسم الخلاب.

- أخبريني باز ماذا يعني هذا الوشم؟

- هل أنت أحمق أو ماذا؟ ها قد مر أسبوع وكنت تراه كل يوم.

- نعم، أعلم تماماً... إنه صليب Reconquete.

لفت رأسها الجميل نحوي ونظرت إليّ من الأعلى إلى الأسفل وقالت: ماذا إذاً؟

- لماذا وشمتِ نفسك به؟

- هل تؤثر أن أرسم "تراسغو Trasgu" ذا حدبة مع أنفٍ كبيرٍ؟ أو دلفيناً كالمراهقات؟ هل أثارت سخطك الأحرف القوطية؟ لهذا الصليب رونقٌ خاص أليس كذلك؟

- بلى، ما رسمت سوى وشم واحد، هذا الصليب. لماذا؟ ما القيمة التي يمثلها لديك؟

- أحب هذا الأحمق... ماذا جرى، لِمَ كل هذه الجديّة؟

- أليس أمراً متعلقاً بالسياسة؟

- سياسة؟

- نعم، هل يمكن أن يكون هذا الشيء متعلقاً بالمستقلين مثلاً أو أصولياً؟

انفجرت ضاحكةً ضحكةً جعلتني أشعر بالخجل لثلاثة أيام متواصلة.

- هل أنا أصولية لأنني أتأثر بالكنائس ووشمت صليباً على أردافي؟

يا لحدّة الذهن... ربما أنا مارانو وأحمل صليباً لأوحي بالعكس. أتعرف ماذا يعني مارانو[1]؟

أخفضت رأسي حيرة، ترى هل تأخذها بي الشفقة؟

- إنه أمر يتعلّق بالمراهقة، لو شئت أن تعرف كل شيء، لو شئت أمسحه؟

- كلا، بالتأكيد.

- ثم، اسمعني أنا أحب الصلبان والمسيح ورسم المسيح مصلوباً والعذراوات اللواتي يتنزهن في الشوارع لأنني أجد فحشاً كل هذا الألم ثم يتحول فجأة لشيء جميل. إنه لأمرٌ جذّاب أن تتحول وسيلة تعذيب لشعار أحد الأديان، ألا توافقني الرأي؟

---

1 - المارانوس (بالإسبانية والبرتغالية: Marranos، وتنطق بالبرتغالية مارانوش، والمفرد في اللغتين مارانو) هو مصطلح أطلق في الأصل على يهود شبه جزيرة إيبيريا الذين تحولوا إلى المسيحية طوعًا أو قسرًا، والذين ظل بعضهم يمارسون دينهم اليهودي سراً.

- أنت محقةٌ لا محالة.

- هل اطمأننت يا صغيري الفرنسي الأحمق؟ هيا قبّلني أرغب بتمضية وقتٍ من المتعة.

كانت تحب أن تعتزل مساءً في العلية وهي سقيفة قديمة للحبوب، تتكئ منذ آلاف السنين على أربعة أعمدة حجرية لمنع القوارض من التسلل إليها، سقيفةٌ مجاورةٌ لمنزلها أقامت فيها مختبرها لأن السقف لا يتجاوز المتر ونصف المتر، كانت تعمل فيه وسط أحواض ثابتة كبوذا محاطة بنورٍ أحمر اللون وقارورات صغيرة من مواد كيميائية - ملح الفضة والسيلينيوم والذهب والسيانور. تكشف رائحتها الواخزة عن الصور التي التقطتها عينها عبر صندوقها الصغير. صور مبدئية لنا مع مقتطفات من صور طبيعية، تبدو ندبةٌ على كتفي وأنا عاقد الحاجبين وحجرٌ له شكل أحد الأصنام الوثنية وطفل يركض على الرمل أثناء الجزر وثنياتُ فخذٍ وإحدى الأمواج الضاربة.

انزلقت خلفها ووضعت رأسي على كتفها: قد أعيش على ما يرام في هذه العلية.

- يجب أن تحيا مرتاحاً، هذا لن يكون عملياً.

أجبت: - نوعٌ من التغيير.

- أتعلم أنه مبني دون أي مسمار، أي إنه قد يُفكك بشكل كامل. كما أنه يقُدَّم كمهرٍ حين تقترن الفتاة خارج القرية حتى تعود إلى قرية الزوج؟

حتماً راق لي هذا المكان، تملكتني رغبةٌ قوية:

- أتظنين أن هذا يتناسب مع المنظر في مونت مارت؟

الشـواطئ

/الفُلك/

كنت أسكن شقةً جميلةً وتعج بالفوضى. ندخل عبر الطابق الأول وفي نهاية البهو نصل الطابق الرابع المنيف على محيط أخضر اللون، غابةٌ تتوسط باريس تدعى "لوكامي". لم يبقَ من كل تلك الأكواخ التي كانت تعود لفناني القرن التاسع عشر سوى بضعةِ جزرٍ صغيرة يتعذّر الوصول إليها، تمتد تحت ناظري عبر شرفة منزلي. راقت لي فكرة أن أكون أحد المقاومين وسط باريس وأن ألتقي هنا بمقاومة مع الثلاثة وسبعين زوجاً من الأحذية والبوط والصندل والباليرينا والحذاء النصفي ذي الأشرطة و...

ها قد انقضى عامان، عامان من البهجة لا تشوبها شائبة. جُبنا أنحاء أوروبا التي ما انفك نبضها الثقافي هاجسي. الأوردة التي كنت أجس نبضها لم تكن سوى لندن وفلورانس ومدريد وبرلين وأثينا. مازال الدم يسيل أسود خثراً. كنت أقول: "حتى الآن، كل شيء يجري على ما يرام". قبل السقوط الكبير في الهاوية، بقي لنا: بصيص أمل.

اقتصادياً، هوينا، سياسياً نحن في القاع، عالقين بين فكي كمّاشة من جهة أميركا وسلطتها المطلقة التي أضرمت سعير النار بانتخابها المتأنق، واقعياً ينحدر من أصولٍ إفريقية، ومن جهة الأحلام الاستعمارية لروسيا التي يصطاد قيصرها الجديد الدببة براجمات الصواريخ، يعتلي صهوة الخيل ويعلن أنه سيصطاد أعداءه "في غياهب المجارير".

أما الدول التي توصف بحياد أنها "بارزة" فما اكتفت بأن تبرز منذ زمنٍ طويلٍ بل رمتنا في القاع. هم السادة، تصطك أسناني حين كنت أقول ذلك لكنني كنت أقول: "إنني أتوقع مستقبل ابني، لو رزقت به يوماً ما، كبير

الخدم لدىٰ عائلةٍ صينية أو هندية يتلذذون بالحياة علىٰ الطريقة الفرنسية" في العالم القادم وربما قريباً، قد يصبح قدراً مرغوباً مشابهاً لأولئك البؤساء الذين يهربون بالآلاف من شواطئ أوروبا علىٰ متن زوارق مرتجلة، يحرقون جوازات سفرهم البالية اللون والحمراء والبوردو ويتحدّون عواصف البحر المتوسط سعياً للوصول إلىٰ شواطئ شمال إفريقيا قبل أن يرتموا في سعير الصحراء نحو الالدورادو كاتاري... نعم، قدرٌ مرغوب به.. من يدري يا هكتور، مليئة الحياة بقصص حبٍ مع الخدم لعلّك تجد السعادة في أحضان سيدةٍ من شنغهاي، لا تجد فيك مجرد فاكهةٍ غريبةٍ بل وعد بطيفٍ من الرومانسية؟ أو تعمل لدىٰ إحدىٰ الوريثات في بومباي حسنة التربية وترغب بمزيدٍ من السمو فتطلب منك في إحدىٰ أمسيات المواسم بينما ينهمر المطر ويجرؤون علىٰ التنفس أن تقرأ علىٰ مسامعها رواية "البؤساء"...

لسنا في عداد الموتىٰ علىٰ الصعيد الثقافي، مازال لدينا متسعٌ من الوقت كما كان لدينا متسعٌ من الوقت علىٰ مرِّ العصور لخلق عددٍ من التحف الفنية التي مازال العالم يحسدنا عليها بدءاً من "Nymphéas de Monet" إلىٰ مشاهيرنا. يتسارع سادة العالم الجدد البرازيليون والصينيون والكازاخستان إلىٰ مقاهينا لتتذوّق فنوننا وهم يتأملون الباريسيات وهنّ يعبرون أسفل الشرفات، مقتنعين لحينٍ من الوقت، فمازالت الأساطير راسخة، إنهن أكثر الكائنات الفاتنات والمرهفات حسيّاً...

بالطبع لن يدوم هذا، مع أن غالبية الأوروبيين فكروا كالبيزنطيين في القرن الخامس عشر حين كانوا يتناقشون عن جنس الملائكة بينما تخطىٰ جيش محمد الفاتح أسوار القسطنطينية، قالوا لأنفسهم: لن يطرأ لهم مكروه لأنهم الأعلون...

أصبحت أوروبا متحفاً كبيراً، معهداً فنياً للعصر القديم، معرضاً مؤقتاً يدوم أبداً، تتوسطها باريس، مدينةٌ بلا أبراج، إلا أننا نعلم أن الوقت كالسيف. من موقعي في الشركة، من خلف زجاج مكتبي، كنت أراقب كالربان وبرباطة جأشٍ مذهلة اقتراب الكارثة.

ب يلفظ العالم الذي أحب أنفاسه الأخيرة. يعيش العالم الذي أحب لحظاته الأخيرة. لَفَتَني عملٌ فني آنذاك، كان من البلاغة لدرجة أن اقشعرَّ له بدني، تصوّر أنك رأيته، اصطحبتك لرؤيته. كان عمرك شهراً أو ربما اثنين، تم عرضه في كنيسة مدرسة الفنون الجميلة حيث درست والدتك. إنه عمل أحد الفنانين الصينيين "هوانغ يونغ بينغ". لم تكن بعمرٍ يؤهلك لأن تتذكره، لو كنت أكبر لأحببته، ولرأيت فيه مخملاً من طبيعةٍ هائلة. دبَّ الرعب في نفسي، إنه نصبٌ، سفينة، سفينة نوح، بطولٍ يتجاوز خمسة عشر متراً وعلى متنها عشراتٌ من الحيوانات المحنطة: ثعبان ملتفٌ على صارية مقدمة السفينة، قردة مجمدين يربكون برج المراقبة حيث تحلّق أزواجٌ من الببغاوات ومن طيور السمنة وأبو الحن. على الجسر هناك أزواجٌ أخرى نمور وفيلة والمها ينتظرون إقلاع السفينة. لكن حُكم على هذه السفينة حيث تفوح منها رائحة الموت. أصابت الصاعقة الصارية الكبيرة وإن اقتربنا لرأينا غالبية الحيوانات الذين لاذوا إليها قد التهمتهم النارُ الهاطلة من السماء. استشاط الريش وتلف الشعر ليبدو الهيكل المعدني الذي يمسك المخلوقات. جمَّد الحر خيالاتهم بوضعيات مريعة. تمد الدببة القطبية المتفحمة جذعاً للضرير. تفجرت الكرات الزجاجية التي شكّلت عيوناً من هول النار.. تفغر أشداقاً ضخمة بفكّين محطّمين في ليل كنيسة الفنون الجميلة وتلوح وجوهٌ ذات زغبٍ وقرون أكلتها النيران وكأنهم هاربون من

كتاب حيوانات ألّفه إلهٌ مختلٌ عقلياً. ليحقق عمله الكارثي العظيم، قام الفنان بشراء مخزون منزل "ديرول" من محنِّط حيوانات شهير جذب السرياليين وأجيالاً من الأطفال الباريسيين ثم اندلع فيه حريق دمّره. الحيوانات التي لم تُلتهم كلياً أخذت مكانها على متن السفينة.

صينيٌ، فنانٌ من العالم الجديد، اختار أوروبا لا بل مركز أوروبا باريس ليوصل هذه الرسالة: الكارثة تقترب، لا عودة، اختاروا سيداتي وسادتي جيداً كيف ستعيشون لحظاتكم الأخيرة.

أنا اخترت، أرغب بالبقاء هنا، لن آتي بأي حركة. أنا على ما يرام في صالات هذا المعرض الكبير الغنية بالموهبة حيث كانت الحياة الأوروبية. في علبة حِليّ الزمن القديم، نرى في كل مكان على الجدران، على أسقف المباني الرسمية والوزارات والجامعات والحدائق العامة تماثيل وأجساداً عارية أسطورية أبدية، مازالت على ما يبدو قادرةً على حمايتنا. تماثيلٌ حُرِّمت في العالم لهتكها الدائم للحشمة. شعبُ التماثيل هذا الذي يملؤني بالسعادة والفخر حيثما وليت وجهي في كل المدن التي تبثّ النور في روحي وتهدّئ سعير مخاوفي. حيزٌ من الوجوه الحيّة، يبدو لي أن هذه الوجوه الجامدة في ثباتها التام والمتصلة مع ماضينا تعي سعادتي والمتعة التي أشعر بها كوني في هذا العالم واضطرابي حين أعي أن هذا العالم الذي أطرب له يشارف على النهاية.

أريد أن أعيش هذه اللحظات الأخيرة مع "باز". عندما كنت معها، كان العالم يبدو عاجزاً عن بلوغ النهاية. كانت حيوية ومرحة ونشيطة ولديها آلاف المشاريع.

حينها كانت في أوج تفجّرها، غيّرت العارض والعلب وعملت منذ ذلك الحين في الغرفة. تضع على أحد رجليها أكورديوناً ضخماً ونظرتها في الطرف. كما نتخيل مصور. بالحقيقة ما كان هذا؟ أنا لا أفقه شيئاً بالتقنية، يبدو لي أنه "ديردوف ٨×١٠ إنش" الهدف؟ ٣٦٠مم عدسة Apo Symmar، على ما أظن. لكنها كانت تجري تغيرات. بصدقٍ أنا لم أكن أهتم، ليس ميداني باختصار ما تمكنت من معرفته أنه ثقيل وأنها كانت بحاجة لمن يساعدها في نقل المواد وتركيبها، مساعدٌ إن لم يكونا اثنين. العارض الجديد "طارق" قام بعرض للمشاهير جان سوديك، بيتر بيرت، مارتن بار والمقيد الياباني آراكي، وضع محورٍ خاصٍ بباز كان وشيكاً، حيث لاقت المآسي الصغيرة الصيفية التي تصورها نجاحاً في طور الارتقاء. حتى ولو قسناه على صعيد حياتنا اليومية. كم مرة خلال تلك الخطط المتعلقة بالصحة المهنية والتي كنّا ندعوها عشاء في المدينة وجدت نفسي بدور مشاهد لهذا النجاح؟ عند مضيفينا في غرف الاستقبال التي نطؤها، لاحت أعمال باز مرةً تلو الأخرى، حدث ووجدت إحدى رواياتي في مكتباتهم ،ولكن لم يكن الأمر مماثلاً. أريد القول: لم يكن الأمر جلياً بل قاسياً. الانطباع المرسوم في نظراتها. بجانبها كنت قزماً.

كنت أحب هذا الدور: تتحرك، أتأمل، أستمر، كنت الشاهد على صعودها، انسكب في إيقاعها. إحساس، إطار، ضغطة زر.

لماذا وجب أن تفقد عقلها؟ أن تتركني بين يدي هذا المخلوق الصغير الذي أعشق والذي أسقيه دمي ما إن يطلب ولكن أخشى ممن يحتاج لوالدته. ترى هل أنهي هذا المقال يوماً؟

كانت ترافقني في كل غزواتي، حفل فني في أوسلو، ومعرض في ليشبونة، وعرض أزياء في ميلان، وافتتاح جديد لمعرض ريجكس في أمستردام، تتابع ولكن انتهى بي المطاف بأن تابعت أنا فكل الدروب تؤدي إلى الشاطئ، لرغبتها الملحّة للشاطئ.

في سورنيت، حيث تجد الحوريات دائماً مكاناً للعبادة، كانت تجد هي - في صف الكراسي ليمونية اللون المنيفة على البحر اللازوردي - الألعاب اللونية التي ترغب بها. في منطقة "بويل"، لفتها التضاد ما بين الصخرة البيضاء القاطعة وأرجل آلاف الأطفال الذين يثبون ويرتمون في المياه كرمانٍ لحمي، أحيت من أجل صانع العلب إيطاليا حيث باسوليني المسكين والساخر والسام والسخي. تنبسط بركةٌ رملية تحت كنيسة سانتاماريا اسونتا لتضيء قبتها المزخرفة لأحضان جرفٍ منيعٍ مترامي الأطراف، صنعت معتقلاً ضخماً تقوم بحمايته مجموعةٌ من المظلات التي تأوي إليها أجسادٌ تتلامس في سعير الحر بحثاً عن ظلٍّ لا يُدفع ثمنه.

تغادر مع نهاية الصباح إما سيراً على الأقدام أو تستقل سيارة أجرة صغيرة. تزرع أدواتها في الرمال وكرسيها الخفيف جداً، تضع فوقه مسطحاً تعلوه كاميرا التصوير. يمد لها صبي من الحي يد العون ويغادر مساءً مع مبلغٍ من المال وابتسامة باز والفرحة التي تساوره بأن يتأمل امرأةً جميلةً طيلة النهار.

كنّا نلتقي من أجل الغداء، كنت أنا من انضم إليها، أنظم مواعيدي في المدينة وأعمل في الغرفة التي خصصت لنا في الفندق. أحتاج لحمامٍ منعشٍ. كنت أراقبها من البحر جاثمةً على علو مترين تقريباً وتحمي رأسها من ألسنة الشمس بقبعةٍ عريضةٍ من القش. تغادر في بعض الأحيان برجها

وتتحرر من قوقعتها النسيجية لتلامس الأمواج. ينال الصبي أجرته مقابل أن يراقب أدوات التصوير لكنه اكتفى بمراقبتها وهي تبتسم له عندما تعود وماء البحر يسيل على جسدها، تتمدد على منشفة السباحة، لا تهتم لتلك الكراسي العالية مع واقيات الشمس المتحركة والتي من دونها لا تكون إيطاليا هي إيطاليا.

يتّقد جسدها ليلاً بالحرارة المخزّنة.

يتعلّق الفندق بالجرف الصخري بجدرانه المغطاة بالكلس والشرفة المغلقة بالمعدن الأزرق، كصومعة ناسك أبجل فيها باز. كانت تتخبط كثيراً في نومها فأضمّها في أحضاني إن راودتها الكوابيس التي تتحدث فيها بلغتها، يتصبّب صدغاها عرقاً ولا تزال أهداب خصلات شعرها متشرِّبة بالملح رغم الماء العذب الذي تغتسل به بعد السباحة. أمسح جبينها المحموم بمنشفةٍ رطبة وأسهر على راحتها. في ليالي قيظ الصيف نفترش البلاط عاريين لنمد أجسادنا البهية ببعض الرطوبة، كي يداعب النوم أجفاننا، نعلّق ناظرينا في النجوم ونتسلّى بالربط فيما بينها بنظراتنا فتنبثق من السماء السوداء أشكال حيوانات مثل تلك التي تخطها أنت بقلم الرصاص على دفاتر التلوين.

كانت تكره التحدّث أثناء تناول طعام الفطور، تلتهم البسكويت وتبقي عينيها مخبّأة خلف نظّارات "منهاتن"

تلفظ كلمتها الأولى في الساعة ٩ و٥٥ دقيقة حين يعانق ماء بحر "تيريهين" أي بحر أتروري[1] بشرتها ذات لون "الكابتشينو". تقودها مثتان

---

1 - أتروري: من أتروريا التي كانت تقع قديماً غرب إيطاليا.

وتسعين خطوة إلى الصخور التي ترتمي بين أحضانها يراقبها طيف الكاتب الأميركي الشهير الذي ينوف عشه النسري علينا. لم تكن تتناول سوى سمك أبو سيف وعند الضرورة تتناول سباكيتي بالمحار كانت تقول إنها محارة.

عندما سأعود من هذه الرحلة يا هكتور سآتي إلى غرفتك حين يجافيك النوم. أنحني على سريرك وأرتل: "طيري طيري يا عصفورة...".

تهدهد لك هذه الأغنية كما حين أهمس لنا أنك على سكة الحديد العابرة لسيبيريا وأنت تنعم بالدفء في مقطورة نومك التي تعبر التوندرا[1]. التوندرا كم تُسليك هذه الكلمة؟ وكلمات تلك الأغنية تسلّيك أيضاً قبل أن تغفو بنغم كلماتها مغناطيسياً.

لم يكن يلزمنا شيءٌ أكثر، كل شيءٍ كان جميلاً وعذباً. نبيذٌ ومداعبات، صمتٌ وحوارات وتلك المرآة الرائعة التي ابتعناها من متجر تحفٍ عتيقٍ جداً، مرآة دائرية ومذهّبة ولها ذراعٌ مزخرفة برسمِ امرأةٍ مدثّرةٍ بالنسيج من العصور القديمة. وقت الكوكتيل هو الوقت المقدّس، نختار مكاناً يطلّ على منظرٍ خلاب لنتذوّق نكهة السائل الملوّن المسكوب في كأسٍ أكبر من الكأس العادي.

إن كانت أسماء القهوة تنتهي بالواو: (اسبريسو، كابتشينو، لاتي موكاشينو...) فإن أسماء الكوكتيل تنتهي بالياء: بيليني، روسيني، نيغروني.. ستلاحظ وجود عددٍ كبير من أسماء فنانين حتى نيغروني هو اسم فنان، رسم في الخمسينات "لوحات للسيدة العذراء". كنا نراقب دفق

1 – التوندرا: سهبٌ روسي مجلّد يتميز ببعض الأعشاب.

الكحول المتسلّل ما بين فقاعات ماء سيلتز وأطراف قطع الليمون ويروق لنا التوازن غير المستقر ما بين المرارة والحلاوة، ما بين شكل الكأس الدقيق وهو يتنقل بين أصابعنا، الشعار أسفل الكأس ورخام الطاولة ومخمل الأرائك ونسيج البساط.

لماذا لم أرَ العاصفة؟

لا أحب جملة مورافيا: كلما كنّا سعداء، تناقص اهتمامنا بالسعادة، لا أحب هذه الجملة لأنها خاطئة، على كل حال هي خاطئة بالنسبة إليّ، كنت أوليها اهتمامي كل يوم وأشكر الآلهة على خلق هذا الكائن، ولو لم تمنع القوانين الأوروبية لقدّمت طوعاً قرباناً يومياً لهذه السعادة.

لابد أن الإطار قد خدعني.

بأيدينا المتشابكة تمكنّا من قرصنة شواطئ أوروبا. كنّا نعبر القارة بمقطورات محمية ونهبط في هذه الأصقاع المألوفة التي مازلنا نسبرها بحثاً عن مزيدٍ من الحياة والجمال. هي كانت نقطة تركيزي ومن دونها كنت أعلم أنني سأفقد بوصلتي.

كان لدينا مشروع سري، نولد من جديد في برج يعود لأحد المنازل المحصنة والمحاطة بأشجار السرو في "توسكان"، المقر الذي بناه صاحب المصرف "لوران ميدسيس" أصبح فندقاً. هناك زهور وشمعدانات وأرائك جلدية لا تفارق الأجساد التي لامستها ورحلت. كنّا نحتسي النبيذ وأصبحنا رزينين، طرحنا على أنفسنا سؤالاً واحداً: ماذا نحب حقيقة ومن أعماقنا؟ أجابت والدتك للتو: "حمام رغوة مع الرجل الذي أحب في منزل إيطالي عتيق تحيط بنا شموعٌ يفوح منها عبق الرمان. معبر سري يعشعش في

المكتبة التي تؤدي لتصوير جصي، هناك نحصل على حمّامٍ في حوضٍ من الرخام العتيق تتراقص على السقف ملائكة تتزاحم على شريطٍ أحمر وحورياتٍ شبه عاريات ينتظرن عاشق الليل بنور الشموع الخافت. نتابع التفكير ونلفظ كلٌّ بدوره أسماء أماكن ونكهات وأشياء استهوانا القيام بها ولكننا لم نفعلها أبداً.

سندوّن هذه الذكريات في أرشيفنا ليكون مشروعاً لكتاب. هي ستصوّر وأنا سأكتب. وسيأخذ شكل قوائم حيث أصبحت القائمة هي الشكل الأدبي الأرقى في عصرٍ معالجٌ بالذرائع حيث لا يجد الناس متسعاً من الوقت للقراءة ولا يجد المؤلفون الوقت للوصف.

قائمة لأن الزمن أصبح بشكل خاص بالنسبة لي ولوالدتك لإحصاء ما سنفقد. كتابٌ حول ما سيختفي، هذا هو عنوان مشروعنا السرّي وكأنه جولة في أوروبا.

في "السوائل" هناك:

- الماء الحارق والمرحب والذي يسيل من فم تماثيل متوحشي حمام جيلرت في بودابست.

- النبيذ الأحمر الذي يسمى بغرابة كربون ويقدم في مطعم شاسانيت في كامارغ، كنا نتناول عشاءنا في الخارج تحت خيمة كبيرة للناموس ليراودك انطباع بأنك فراشة، فكرةٌ لدب النشاط بعد العشاء: أن تلتقي بصديقتها في مدينة آرل.

- الماء العذب الذي سيشفُّ عن الحصيات البيضاء على شاطئ تيلول. البساط الأخضر في درب عشبي يقود إلى الماء حيث توت العليق الريانّ في

متناول الفم وأجفان البحر الزرقاء التـي تفـتح وتغمـض بأهـدابِ أمـواج إتروتات.

- متغيرات شتوية: الشوكولا الساخنة التي يقـدّمونها في نُـزلٍ ريفـي في سلاماندر تحت الجوائز التي سوَّدها دخان المِدفأة الهائلة حيث يمكننا شوي "جاموس"

- الكوكتيل الكحولي في بار وأرجنجل الملاك المدمر في برلين.

- دفقةُ ماء مـن نـافورةٍ عامـة في سـاحة مونـت مـارت حيـث يمـسك القديس دونيس رأسه بين يديه في باريس.

- كوكتيل إسبارتيز عند غروب الشمس وأنت تجلس في دورسوديرو في كنيسة كوزاتي في فينيسيا.

سأتوقف هنا، توقعت مقطعاً كبيراً لفينيسيا إلا أننا لن نكتبه أبـداً، ففـي فينيسيا بدأ الزوج الذي شكّلناه يتخلخل وما عدنا نتوصّل لشبكه.

جولة صغيرة في عالم الرعب

في الواقع حين أفكّر بالأمر الآن أشعر أن النهاية بدأت قبل وقتٍ قصير. عندما كانت تتخيّل أن بوسعنا أن نضيف صفحاتٍ إلى الكتاب، كانت ترى مثلاً لكلمة "السوائل":

- شاي بالنعناع في قهوة هافا تاتغر ونحن نتأمل نواعير الهواء في "طريفة".

- زجاجة "كوتوكو" في دغلٍ في باماكو بأنغام موسيقار ألباني يعزف على البلافون قبل أن يرقص كوبي ديكالي رقصةٌ من ساحل العاج.

- مغلي الخبيزة في خان الخليلي في بازار القاهرة.

كانت مسلّية لكنها لحوحة.

- أحب أن أقوم بكل هذه الرحلات برفقتك..

أجبتها إنني ما عدتُ أرغب بذلك فقالت: مع ذلك كنت قد قمت بها.

- حقاً ولكن كان ذلك في الماضي.

- كفّ عن التحدّث كرجلٍ مسن.

- أنا كذلك، أنت تعلمين أن المعطيات تتفاقم مع كل يومٍ يمضي.

حسبي أن أكلّمها عن فارق العمر بيننا حتى تدفعها رغبةٌ نحوي ربما لأن هذا الفارق يجعلها تفكّر بالموت ويفرض تواطؤها معه؟

بعد أن تهدأ أجسادنا المفكّكة باستمتاع في دفء ليلٍ سرمدي لتضيف نسمة رسالتها في متعة العيش التي نظمها انبعاث النوم: "سأعيد اقتراح،

Tesoro، هل تتخيل هذا في أحد غرف قصرٍ مغولي يطلُّ على تاج محل أو في منزلٍ عربي في الاسكندرية أو حلب لو كنت تفضّل حيث يعبق الجو بأريج الصابون الحلبي...

- في حلب، سأذكرك أن هناك حرباً. لا تنسي أن العشاق يبكون في حلب.

- حسناً، لنستثني سوريا، ما رأيك بالأردن؟

كانت تلحّ أحياناً مثل تلك الأمسية لدى عودتنا إلى "مونت مارتر"، تناولنا سردين من بحر كانتابريا على العشاء ثم عرضت لها أرقاماً من دراسة Bruce Hoffman وهو معاون مدير هيئة RAND أو مقالاً لروبرت Papo A، تم نشره في مجلة العلوم السياسية الأميركية: "الموت من أجل النصر. المنطق الاستراتيجي للإرهاب الانتحاري الفدائي"

في الثمانينات جرت "٣١" هجمة فدائية، وفي التسعينات، ١٠٤. وفي العام "٢٠٠٣" وحده ١٨٨. وما بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٤ أودت ٤٧٢ هجوماً انتحارياً بحياة ٧٠٠٠ شخص في ٢٢ بلداً. المعطيات الأكثر أهمية هي الأخيرة: ٨٠٪ من الهجمات الانتحارية في العالم منذ ١٩٦٨ حدثت في السنوات العشر الأخيرة بعد هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١. بالطبع، كان الغرب فيها هو خط التسديد، استهدفت بالطبع وسائل النقل والأماكن السياحية. يزداد العالم خطورة أمام الرحّالين، ماذا بوسعي أن أفعل؟ ألحّت من جديد. عرضتُ الأرقام المخيفة واللائحة الجغرافية الطويلة للانفجارات والجثث. قائمةٌ أخرى، قائمةٌ سوداء مليئة بالموتى والمعدومين بالرصاص والمخطوفين والسيارات المفخخة والقنابل في حقائب الظهر...

"الهند" جنة الحرير وKâmo-Sûtra؟ اسمعي إذاً: ١٣ أيار ٢٠٠٨، ٨٠ قتيلاً و٢٠٠ جريح في معبد هندوسي في جايبور، ٢٦ تموز ٢٠٠٨، ضرب ٢٥ هجوماً انتحارياً بنغالور وأحمد أباد أسفر عن ٥١ قتيلاً و١٧١ جريحاً، وفي ٢٧ أيلول ٢٠٠٨ في سوق الزهور في نيودلهي، قتيلان و٢٢ جريحاً، وفي تشرين الثاني ٢٠٠٨ من ٢٦ حتى ٢٩ أسفرت هجمات بومباي عن ١٧٣ قتيلاً و٣١٢ جريحاً، كما أسفر في ١٣ شباط ٢٠١٢ تفجير قنبلة في حقيبة ظهر عن ٩ قتلى و٥٧ جريحاً في تيراس جيرمان باكري في بون Pune، ٢٨ أيار ٢٠١٠، أخرجت احتجاجات فاكساليت قطاراً متجهاً إلى بنغال الغربية عن سكّته فأودى بحياة ١٤٨ شخصاً. هل تتحدثين عن مصر؟ في ١٧ تشرين الثاني ١٩٩٧ في معبد هاتشبسو في دير البحاري، قضى ٣٦ سائحاً نحبهم برصاص ٦ فدائيين كُتب على عُصبة جبينهم باللغة العربية: "حتى الموت" كما أودت هجمات شرم الشيخ في ٢٣ تموز ٢٠٠٥ بحياة ٨٨ شخصاً.

- يبدو أن هذا من الحكومة.

- ماذا يغيّر؟ هاك حتى تركيا يمكن أن تقع بدائرة الخطر. أودت رشقات رصاص في ٩ تموز ٢٠٠٨ قرب القنصلية الأميركية بحياة ٦ أشخاص. وفي ٢٧ تموز ٢٠٠٨ - ١٧ قتيلاً و١٥٤ جريحاً في اسطنبول. كما حصد هجوم انتحاري في ٣١ تشرين الأول ٢٠١٠ (٣٢) جريحاً. والأردن في ٩ تشرين الأول ٢٠٠٥ حصد هجوم ثلاثي ٥٧ قتيلاً و٣٠٠ جريح.

- بقي أمامنا أميركا اللاتينية؟

- لكن معدل الموتى فيها يفوق مناطق الحروب. حسب ONU ٤٥.٢ قتيلاً من أصل ١٠٠٠ من سكان غواتيمالا وفي الهندوراس تصل إلى ٦٠.٩

- أجل ولكن هذا جراء عصابات. إنك تبالغ نوعاً ما..

- آه.. نعم؟

ذكّرتها بوفاة الفرنسيتين حورية وكساندرا مؤخراً في إحدى المناطق السياحية بامتياز في الأرجنتين وأن المكسيك تحطم دائماً الرقم القياسي بالعنف ضد الأجانب.

التزمت الصمت، أرغب أن نقوم بجولة وأرغب في ألا تزعجني مجدداً بهذا. أرغب بأن تثق بي.

"آسيا"؟ سأوجز لك هجمات نيسان ٢٠١٢ في تايلاند لأنها ضربت أقصى جنوب البلاد، في منطقةٍ لا يرتادها السياح كثيراً ولكن سأذكّرك بأندونيسيا حيث أودت الهجمات في بادي بار ونادي ساري في بالي بحياة ٢٠٢ شخص وجرح ٢٠٩...

قاطعتني قائلةً: "سيزار، مضى على ذلك عشرة أعوام..."

نهضت وضمّتني في حين لم يعد لدي رغبة بالمتابعة. ما وددت قوله هو أن الحياة قصيرةٌ جداً ولحظات الحبور نادرةٌ فيها. وددتُ أن أقول لها إن ما لدي من خبرة يعبّد لها درب الثقة بي: ليس هناك ما هو لطيفٌ بالنسبة لنا خارجاً.

ما وددتُ أن أقول لها وغدرني الزمن قبل قوله: إن استكشاف الشواطئ معها وهذه الرحلة بخطئ رملية في أوروبا في جزيرة مول في إيكوس أو

سانكت بيتر أوريبغ في ألمانيا وصولاً إلى روكيبرون في فرنسا أو نافاجيو في اليونان تكفي لسعادتي وأظن صادقاً أنها كافية لسعادتها أيضاً.

في الصباح الباكر أو في المساء حين لا يكفي النور للعمل وحين تخلي الشخصيات إطار صورها وترتب أدواتها لتصبح الشطآن ملكاً لنا، حركة المياه وعطر الأعشاب البحرية تفوح منها شفافيتها وعذوبة حبيبات الرمل يميل على خط الأفق.. يبثّون الحياة.. كنت أظنّ أن هذا يبثُّ الحياة... قلت: كل الشواطئ التي تريدينها..

كلمتني عن جزر المالديف.

شهر العسل

كنّا نستحم، كنّا في حوض الاستحمام، تطلُّ أشجار الدغل من النوافذ والنهار يغيب بانحدارٍ لطيفٍ. كنّا ننعم بحياةٍ جيدة. تفارقنا من أجل تناول العشاء عند طارق.

"كنت أفكّر، لا خطورة. فقط أنا وأنت والطبيعة وبعض العرسان المتفرّغين والعارين تقريباً..".

رغبت بتجديد الحوار اللوني ما بين لون الرمل الأصفر الضارب للبياض وألوان البحر والسماء الزرقاء، الاختلاف البسيط للأبيض ما بين "لب جوز الهند ولحم الجراد البحري.."

- لا خطورة؟ هذه الجزر في طريقها للانغمار...

- في أفق عام ٢٠٢٥.. لدينا قليلٌ من الوقت..

- وآخر تسونامي؟ أسفر عن ثلاثة آلاف ضحية.

- بالضبط، هذا ما جرىٰ... حسب الإحصاء، هذا حسنٌ...

- إحصائياً، أنت محقة... إلا أنك نسيت الضعف الواضح لطائرات الخط.. انظري لهذا، أرسلت سيسيل لي الرابط.

وضعت أمام ناظريها شاشة جوالي حيث يُعرض فيلم فيديو مربك تماماً نقلته إحدىٰ الناشطات.

جزءٌ من شهر عسل مصوَّر بالكاميرا، بخلفية من بحيرة مرجانية ونخيل والزوجان ببشرتها الضاربة للون الوردي يرتديان الأبيض

ويتزيّنان بأطواقٍ مـن زهـرٍ قـدّمها طـاقم الفنـدق.. الاسـتيهام المطلـق في الأسلوب الأوروبي المعتقد بأن أوروبا لا تكفي وأننا سنعض أصابعنا ندماً. كما أن ما يحدث هنا ليس سوىٰ تنبيه.

شرح باللغة الإنكليزية أحـد سـكان جـزر المالـديف وهـو يرتـدي زي سباحة أسود للعاشقين الفتيين أن التقاليد هنا تقوم علىٰ أن تغني الهيئة أغنيةً تحمل البشرىٰ علىٰ شرف الـزوجين. لمـع بريـق حبـورٍ في أحـداق الرجـل والمرأة.

اقتحمت أنغام أغنية رائعة السماء الاستوائية، شرح الرجـل بالإنكليزيـة اللغة المحكية "ديفري" وهي أقرب ما تكون لزغردة عصافير ورافقه طـاقم الفندق بجوقة. المشكلة أن الترجمة الظاهرة علىٰ الشاشة تناقض قـسراً هـذه العذوبة. كانت الترجمة مريعة: "إنكم خنازير وأبناء هذا الزواج لـن يكـون سـوىٰ خنـازير وأبنـاء زنـىٰ، هـذا الـزواج غـير صـحيح لأنكـم خـائنون وزنادقة... الكل يردد الأغنية والزوجان السائحان متأثران ومبتـسمان دون أن يفهما ما يقال. يكرر طاقم الفندق اللازمة: "شاذون"

انفجرت باز ضاحكة.

- أرجوك باز، إن ما قاموا به شديد القسوة.

- صه، أنا أصغي...

كانت مسحورة، تقدّم مـنظم القـداس نحـو العـشاق، شـابك أيـاديهما وضمهما كصدفتين، ثم أعلن بنبرة ابتهال: "قبـل أن تُـدخلوا مـع الـدجاج تأكدوا من عدم وجود حبيبات عليه"

اغرورقت عينا العروس بالدموع فانفجرت باز ضحكاً.

أضاف منظم القدّاس: عاملوا المدير باحترام.

سألت: "ما هذا؟"

- إنه يقرأ عقد عمل لطاقم الفندق ويوحي للسيَّاح بأنها أمنيات مقدسة للزواج..

- يا له من شيء رائع..

استمرت المراسم، دُعي العرسان لزرع شجرة نخيل صغيرة على الشاطئ.

قال منظم القداس: "من عضوك تولد الفوضى.."

علَّقت باز: أعشق هذا..

- كيف باز، تعشقين هذا؟

- إن عبارة "من عضوك تولد الفوضى".. هراءٌ تماماً.

- نعم؟ حسناً أصغي لما يقول أيضاً: "من عضوك تخرج الديدان.."

أضافت: هذا هراءٌ حقاً..

انتهى مقطع الفيديو.

- إنه قمّة الغرابة، لا تقولي إنه أثّر بك؟

- مقطع.. اللعنة على الخونة، لم يرق لي..

- يمضون وقتاً من التسلية، يبدو هؤلاء السيّاح بقمّة الحماقة.

- ربما نكون نحن مكانهم..

- ولكن لا. أولاً أنا لم أطلب منك أن نعقد القران، ثم انتظر هم لم يقطعوا رؤوسهم..

- هذه المرحلة الثانية...

غابت أنظارها بغيوم ضبابية. بدأت أكتشف أحد طباعها: تقلّب المزاج. تنتقل من حالةٍ لأخرى بسرعةٍ مذهلة. هذه ميزة بحياتها كفنانة ولكن في الحياة الزوجية تقحم الشريك بالروديو[1]. نهضت بسرعة واتجهت إلى المطبخ. سمعت ماء الصنبور يسيل والخزائن تفتح وغطاء علبة الشاي يقفز.

أصبح صوتها معدنياً: "بالواقع، إنك تخاف، أنت حقاً تخاف..."

انطلقت كلمة "خائف" كبصقةٍ من المطبخ نحوي، أحاطتني باستحقارها.

أجبت دون مواربة.

- هذا ليس خوفاً.

- لكنك ذهبت إلى كل مكان، حتى إلى أفغانستان.

- بالضبط..

قدمت إلى غرفة الاستقبال مع الطبق ووضعته على الطاولة الزجاجية ثم جلست ووضعت ساقيها العاريتين خلفها والتفتت نحوي.

- للأسف، أتعرف، كنت أرغب في أن نقوم معاً برحلة طويلة.

- لم نتوقف.

- لكن بالكاد نتحرّك. للأسف. أنت رأيت كل شيء أما أنا فلم أرَ شيئاً.

- بل ترين أفضل منّي بكثير، صورك تثبت ذلك.

---

1 - الروديو: عرض براعة يجري بين رعاة البقر.

داعبت شعرها. عبق رأسي بأريج نسغ الأشجار، فرغبت في أن أغمر جذوري في تراب زوجتي التي تقطع بوضوح سيل رغبتي. تملّكها الغيظ مجدداً: "أتدري ماذا؟ إنني أجدك لئيماً وبراهينك غير مقنعة. لم تتوقف عن الحديث عن أماننا ولكن أنظر ما جرى في "النروج" في تموز ٢٠١١، ارتكب المجزرة "أحد الأصوليين الشقر". النروج على مقربةٍ منّا...

- هذا صحيح.

- وماذا عن رمي الرصاص الذي حصل في "ليج" وسط سوق نويل..؟

- حسناً باز ولكن إن كان لدينا ما يكفي من مجانين هنا فلماذا نبحث عمن هم في الخارج؟

مرّت لحظةُ صمتٍ طويلة، انحنت لتقدّم الشاي واستدارت نحوي.

- منذ متى والخوف يتملّكك؟

لم أرغب بقول شيء، فهذا يتطلّب الكثير من الوقت، إنها قصة المحاربين القدماء٪ سأقول لك بالطبع ولكن سنرى.. كنت أتأمل تمثال بيرماني الصغير الذي يتراقص تحت صورة لمالك سيديبيه، غيّرت مكان حدود الحوار.

- هل تعرفين ماذا قال فيريليو فيلسوف السرعة؟

- كلا.

- "في كل مرةٍ يخترع الإنسان اختراعاً يخترع المصيبة التي ترافقه. إن صنعتِ طائرة تحتوي على ٣٠٠ مقعد، سيكون لديك ٣٠٠ ضحية محتملة. إن بنيتِ برجاً فإنك تبنين احتمال انهياره...

- إن الأفكار التي تجول في رأسك شديدة السواد...

- كلا باز بل يبدو العالم من حولي فوضوياً أكثر فأكثر وغير مستقر، وقابلاً للانشطار، بات الناس مجانين والطبيعة في احتدام...

اتسعت حدقاتها، لم تعد هنا، انحسرت كالموجة.

لم يكن ذلك خوفاً، كنت أعرف ما لا أريد، هذا كل ما في الأمر. وهنا، حقاً أنا أحقد عليها بأن أرغمتني على الصعود على متن هذه الطائرة. أُعلنت الوجهة أعلى المكتب. استحوذت كريمة على مكبّر الصوت وأعلنت أننا سننطلق. أنا خائفٌ لأنني أفكّر بك يا هكتور. ماذا ستفعل لاحقاً؟ كيف سيتطوّر هذا العالم؟ هل ستمتلك ما يكفي من أسلحة؟ ما قيمة الثقافة التي أحاول وهبك إياها؟ ما قيمة الجمال؟ الإنسان؟ هل سينتهي كل ذلك؟

وصلنا متأخرين إلى العشاء، نعم، تجرّأت على القول إنها كانت بحاجة للحب. بالكاد غطّت نهديها العاريين بغطاءٍ توحي نقوشه بكربونات النحاس. دعانا طارق إلى هذا العشاء قبل الهجرة الفينيسية الكبرى لعالم الفن.

افتتح معرض لابينال بعد أسبوع وتم اختيار تصويرين من أعمال باز لتمثل المعرض العالمي "Illuminazioni"

فينيسيا: صندوق ذكريات سحر العالم القديم. في "كتابنا عما سيختفي"، لا يوجد أي إشارة عن فينيسيا لأن الزوج الذي كنّا اختفى هناك.

فينيسيا أبواب مفتوحة

كنّا نتجه إلى فينيسيا مرتين في السنة، في الخريف والربيع لنتأمّل عرس الماء والحجارة بنورين مختلفين وبدرجتي حرارة متفاوتتين. نالت إعجابها هذه المدينة الملتفة على نفسها كالبوظة الإيطالية بالبندق وألوان بحيرتها الشاطئية. كان لنا فيها نقاطنا الثابتة: السماء حيث تنفجر الشمس وتتساقط غباراً على زخارف القصر ومتجر ميسوني في فاليرسو حيث ابتعت من أجلها هذا الفستان الرائع بتنسيق خلاّب لخطوط زرقاء لازوردية وزمردية مكسورة.

كل عامين يجتمع كل ما على الكوكب من فنانين وناقدين وجامعين وهاوين للفن في حدائق المدينة في أحضان هذه القلعة "أرسنال"، في المخازن الكبرى من الآجر الأحمر الوردي حيث بنت الجمهورية قديماً سجل الأشغال الشاقة، للإعجاب أو الاستهزاء بالصرح. يطلق محقق "بينال" هنا معرضاً عالمياً يتبدّل مع كل عرض. في هذا العام سيتم عرض عددين من أعمال والدتك ولكن هاك، باز لم تعد تريد الحضور حتى ولو تم تشريفها، حتى ولو لم تعد الحمرة تعلو وجنتيها لدى مقابلة "جيف كونس" و"تاكاشي موراكامي"

حتى إن سعر النسخ، بعيداً عن الوصول لحدود الغنى في الفن، أخذ أبعاداً مناسبة حسب مقياس السوق، تزايد عدد "الصفر" على مر الشهور كبالونات من الهيدروجين. حتى أنني رأيت شواطئها على بوستر في مترو ما بين القصة المصورة "المرأة الفخ" لانكي بلال ورسم للمطرب ساي ومطرب أغنية غانغام ستايل الذي حطم رقماً قاسياً بالمتابعة على youtube.

قالت لي: هذا يرهقني سلفاً. هذه اللعبة المرعبة التي يتفحّص فيها الناس بعضهم بعضاً والمنافسة الدائمة في حفلات الكوكتيل والشر النابع بعد قدحي بيليني، لن تشاركني الإحساس فما سبق أن عرضت بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

ذكرت لها محاولاً إقناعها أن اثنين من أصدقائها الفنانين سيكونان حاضرين:

- سيحضر لوري وعادل. لطالما آلمك عدم لقائك بهما.

- أفضّل أن ألتقي بهما بعيداً. ففي فينيسيا، يصبح الجميع حمقى. هم مثلي، "لعبة سيئة".

إنها عبارةٌ من "لوري غريود" أحد الفنانين الفرنسيين الأكثر موهبة وهو أحد أصدقائها المقرّبين الذي يصف الوسط الفني بعازفي الراب والذين يتحدثون عن صناعة الراب: "Game". وتلك اللعبة التي يدخلون فيها ليتصدّروا الحلقة الأولى. سياسات التسويق والعقود والتحويل والمعارض الكبرى "إنها عدة أيام فقط، لابد أن تحضري لتتحدثي عن عملك ولتقابلي الناس. كما تم اختيار اثنين من شواطئك"

- مللت الشطآن، أريد الخروج من التناقض الذي أقحمتني فيه.

عادت لتتحدث عن مقالتي. تناقض، أجل ولكن تبعاته كان لها فوائد جمّة. مضى على المقال سنتان ومازال قلبها يتآكل حقداً.

لم تعد ترغب بالحضور، صارع طارق قبل أسبوع من الحدث لإقناعها والعشاء الذي حضّره في منزله في باريس، في شقته المطلّة على معرضه كان الفرصة الأخيرة. كان طارق الجذاب ذو القامة الطويلة والنظارات الدائرية

التي تغطي وجهه البيضوي يرتدي تلك الأمسية ربطة عنقٍ بيضاء خربش عليها ابنه ذو الخمس سنوات بقعاً وخطوطاً ملونة بالريشة. كنّا نتناول الحلوى، أنعش النبيذ بعده الشمبانيا الحوار، سأل أحد الناشرين: "هل تدّعي أن ما رسم ابنك فن؟" أجاب طارق وهو يضع ملعقةً من البوظة بين شفتين: أتدري ماذا قال بيكاسو؟ أرهن حياتي لأرسم كطفلٍ؟. كنت أحب طارق جداً، فهو خالٍ من عيوب طبقته. بدأ حياته كبائعٍ للمطابع الحجرية يطرق الأبواب، ماضٍ متواضع يذكره طوعاً لأنه كان يعلم أنه جزءٌ من حكايته.

سمحت زوجة مصرفي لنفسها أن تقول: هل تفهم ما قد يقول عن أعمال فلان أو بورن أو سي تومبلي[1] على سبيل المثال: ابني ذو الأربع سنوات قادرٌ على رسمها؟ بالحقيقة ربما تصعب أعمال بورن لأنه غير قادر على رسم خطوط مستقيمة"

ضحك الجميع أو تظاهروا، عدا باز لم تتفوّه بكلمة واكتفت بالشرب، قدحاً تلو قدح. كنت أراقبها وأخاف الأسوأ.

أجاب طارق: "إن كنت تقصدين القول إن وصمة الطفولة تلاحق جزءاً كبيراً من الفن الحديث فحقاً ما تقولين حتى إن جيف كوونس يرجع دائماً لهذه الفكرة، يقول إنه يتابع هذه اللحظة في حياتنا الخالية من الشكوك، تلك الفقرة التي لا نطلق فيها أحكاماً ونقبل العالم من حولنا، نعيش الأشياء كما هي ببساطة. كما أنه عرَّف الفن بشكلٍ راقٍ لي: "الفن هو هذا السعي الدأب لمحي القلق"

---

1 - إدوين پاركر ("سي" [على اسم "سيلون" الأصغر]) (٢٥ نيسان ١٩٢٨ – ٥ تموز ٢٠١١)، هو فنان، خطاط، رسام أمريكي شهير.

علا صوت تصفيق، تصفيقٌ بطيءٌ جداً. إنها باز. قالت: "أحسنت طارق". تباطأ إيقاع التصفيق حتى توقف تماماً مثل أرنبٍ في إحدى الإعلانات التي كنت أشاهدها في طفولتي الذي يتوقف عن قرع الطبل لأن البطارية انتهت.. ساد الصمت حول المائدة، حتى كأننا نمده غطاءً.

تابعت باز: "أحسنت طارق، جميل جداً ما أتيت على ذكره، لكنه مملٌّ بعض الشيء، هذه الكلمات اللطيفة عن فنان وهذه الأحاديث حول الفن، كل الناس يقولونها وكل الناس يخطئون بها. دعوا الفنانين بسلام، إن هذه الأحاديث تسيء لهم"

احتجّ أحد المدعوّين وهو تاجر الفاكهة المستوردة: "ولكن لماذا؟ هذا يلقي الضوء على نيّة الفنان مما يسمح بفهمه بشكلٍ أفضل... إنه لأمرٌ معقّدٌ جداً أن الفنانين اليوم يطلقون عناوين لأعمالهم، هل لاحظتم أن كل شيء "بدون عنوان" على الأقل توضح العناوين الغاية "عباد الشمس.. أو..

توقع طارق في التسعينات هبوب ريحٍ عاصفة وازدهار ظاهرة التصوير.

أضاف وهو يشذب ربطة عنقه وسترته: "لا يبحث الفنانون بالضرورة عن الوضوح. أتدرون، بالحقيقة باز محقة، ليس الفنان موضوع حديث. الفن يتحدّث عن نفسه، هل يرغب أحدكم بفنجانٍ من القهوة؟ أعشاب مغلية؟ فودكا؟ أرمنياك؟"

اعتقدت أننا سنخرج من هذا الحديث لكن الناشر أعقب: "أنا لست موافقاً، يمكننا الإحساس بعملٍ فني مباشرةً كأول قدحٍ من نبيذٍ شهي ثم نغوص في تاريخ النبيذ البلدي لنتعمق بعلاقته به ونتذوقه بشكلٍ أفضل.. عملك مثلاً يا سيدي...

قاطعته باز قائلة: لسنا نبيذ "جودر"! لسنا للتذوّق! لسنا مصنوعين من العنب!.

قهقهت لكن باز لم تكن ترغب بالضحك. تابعت: "الحديث حول فنانٍ قد يكون له آثارٌ خطيرة عليه، قد يضعه في بابٍ خاطئ كما يشعر هو به، قد يجعل منه محتالاً"

انتفض طارق وقال: "ماذا تقصدين، باز؟"، عند طرف الطاولة أنا من لم أكن أرغب بالضحك، ترى هل ستفضح سرّنا؟

لم ينهض الناشر وتابع حديثه من النقطة التي قاطعته بها:

"ولكن عملك، سيدتي العزيزة، أجد فيه عملاً على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية خاصة حين نعلم أنه لا يتوقف عند كونه تصوير الشواطئ بل يعني نوعاً من حنينٍ يساورك، حنين للعصور الذهبية حيث كانت المتعة تقوم بوجودنا معاً. إنني أجد هذا شيّقاً ويساعدني على فهم صورك حين أقرأ فيها أن هذه الإنسانية بملابس السباحة هي إشارةٌ لأسطورة العطلة المأجورة وحلم مساواة ورهانٌ حول إمكانية وجود مستقبل مشترك...".

جمدت باز في مكانها وتلألأ قدح النبيذ مقبلاً ثغرها ثم قالت: "إلا إذا كان المعنى هو العكس تماماً"

- العكس؟

- نعم، العكس. أنا أكره هذه الشواطئ وتلك الأجساد المتمددة والمرغة على الرمال والصخور وفي المحيط وفي الطبيعة ككل. هذه السمنة الظاهرة تثير قرفي وصخب القذر الذي يرافق دهن الكريمات الواقية للشمس، وصراخ بائعي السكريات المنتفخة بالزيت والتي تذكّر البطون بالمزيد من الامتلاء، إن الشاطئ مثير للاشمئزاز.".

تسمَّرت ملامح المدعوّين بطوفٍ من الذهول. ابتلعت زوجة المصرفي لعابها مطرقةً فهي من اشترت عدة صور لباز.

قال طارق مبتسماً: ماذا لو توقفنا عند هذا الحد، باز..؟

تابعت دون أن تصغي إليه وهي تمسك سكيناً أشارت بطرفه إليّ:

"ولكن لو لم يكتب هذا السيد في صحيفته أنني أمجّد الحياة، ربما كان أحدهم ليفهم هذه الإنسانية التي جمّدتها بشكلٍ تصويري لأنني رغبت في أن أحجر هذا المشهد من الإنسانية للأبد بل أن أضعه في قالبٍ زجاجي لئلا يكون سوى ذكرى سيئة نضعها في علبة أحذية أو نرميها في العليّة..".

تملكني الغضب وشعرت أنني أداس بالأقدام.

رمت جملة أخيرة للناشر: "هل سيساعدك هذا في تعميق تقريرك عن العمل"؟

أجاب بهدوء: دون شك وتلذّذ بهذه اللحظة المسرحية وبانتصاره الصغير على الفنانة الصاعدة وانتصاره الذي لا يمكن له أن يعتنقه. انتصارٌ دوّى حين استدار نحوي وقال: "حقاً أنك كتبت شيئاً معاكساً..."

أجبت بنفس البعد المتواري كلياً: أضلّني العنوان "متعة الوجود" في حين أنني لم أدرك السخرية.

"يا لربطات عنقي السيئة". قال طارق ليختم الحديث ثم جرى الحديث حول موضوع آخر.

كان طريق العودة عنيفاً، خرجت عن طوري وتملكني حنقٌ حزينٌ قلت لها في سيارة الأجرة:

"لماذا أحرجتني هكذا؟ أترغبين في أن أبدو أحمق، رجلاً لا يفقه شيئاً؟"

- حسناً، هل راق لتفاخرك بالنقد..؟

كانت في نبرتها وقاحةٌ مزعجة، حتى أنها لم تتكبّد عناء أن تحدق بي.

- أنا لست بناقد أيتها العاهرة! اعتذرت لك ذات مرة، كانت الطريقة التي رأيت بها عملك...

- أسأت الرؤية..

لم تتكلّف عناء النظر إليَّ بعد. شعرت بنبض الدم مؤلماً في صدغي، كنت أستشيط غضباً، لكن لم يكن أمامي أي هامش للمناورة، هل أنزل من السيارة؟

مضحك، اصمت؟ إنها الطريقة الأفضل، لم أتمكن من كبح جماحي.

- ولكن من تظنين نفسك باز؟ من تظنين نفسك؟

ظلّت ملتصقةً بالنافذة اليمينية تتأمّل باريس. تنزلق أضواء السيارات التي تعبر بالجهة الأخرى على وجهها الجامد كريشة.

- هاك، الفنانة الكبيرة والناقد البائس... ألم يعد عليك خطئي بالنفع؟

كان صوتي ضعيفاً، تأخرت كثيراً، استدارت وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامةٌ ساخرة.

- ستأتي على ذكر المال؟ يا للأناقة...

كنت ملتزماً، فتابعت:

- لماذا؟ وهل صار المال وسخاً الآن؟ أما سميته شروط استقلاليتك؟ أجرة "الاستوديو" الجديد، كما تقولين، كيف تدفعينها؟

انخفضتُ أكثر فأكثر حتى لامست العذاب بينما كانت السيارة ترتقي بجرأة جانب مونت مارت أو مونس مارتورم أي جبل الشهداء. كنت

ممتعضاً لأنها لم تدعني بعد لزيارة هذه الورشة الجديدة. نزلت هي أولاً، لسخرية القدر أو يا لسخرية الموقف، لم يكن بحوزتي مال ولم يكن في التكسي جهاز للبطاقة الزرقاء، فاضطررت للذهاب إلى البنك.

لدى عودتي، كانت نافذة غرفة الاستقبال مفتوحةً على الأشجار، تصدح داليدا، وهي تدخن. رأيتها من الخلف، استدارت حين سمعت صوتي والدمعة تسيل على وجنتيها.

إنها رائعة الجمال بهذا الأنف الصغير المدوّر وفمها الممتلئ المرتجف والذي لم أحاول مناقشته حتى. كنت الشرطي الذي استسلم للإرهابي، قلت: عفواً...

كان طارق محقاً بالجدال. بعد مضي أسبوع، هبطنا في مطار ماركو-بولو. أظن أنها أرادت الاعتذار من طارق الذي وعدها بألا يأتي أبداً على ذكر "المحتال".. ففي الفن تعد هذه الكلمة نيتروغليسيرين[1].

أنتظرُ أن تصبحَ بالسادسة أو ربما بالخامسة لأعلمك أنك حين تهبط من الطائرة وتركب إحدى قواربها الآلية التي تحملك كبساط الريح، ارفع رأسك في ريح البحيرة بعد أن تفتح المزلاق الخلفي للسطح لتكتشف هناك في الخلف ذاك الخط من قبب الأجراس والقصور التي تطفو على وجه الماء كعرائس النيل فتقتحم بعداً آخر. لا يجب وجود مدينة تطفو على الماء أو على الأقل في الحكايات التي أرويها لك، يا صغيري، لتغفو، وفي هذه الحالة لماذا لا نبحث عن مدينةٍ في الغيوم كما في "جاك وحبة الفاصولياء العجيبة"؟

1 - النيتروغليسيرين: هو زيت عديم اللون شديد التفجّر.

كنّا إذاً في فينيسيا وافتتح معرض لابينال أبوابه، ارتفع مستوىٰ الحماسة في عالم الفن الصغير، افتتح صرحٌ فنّيٌ معاصر في متحف ديلا.

أحد أجمل الأماكن في فينيسيا حيث تغلق المدينة فيض القناة الكبرىٰ كصدرِ السفينة، إنه ليس بحافةٍ بل برج مراقبة سيرينيسم، خمسة آلاف متر مكعب مثلثة الشكل منتصبة تخطيطياً عند مشارف حي دورسودورو.

خلال عصورٍ خلت، كانت تمرُّ السفن القادمة من الشرق وأنحاء أوروبا لتفرغ حمولتها من البضائع الثمينة هنا: الحرير والمهيير من سوريا، مرجان من الإسكندرية، بهار وكاري والزعفران من إيران بحمرته الشديدة كالدم المجفف والمسحوق كالبودرة مخصص لمصاصي الدماء في رحلةٍ طويلة. هنا في دوجانا تدفع ضرائب هذه المنتجات الأسطورية لتحمل فيما بعد عبر طوافات إلىٰ الطرف الآخر من المبنىٰ نحو القناة الكبرىٰ ووسط المدينة فينثر في عيون وأنوف ومعدات سكان فينيسيا أحلام يقظة ومتعاً مُتبّلة دائماً.

تمتد علىٰ طول "الدوان" أجمل مناظر فينيسيا كموسٍ تفتح ذيول معطفها لتتعرّىٰ علىٰ علوٍ يزيد علىٰ ثلاثمئة درجة. إلىٰ اليسار سان مارك وقصر دوج إلىٰ اليمين، لاجيوديكا وجزيرة سان جورجيو.

بالكاد كان الوقت يسعفنا لنغيّر ملابسنا. غفونا هناك بالمقابل علىٰ تلك الجزيرة "جوديكا" وكأنها راقدةٌ باسترخاء تحت الجزر الأخرىٰ. تطلُّ غرفتنا في ديرٍ قديمٍ علىٰ حديقة مزروعةٍ بالورد الجوري وعلىٰ أفق بصلي في فينيسيا التي تضيء مع الشفق بأنوارٍ ذهبية. كنت أرتدي بزتي السوداء وأنا أفكّر بجواب كازنوفا لبومبادور الذي سأله: "فينيسيا؟ هل أنت حقاً من هناك؟ - فينيسيا ليست هناك بل في الأعالي.. مدينة تطفو علىٰ الماء ولكنها تسبح في الغيوم في النهاية...

توافد المدعوون بقوارب من الأكاجو التي تبدو أنها تأمر الصمت حين تتباطأ لتدنو: صه.

كان هناك حشدٌ من الناس، رجال أعمال يتّصفون بالكمال ووزراء قدماء يتسارعون على البلاط العتيق الذي جرَّحته أحذيةُ جميلاتٍ من كينيا وروسيا بالكعب العالي. لا شيء يشوب باز إنها رائعة الجمال بفستانها من ماركة ميسوني الذي يكشف عن كتفيها الذهبيين. في الداخل صحن الكنيسة من الآجر الوردي وقماش رسم بولك ومكعب رائع من حيوانات اليحمور والثعالب التي حنطها عادل عبد الصمد، ضغط الحياة والطبيعة الميتة في ذيل الرسالة، كما قال الفنان: "لابد من ضرب الصورة دون حقدٍ، كما يفعل اللحام." هذا ما ذكره بودلير للملكة سونجا في النرويج.. عبرنا غرفةً معتمة حيث تغفو تحت الأجراس مدنٌ مستقبلية بوميضٍ متألّق. كنت كالطفل في هذه الزوبعة من السفاهة والحلم والإبداع والحرية التي تثبت نفسها في مواجهة ركود العالم.

في الطابق العلوي، تخترقك التماثيل المدفنية التسع الرخامية في كاتلان كرصاصةٍ في منتصف رأسك. رائع ومروّع: ارتجفت يدي في يد والدتك التي لم ترمش حتى. غياب ردّة فعلها أضاف سوء الفهم للضيق الذي ساورني.

لم تؤتِ بأي ردّة فعل حتى في الطابق الأول حين وقعنا تماماً أمام العمل صعب الفهم الذي قام به الإخوة Chapman Fucking Hell.

تشكل المنشأة ذات الواجهات التسع صليباً معقوفاً إذا ما نظرنا إليها من الأعلى. تسع واجهات أو بالأحرى تسع مرابي حيوانات تضمُّ رسماً منمنماً

يذكّر بالـديكورات التـي تبـاع في متـاجر القطـارات الكهربائيـة، هـضاب وأيكات ومنازل وجدران صغيرة وأنهار وبحيرات. الفرق أن كل شيء كان مدمراً أو مغطى بالرماد وكأن غيمة نووية عبرت من هنا. في هـذا الـديكور الكئيب يلعب الموت دوره: المئات والمئات مـن التماثيـل الـصغيرة بعلـوٍ لا يتجاوز ثلاثة سنتيمترات، هياكل عظميـة وجثـث زومبـي تعتمـر قبعـات ومزينـة بمـزقٍ مـن لبـاسٍ موحـدٍ سـلمت لتـدنيس ضـحاياهم. صـلب واستئصال وتقطيع أوصال وتقطيع رؤوس ورمي من النوافذ. كـان هنـاك من كل شيء في كل مكان على طول الأنهار تقطر الدماء، على بـلاط المنـازل المدمرة بالقذائف. تتحسس الخنازير بخياطيمها صدور الأجـساد مقطوعـة الرؤوس المفتوحة. تنقر النسور المشنوقين الذين يـدورون حـول إطـارات. عرس جيروم بوش وريتش الثالث وصندوق ألعاب رهيب... كلما تقـدمنا تناقص عدد الجنود البشر حيـث تحـل رؤوس الخنـازير محـل رؤوسـهم أو جماجم ذات حجاج عينين فارغ وعدة رؤوس تشبه العدار[1] تقتتل فيما بينها ليرتد العنف عليها وفق رقصة باليه متناغمة. في الواجهة الأخيرة أمام غابـة من الأجساد المطحونة. نصب رسامٌ من ليليبوت مرسمه، كم يـشبه وجهـه وجه هتلر.

يبتسم الأخوان شابان لدى رؤية المدعوين يسبحون في رعب خـلاب. وجه مدور ورأس حليق ونظرة ثاقبة وكأنهما سفاحان جاهزان للانقضاض على هذه المدينة المائية اللطيفة. اشتهرا لشرائهما بمئات ألوف اليورو رسـوماً

---

1 - العُدار: هو في أساطير اليونان حية عظيمة قتلها هرقل زعموا أنه كان لها تسعة رؤوس كلما قطع رأس منها نبت آخر.

لهتلر لوناها بألوان قوس قزح ليطلقا جدلاً عقيماً ما بين القدسية التاريخية والحرية الفنية. لقد كان هتلر وحشاً، فهل يجدر بنا احترام أعماله؟ سألتهما جامعةُ لوحاتٍ مشهورة وكأنها تسأل عن تحضير تارت بالتفاح: كم لزم من الوقت لتنفيذ هذه اللوحة؟ فأجابا: "ثلاث سنوات. في حين لم يلزم للجنود الألمان سوى ثلاث ساعات لذبح خمس عشرة ألف سجينٍ روسي على الجبهة الشرقية".

شرح وزير الثقافة السابق أن المنشأة تتحاور بشكلٍ ساخر مع عشرة آلاف صلبٍ على جبل أرارات في رسم كارباسيو المعلق على بعد عدة جسور من هنا على السكك الحديدية في الأكاديمية. نعم يا هكتور، كارباسيو يحمل نفس اسم شرائح لحم البقر الرقيقة المرشوشة بزيت زيتون والخل الشافي الذي تحب ويدعى هكذا نظراً للونه الذي يشبه الأحمر الدامي الذي يستخدمه الرب. حدثت والدتك عن هذا "الحوار" فتنهدت. سألتها: هل أنت على ما يرام؟

- أجابت: سئمت.

- فهمت... إنه حوارٌ رهيب.

انفجرت ضاحكةً بصوتٍ مدوٍ فاستدار الأخوان محتارين بردة فعلٍ غير اعتيادية أمام عملهما. اخترقت طوفان المدعوين،انطلقت للحاق بها لكن فات الأوان. أوقفني بعض المعارف ابتسمت لهم بصورة عابرة أو قلت "أراكم لاحقا" إذ عجزت أن أمر بجوارهم كأنهم أطياف.

وجدت نفسي في الخارج، أمام الرأس الشهير الذي يهز الهور المتماهي مع السماء في طرفه يقف صبيٌ ضخم، عارٍ من الجانب الخلفي، صبيٌ صغيرٌ

يبلغ طوله حوالي مترين وخمسين سنتيمتراً. أبيض البشرة وأملسها خلا تلك الحدبة الخاصة بالأطفال عند الكلى، مجذوب بـمادة التمثـال بـلا عارضـة وقدماه تلامسان البلاط الحجري مباشرة، يتلألأ نسيجه الأملس تحت أشعة الشمس. اقتربت وكان الطفل يلوح بضفدعٍ يبدو أنه اصطاده من ماء الهور. ضفدعٌ شنيعٌ ببشرةٍ محفرة تتناقض كلياً مع الانسيابية التي يحظى بها جسده. هذا الضفدع أو بالأحرى هذا العلجوم يبدو أنه يلوح بـه في وجـه المدينة، يشع الكبرياء من مقلتيه الفاترتين معتداً بذاته كسائر الصبية لـدى شعورهم بقدرتهم. كان له بطن صغير، وسيمٌ ومسالمٌ. بالكاد تمكنت من أن أشيح بناظري عن سِماه وجهه الصارم المشع بكل الإرادة المهيمنة على كـائنٍ بدأ ينفتح على العالم ويحسب كل إمكانياته.

تدافع المدعوون من حوله، كان يـدعى "الـصبي ذا الـضفدع" أمهـرت اللوحة بتوقيع "شارل راي". خلف الشاشة أزياءٌ سـوداء اللـون وفـساتين زاهية تجعل من النساء كالطيور البهية الغريبة بجوار أزواجهن البطـاريق (لم يفتني ذلك) التقيت بعصفورتي. كانت تجلس في الطـرف الأقـصى للـرأس وحذاؤها إلى جانبها، حافية القدمين عند زاوية القناة. اقتربت منهـا بهـدوء وانحنيت واضعاً يدي على كتفها، قلت: "ماذا يجري؟"

لم تلتفت إلي حتى لتجب: - هلا غادرنا؟

- بالكاد يتوافد الناس..

- ابقَ لو طاب لك"

تعلق ناظراها بالأفق خلف تلك اليخوت الراسية عنـد حطـام المبنـى. رسا الأوليغاركي إبراموفيتش بسفينة ريفا بلون الشوكولا بالحليب. يـشبه

كثيراً جيمس بوند في سيارته الصحراوية البنية محاطاً بخمس نساء، عشيقته ترتدي فستاناً رفيعاً.

- أخبريني ماذا يحدث؟

- أضافت بحزنٍ: الشيء نفسه دائماً.

- الشيء نفسه؟

- ما جرى عند طارق، لم أعد أطيق أحاديث الفن وذاك العنف المتواري خلف النظرات بأفواهٍ دائرية حين يلفظون "آآ.."

- إنك تكيلين اللوم علي؟

- أتظن؟

حُضرت مائدة أمام كنيسة سانتا ماريا ديلا سالوت. اتجهت باز نحوها فهرعت إليها ثلاث نساء بزي شانيل وقلن: "رأينا الشواطئ التي صورتها، إنك تمثلين الحياة على الأقل". حدجتني باز بنظرتها السوداء الثاقبة. كنت على وشك ان أضع يدي عليها حين انبثق رئيس مركز بومبيدو من بين الجموع ليقول: "سيزار يجب أن أعرفك بجيرارد ريتشارد".

إنه رسامٌ مشوق بيد أن راداري فقد باز. تتهافت الأحاديث حول مسامعي. الإشاعات الدائمة حول موريزيو كاتالان "هل سيعتزل الفن حقاً؟" طلب رجل أعمال من هذا الفنان الأكثر شهرة في عصره ضريحاً فاقترح له أن ينقش عبارة "لماذا أنا؟". قال جامع لوحات يشد أزر فنانةٍ فرنسيةٍ شابة: أدركت تاتيانا تروفي "بمعنى وجدت" جوهر صرح الجمارك في فينيسيا وكم بحث عنه الآخرون فأضاف آخر مقهقهاً: لكنها وجدته.؟

أطلق مهرجان "البينال" أصداءه الأولى، نُصب في منزل جيبيتو الخاص بلوريس غريود نحتٌ لحوت العنبر يبلغ طوله سبعة عشر متراً مصبوب وفق وصف "موبي ديك" لميلفيل، جانحه قرب حوض أرسنال. أُنتقدت منشأة كريستيان بولتانسكي في المنزل الفرنسي. الفنان الذي باع حياته لحياة مليارديرتسماني عرض فيها مواليد جدداً تشكل رقم ٨ في دوار هائل في حين يدق ناقوس الساعة في الزمن الواقعي عدد الوفيات في العالم. كم أحب هستيريا الموت عند بولتانسكي. قال لي ذات يوم: إن الفن مدعاة للسخرية فهو لا يمكنه فعل شيء حيال غيابنا. كان لديه مشروع جمع على إحدى الجزر في بحر اليابان آلاف تسجيلات دقات قلوب. ما يكفي من الصور الصوتية. عهدت بدقات قلبي لسماعة طالبة فنون تنكرت بثياب ممرضة. قلت في سري إن باستطاعتك أن تسافر إلى تلك الجزيرة حين تفارقني الحياة لتسمع ذاك الصوت المألوف الذي هدهد حين كنت أضع رأسك على صدري لتخلد للنوم وأنا أمسد شعرك.

بحثت عن باز قلقت عليها. أنا من ألححت على مجيئها، فاتني ما تلحق مثل هذه التجمعات من ويلاتٍ في حب الفنان لذاته. كان هناك المبدعون الأكثر شهرة في العالم. مهما كان من يقف بحذاء هؤلاء العمالقة سيشعر أنه تقهقر لمرتبة هاوٍ. حتى باز رغم أن هيئة البينال اختارتها من بين آلاف الفنانين لمعرضٍ ستفتتحه "لاسين دو تينتوري"! حتى ولو أن باز لها قيمتها - كنت أرى ذلك في عيون الناس عندما تمر أمامهم وفي حركة شفاههم. هذا التوتر تجب مواجهته هنا مربط الفرس. علي أن أعتني بها وأدرع ضعفها، لكن جوالها يرن في الفراغ.

حاولت قتل الوقت لكنه قتلني. لم يكن للحياة أية نكهة إن لم أعش معها. همت في حدائق البينال. تم افتتاح المعرض الدولي. رأيت الشواطئ التي صورتها باز معلقة جانب صورة شخصية لمهرج سيدني شيرمان ونيون بروس نومان. كم كنت فخوراً بها.

كنت احتضر على مقعد مخيم سانتا مارغريتا عندما اتصلت أخيراً.

قالت: "لم أشأ أن أزعجك، بدا لي أن لديك الكثير لتفعله مع أصدقائك في المتاحف"

- متاحف تعرض لك حبيبتي... وتعشقك. كفي عن التصرف وكأن لا أحد يحبك. هذا حقٌّ لك ولكن اسمحي لي ألا أكون مغفلاً. سأقترح شيئاً ما: أن نكف عن التمنطق. أنت تعلمين أن ما يستهويني في مثل هذه المناسبات هو فقط أن أكون معك وأرى نظرات الناس لك، هذه هي متعتي.

- ليست متعتي. كنت بحاجة لأعطي الأوكسجين لعقلي.

- أين أنت الآن؟

- غادرت سان جيورجيو ماجيور.

- سأنتظرك عند "لافوف".

❖ ❖

طلبت كأساً من النبيذ الأحمر.

- ماذا كنت تفعلين في سان جيورجيو ماجيور.

- التقيت سان جورج.

- شخصياً؟

ابتسمت ورفعت كأسها إلى شفاهها. روت لي بشكلٍ ملحمي ارتباكها في الجزيرة، والإطلالة الخلابة على فينيسيا من برج الأجراس والبرد الثلجي في الكنيسة وتناقض العلب المعدنية التي تنتظر منك قطعاً مالية تسمح للإضاءة بالعمل لإنارة لوحات عصر النهضة وفي الختام روت لقاءها مع الكاهن العجوز الذي اصطحبها عبر بابٍ خفي وأدراجٍ صغيرة في قاعةٍ انتخب فيها بابا ويشع منها القديس جورج وهو يجهز على تنين كارباكسيو. "ذاك الدم الأحمر على الرمح وصلابة الفارسي المشدود بدرعٍ من الحشرات والعظام المتناثرة على الأرض..." لم تعد قسوة الناس قيد البرهان منذ الإعدامات الهائلة في عصر الرعب حيث كن يتصارعن ليكن في المرتبة الأولى. تلك اللوحة هي مجرد نسخة لكنني لم أتفوه بكلمة مصمماً على أن أكون متفقاً معها. "هاك أنظر" أخرجت Canon 5D الذي تستخدمه لاكتشافاتها وأرتني الصور التي التقطتها، صور اللوحة وإطلالة الكنيسة ثم وبشكلٍ مفاجئ صورة "للطفل والضفدع" منتصباً كمرصدٍ عند طرف الدوغانا.

- و ما هذا؟

أطفأت الجهاز فوراً. فأضفت قائلاً:

- اكتشفت أنك لا ترفضين كل الفن المعاصر.

- ليس الأمر سيان بالنسبة له، هو.

- من هو؟ هل تعرفين الفنان؟

- أعني الطفل.

- اسمه "الطفل والضفدع Boy With Frog" لشارل راي. ذكرى لدوناتيلو. حوارٌ عبر العصر مثل الأخوين شامبان وعزيزك كارباسيكو.

- كفى إنك تعكر كل شيء بتعليقاتك.

أصبت بالصميم فقاومت لأحافظ على هدوئي رغم الكحول الذي كان يقرع في دماغي.

- آه! نعم أتُعكّر معرفة أسماء الأعمال كل شيء؟

رمتني بنظرةٍ كالصاروخ: "لا تعنيني المعرفة أبداً أريد أن أشعر!"

التفت بعض الزبائن إلينا، أمسكت يدها لأهدئ من روعها.

قالت: دعني. تتكلم وتتكلم وتبسط علمك بالماضي ومراجعك لعصورٍ عظيمة. ألا تلاحظ ما تقول: تقدم لي كل ما هو جديد كحوارٍ مع الماضي.

- هدئي من روعك.

- ولماذا؟ لماذا علي أن أهدأ؟ لأنك تتيح لي الفرصة لأقول لك ما أفكر بكل هذا، بكل هذا الضجر! أوروبا تتقهقر سيزار. أوروبا تتقهقر لأنها مغلفة بالماضي مثل "موسكا". لا أرغب في أن أعيش تحت جرس. لا أريد أن أعيش في عبادة الماضي. تركت إسبانيا لهذا السبب بالذات.. التراث وعظمة الماضي وعصر النهضة...

- وماذا عن هذا الوشم، إذاً؟

- ما فهمت شيئاً أبداً. إن الوشم على مؤخرتي هل تعلم لماذا؟ لأنني أجلس عليها، أفهمت! أريد أن أقول لك: إن الماضي يطبق على أنفاسي. هذا الطفل الذي رأيته والذي التقطت له صورة، حسناً إنه يعجبني. إنه يعبر عن قوة، إنه يعبر عن عنف. وها أنت تكلمني عن دوناتيلو... إنك تمنعني من الإحساس، سيزار. تقحم في رأسي أن هذا التمثال ما هو سوى نفحة من الماضي. تبرهن لي مرة أخرى أن أوروبا لا تنتج شيئاً جديداً..."

توقفت لبرهة قبل أن تنطق جملة من الغباء ما أخرجني عن طوري..

- من حسن الحظ أن هناك إرهابيين..

- ماذا تروين؟

- سمعتني جيداً. من حسن الحظ أن هناك الإرهابيين.

- أفضل ألا أسمع هذا.

صعقتني عيناها السوداوتان. "لن تسمعني فحسب بل ستفهم ما أريد أن أقول. إنهم يبثون الخوف في هذا العالم القطني ويوقظهم قليلاً.

- فلتقولي هذا الكلام لأهالي ضحايا أحداث ١١ أيلول ومحطة أتوشا.

صمتت ثم نطقت: - سهلٌ للغاية.........

- سهل؟ ليس من السهل الخروج من أمور هائلة كما تفعلين بثقةٍ غير لائقة؟

كدت أخرج عن طوري، شعرت هي بذلك. دون أن تفهم حقاً لماذا لأنها لم تكن تعرف.

- أعني الطاقة، الطاقة التي لم تعد موجودة والتي جعلت أوروبا خاوية.

- لم تغادر أوروبا قط لذا أنتِ لا تعرفين عما تتحدثين.

- إنه خطؤك.

شحب لوني فكررتْ مستمتعةً بانتصارها القادم.

- انقضت أشهر وأنا أطلب منك اصطحابي خارج أوروبا وأنت ترفض. هل يفترض أن يفجروا المتاحف حتى تقتنع بالخروج من أوربتك العجوز؟ هذه المدينة، البندقية، لا تثير سأمي فحسب سيزار، بل تبث فيّ

الخوف. ما هي سوى واجهة معروضات بل قبر. الميتة الحية. ما زلت صغيرة بالعمر جداً لأحيا مع الأموات الأحياء.

جردتني من أسلحتي. قلت "اخرسي" وأنا أخبط بقبضتي على الطاولة. اتجه النادل نحونا:

- هل من مشكلة، سيدي؟

- ما من مشكلة، شكراً.

- إذاً، هدّئ من روعك لو سمحت إنك تقلق الزبائن.

- هلا التفتَّ لمطبخك.

نظرت باز إلي بفضول ورمت كلماتها بقناعةٍ مبالغٍ بها: آه! ردة فعل أخيراً!

رمقتها بغضب وقلت: أنت لا تعرفين شيئاً في هذا العالم. تتحدثين من دون علم وبعنجهية، عاهرة، عنجهية..

- أحاول أن أوقظك فحسب. ماذا ستفعل الآن بأوربتك؟ قلعة؟ تنتخب الناس من يستطيع دخولها ومن عليهم البقاء خارجاً؟ هل ستصنع هجرة مختارة؟

- كفي عن الترهات. لم تفهمي شيئاً. ليس هناك جدران بل لا أحب الجدران... أرحب بالجميع.

- حسناً، آمل ذلك فلربما لست أوروبية حتى! ولربما لست بإسبانيةٍ! هناك أكرادٌ في عائلتي!

- لا يهمني، باز حسناً! أنا لا أراقب نسب أحد! فليأتِ كل الناس هذا أفضل! أما أنا، أنا لا أريد الخروج هل تفهمين الفرق؟ أنا من قررت ألا

أغادر أوروبا، هل تفهمين ذلك؟ لأنني أجدها جميلةً ولأنني أشعر بأنني بحالةٍ جيدة ولأنني أرىٰ ما بين أيدينا واعرف ماذا يوجد هناك وهو ما لا أرغب به أتفهمين ذلك؟

- نعم، فهمت: سيد انطوائي، سيد حلزون...

لم أعد أرغب بأن تثار أعصابي. أخرجت هاتفي من جيبي وأريتها الإيميل الذي أرسله لي منذ أسبوع صديقي جيل الذي أصبح موظفاً في أحد بنوك الخليج الفارسي: "العالم يتوقد من حولي سيتم اختصار فريقنا إلى الثلث بدءاً من آذار وتسكب *البنوك المال بالقطارة، والسلفيون* يصنعون كرتوناً في مصر كما تطلق الشرطة النار على الأطفال في المنامة واليمن تندلع فيها النيران. الاقتصاد الصيني يصاب بالصدأ وممالك الخليج تشد الأحزمة إذاً وبعد كل هذا إن كنت على قيد الحياة ولديك عمل وزوجة وطفل فأنت سعيد ولا بد أن "تدق الخشب". سلام يا صاحِ"

أعادت لي الجهاز تهز بكتفيها وتقول: "أتردد ما بين أن يكون هذا حكمة عاقل أو مخاوف رجل أعمال...

- أنت حمقاء للغاية أو مدللة جداً.

نهضت وتركت المطعم.

مشيتُ ومشيتُ وما توقفت إلا لأشرب في هذه المدينة حيث ترن آلاف الأعياد. يصدح بعض الوضعاء من القصور التي أتت عليها المياه السوداء وما زالت منتصبة على تلك الحجارة العتيقة التي تعرف كل شيء، مليئة بالمرايا التي شهدت كل شيء. أعدت التفكير مجدداً بكلامها. البندقية، قبر؟

جعبةٌ للماضي بالأحرى. الصندوق العائم بالجمال. ما يكفي من اللوحات واللوحات الجدارية والملائكة المحلقة وصعود المسيح بألوان حارة التي شكلت سعادتي لآلاف السنين. الخوف؟ ولكن كيف ينتابنا الخوف هنا؟ إنها نقيض الخوف. الخوف من حولها. في هذه الأصقاع البعيدة حيث تتفجر شهادات الماضي دون جدل.

كان يناديني. كنت أراه يلمع تحت القمر. انضممت إليه، ذاك الطفل الضخم الذي ترك فيّ هذا الانطباع القوي وفي نفس باز أيضاً بجلاءٍ. كنت على بعد عدة أمتار حين اكتشفت أنه وضع في قفص. أسير، نعم، الطفل الصغير، أسير في قفصٍ من الزجاج على الأرض وعليه أربعة أقفال. محروم من مداعبة الرياح والنجوم، الطفل المتوحش والضفدع يسهر على مراقبته شرطيان بزي موحد.

كيف أقول لك، يا هكتور؟ ستجدني مضحكاً لكن سجن هذا الطفل أحزنني وحرّض ذكريات كنت أؤثر الهرب منها، تلك الذكريات الشهيرة التي ما رغبت قط في ذكرها لوالدتك. ذكريات خارج أوروبا، شرح اعتزالي. لماذا تحرضت تلك الذكريات؟ لأنني بقيت ذاك الطفل الصغير الراغب باكتشاف العالم والإمكانيات التي يتيحها بفرح إلى حدوث ذلكم الحدثين.

هبوب تسونامي في حياتي

يا بني، ما كنت هكذا أبداً. كنت كالبدو الرحل، تعرفت على العالم. بدافع تعطشي للغرائب أمضيت مرحلة الدراسة كالحمام الزاجل ثم للخدمة الأكثر سخفاً في المؤسسة التي وظفتني ككاتب للتقارير لسنوات. بعيداً، بعيداً جداً عن حدود أوروبا. وإن كنت اليوم قد عزمت على ألا أبرح المكان فلأنني أعلم بالضبط ماذا يوجد خلف تلك الحدود والحياة ثمينةٌ جداً وقصيرةٌ جداً للعودة إلى هناك.

هزني حدثان، الأول كان واقعةً طبيعية. لم تسمع بعد عن تسونامي ٢٠٠٤. إنها المرة الأولى منذ زمنٍ بعيد، تذكر الطبيعة الغرب بنفسها بطريقةٍ مدمرة. أجل، عهدوا العواصف والفيضانات بيد أنها نادراً ما تودي بحياة أناسٍ. تتمخض الطبيعة عن رؤى حقيقية فقدوا ذكراها بل كانت حكراً على الشعوب البعيدة، على أولئك الناس الفقراء ذوي البشرة السوداء حفاة الأقدام من لا يرغب سكان الغرب في التشبه بهم. حين أتى تسونامي على أقرانهم قذف دون هوادة ذاك الشيء المقدس الذي يسمونه "عطلة" وكأن كل اليقين الذي عاشوه يتطاير شظايا. إلى ذاك الحين ولم يكن أحد يعرف تسونامي سوى بالرسم أو بالأحرى ختم عند "هوكوساي". تطاول لسان ماء على الضفاف المزركشة بالزبد وابتلع قارب صيادين وبقيت الصورة شعرية وحفرية.

تسونامي ٢٠٠٤ كان مختلفاً بقدر ما هو واقعي: اعتداء مائي حقيقي هاجم سياحة سكان الغرب. كان هدّاماً عنيفاً بل منحرفاً لدرجة أنه ضرب

قلب المكان الذي يعتبره سكان الغرب جنتهم. فوكيه، النخيل والمياه البلورية والمساجات والحياة الليلية المحمومة والرخيصة. معكرونة النوي الشهية مع القريدس. القريدس الشهي بمعكرونة النوي. اعتذر عن هذه السوقية ولكنها في مكانها المناسب.

ضربت موجة الموت في الساعة ٥٨:٠٠ بتوقيت غرينتش وخلفت عشرات الآلاف من الضحايا وعشرات الآلاف من المفقودين. ما إن أعلنت هذه الأرقام حتى حجزت لي الشركة مكاناً في أول رحلة. هبطت وسط مجموعات المنقذين بأزيائهم المشعة الموحدة، قادمين من أصقاع العالم ليمدوا يد العون للسكان المحليين الغارقين بركام الجثث والأكوام المطالبة بالجثث. أطفالٌ جنّوا من ألم فقدان الأخبار عن أهاليهم وأهل انهاروا من قلق ألا تصلهم أخبار عن أطفالهم. مدينة بحالةِ صدمة، ضيقٌ ينتشر بالشوارع بسرعة تفوق الطاعون. تحولت بلدية فوكيه ل QG من الذعر. قَسَّم توجه المنظمة التايلاندي الرائع كل قطعة من البناء حسب جنسية المفقودين. لكل بلد المكتب الصغير الخاص به مع موظف السفارة العاجز كلياً عن بث الطمأنينة في نفوس العائلات بل العاجز حتى عن السيطرة على رعبه أمام تلك الوجوه الملتوية بالانتظار والدموع. اللوحات كانت الشيء الأكثر قبحاً. عرضت شاشات كبيرة من الخشب الأبيض صور الضحايا الذين تم العثور على رفاتهم. مئات من الوجوه المتآكلة مثل "الفوتومان" تنتظر أن يعيدوا لها الاسم الذي حملته وهي حية. ومع ذلك، لم يكن كل هذا سوى غرفة الانتظار قبل الغثيان الحقيقي. رغبت الشركة في أن أذهب إلى "خاو لاك" وهي منطقة جغرافية تطيب فيها المغامرة وأشجار المانغو لكنها منذ ذلك الحين اقترنت بالفظاعة. تنتصب "خاو لاك" كفندق

الأحلام وفي "خاو لاك" ضربت الموجة بعنفٍ مباغـت. تـشاطرت العربـة مع صحفيين ألمانيين والمصور المرافق لي. كلـما تقـدمنا تغـير المنظـر، راودني انطباع أنني أطأ ساحة حرب. قاربٌ مرمي فوق قمة شجرة ومنزلٌ مقلوبٌ على سطحه. تبدو الأرض مغطاة بالبقايا ترى هل تحطمت الأشـجار تحـت الضغط؟ طرأ تغييرٌ على الرائحة أيضاً حلـت رائحـةٌ مقـززة لجلـدٍ مـشوي وعفونة محل الدخان الذي تنفثه العربات.

توقفت السيارة أمام مدخل الفندق، عبرنا الشبك عـلى الأقـدام دون أن نتفوه بكلمة، بالكاد نلتقط أنفاسنا مـن هـول مـا نكتـشف. لم يطـل الأذى المبنى الرئيسي ذا سطحٍ لمعبدٍ بوذي لكنه طال كل ما حوله. بدا المشهد كأنـه زجاجي، يوصل درج في الصرح إلى المبنى. في الأعـلى بـدت الكارثـة بكـل أبعادها.

كنا نطل على مسبحٍ واسعٍ محاط بأبنيةٍ جميلة من ثلاثـة طوابـق مـصفوفة بجانب بعضها بعضاً على شكل U. كان المسبح فارغاً وبلاطه المربع ملطخاً بالطين ومزروعاً بقطعٍ معدنية مبعثرة مختلفة. أما الأبنية الصغيرة فتلقي على الكل انطباع مدينة الأشباح فليس هناك أدنى ضجيج خلا صـوت الـستائر المرفرفة بقوة الريح التي تهب من النوافذ المتفجرة. تركت أصحابي وولجـت الأبنية الصغيرة حيث يرتـسم الهـول. عـلى ارتفـاع طـابقين، أثـاث مكـسر وجدرانٌ ملطخة بالطين ولوحاتٌ ممزقة إرباً، يعبق المكان برائحـة الرطوبـة الواخزة. أما الطابق الثالث فلم يلحق بـه الأذى. دفعـت البـاب ودخلـت لغرفةٍ بِكر، بكرٍ مرتين فلم يشغلها شخصٌ قط. وجـدت الدعايـة الخاصـة بالفندق على المكتب حيث تفوح رائحة الشموع، وُضِعَ أكليلٌ مـن الخبيـزة على الفراش الملكي ترحيباً. جلست لألتقط أنفاسي فتناهى صوت شهقاتٍ

من الغرفة المجاورة، قرعت الباب فصمت البكاء. فتحت الباب بلطفٍ لأجد في الداخل رجلاً جاثياً وبجواره يقف طفلٌ يحدق بي وبالكاد يبلغ الثالثة من العمر. خلافاً للغرفة تلك فإن هذه شهدت سكاناً لها. هناك حقيبةٌ مفتوحة أمام الرجل. سألته إن كان بوسعي فعل شيء ما.

قفز واستدار نحوي بوجهٍ منهك بالدموع ثم سألني: "هل أنت منقذ؟"

لم تسعفني الكلمات لأجيبه وخجلت أن أقول له "صحفي". اعتبر صمتي تأكيداً. تابع: "أبحث عن زوجتي". ليضيف بعد أقل من لحظة: "والدته"

ناولني صورتها، إنها شابةٌ ترتدي زياً صيفياً، شقراء وبشرتها سمراء وفي شعرها زهرةٌ.

- "كنا قد وصلنا للتو ونتناول طعام الفطور..."

خرجت لتلتقط صورة. بقي الرجل مع الطفل وحين ضربت الموجة منحته جدران المطعم مهلةً ليأخذه في أحضانه ويعتلي شجرة نخيل. ليتضافر الوهم والمأساة بآنٍ واحدٍ.

تابع البحث في الحقيبة المفتوحة أمامه. "عمّ تبحث؟" - "عن فرشاة شعره؟"

اعتبرته مجنوناً، همهم في قمة حيرتي: "لست بمنقذٍ..."

لم يكن لدي الشجاعة الكافية لأكذبه. لم يؤتِ بردة فعلٍ سيئة في هول ذهولي.

- من أجل DNA يلزمنا شعر أو قصاصة أظافر. للتحقق من الجثث فهي بحالة سيئةٍ جداً.

تحدق بي عينا الطفل البامبي. شعرت بالغثيان. هذه الحياة المرتعدة هنا أشد ضيقاً من الجثث.

قلت: لو بوسعي أن أعود عليك بالنفع.

ناولته بطاقتي فأمسك بها بلطفٍ وتأملها بشيءٍ من الانتباه ثم أردف قائلاً: "كلا، شكراً لك"

أغلقت الباب. وجدت زميلي قرب الشاطئ بمحاذاة حفرة مفتوحة يتجمع فوقها عشرات الإطفائيين، تعمل المضخة لإفراغ الحفرة من المياه الآسنة التي تسيل منها ساقيةً نحو البحر. ارتفعت الحرارة في الجو وسال العرق تحت القبعات ليغسل الوجوه. بعلو عشرة أمتار أناس قرب جبين الرمل الذهبي الضيق، البحر أزرق خلاب بهدوءٍ يحيل الوضع أكثر شذوذاً وخطئ الناس أكثر تشوهاً.

فسر لي المصور أنهم بعد أن أخلو سكان الفندق، انحسرت الموجة لتقذف النزلاء بالاتجاه المعاكس وعلق بعضهم في أنابيب وفتحات التهوية، وهم يحاولون الآن استردادها عبر الحفرة. انتشرت ضجة بالتايلندي ما بين رجال الإطفاء.

رأيت يداً تخرج ثم بقية الجسد. جسد هائل ومنتفخ، جسد أسود وأخضر. بدأ المصور بالتقاط الصور. أخرج الإطفائيون التايلانديون الجسد ووضعوه على البلاط. تأملته بتفحص ولن أنسى أبداً هذه الصورة. صورة جسد إنسان غدا سميناً جداً بسبب الماء فيتوسع الجلد نافخاً زي السباحة لتبدو الخفايا. ووجهٍ كأنه مضروب بالمطرقة.

إنها المرة الأولى التي اعرف فيها رائحة الموت وأرى فيها فاهه. هذا الجسد كاد يكون جسد صديق أو قريب. جسدك أو جسد والدتك. لكنه لم

يكن كذلك، ما واساني بأنانيةٍ مطلقة. شحت بناظريَّ عن هذا المشهد المروع الذي لا يخصني وبعثرتهما على البحر باسطاً سيادته بحبورٍ كلقطةٍ في بطاقةٍ بريدية.

عدت أدراجي نحو المخرج. حاذيت المنازل حيث تموج الستائر بين يدي الريح الحارة هاربةً من النوافذ المحطمة. عند الاستقبال أو ما بقي منه، وقعت على مصنفٍ أخضر ملطخٍ بالطين. في الداخل، صور موظفي الفندق. موظفي الفندق الشبح.

استدرت لأعرف مصدر صوتٍ خافقٍ وكأن هناك من يرمي حجارة بفتراتٍ منتظمة وإذا بي أجد على بعد ثلاثين متراً الرجل الذي كان يبحث عن شعر زوجته، يمسك بيد ابنه وباليد الأخرى حقيبته التي تدحرجت على الأنقاض.

على طول الطريق الواصل إلى "فوكيه"، عشرات الجثث الضاربة للخضرة تبدو نائمةً تحت خيم "Enjoy Coca-Cola". يجدر بي في كل مرةٍ أصادف فيها منقذين أن أكشف النقاب عن هويتي. لعل هيئتي المذهولة تجعلهم يخالون أني ابن أو أخ أتى للبحث عن قريبٍ مفقود. يعرض عليَّ بعض الأخصائيين النفسيين العون، فأجيب: "شكراً، أنا صحفي". يشيح البعض بناظريه قرفاً خلافاً لآخرين يرغبون بالتحدث إليّ ومنهم أخصائيون نفسيون.

في المساء، على الشاطئ، التقيت في ظل أشجار النخيل، فتيات روسيات يهبن نهودهن لتداعبها أنامل الشمس وأزواجهن يلعبن التنس بمضارب

خشبية. إنهم في عطلة وما من شيء له أن يعكر صفو هـذا المـشهد المشرق. تساءلت: "حتى الموت؟" وأنا أرى مجسات الأخطبوط الموشومة على بـشرة إحداهن، هذا الأخطبوط الغريب الذي يرتبطن به مختبئ في خفايا حجـره. أجابتني الشابة: "نحن على قيد الحياة". وبدا لي الجواب الأمثل.

أرخى الليـل سـدوله في عبـقٍ مـن زهـرٍ وغـاز النفايـات. يبيـع الباعـة المتجولون DVD عليهـا اللقطـات الأفـضل لتـسونامي بكـاميرات هـواة. ابتعت إحداها من أجل الشركة. إنه ملفٌّ للعمل بالنسبة لي لكنه في الشارع التايلنـدي تـاريخٌ قـديمٌ. يتحـضر الجميـع لـسهرة رأس الـسنة. طقطقـة الدراجات النارية على إسفلت الطريق والإعلانات الورقية عـلى واجهـات الأكشاك وقائمـة طعـام الـسنة الجديـدة عـلى الألـواح. طلبـت في إحـدى الحانات بيرة Tiger وPhad thai وأنا أعـرف حـق المعرفـة أن بعـضاً مـن القريدس فيه اقتاتت على جثث ضحايا الموجة القاتلـة. لعـل هـذا الجانـب الذي آلمني، الجانب الوحيد وهو مـا أعطـاني تلـك الأمـسية رغبـة عارمـة بالبكاء.

أنجزت مقالي.

كاترين دينوف، أنا وحزب الله

الحدث الآخر الذي هزني لم يكن طبيعياً ولكنه من صنيعة بشر. كنت في بيروت في لبنان. بلد الأرز، بلد الرماد. أعرف ذلك البلد حق المعرفة وكم أحببته. يؤثر ذلك البلد الخارج من حربٍ دامت خمسة عشر عاماً وهو دائماً على وشك الوقوع فيها. أحببت وادي قاديشا ومنزل الكاتب جبران خليل جبران حيث اصطحبني صديقي سمير، ومعبد جوبيتر في بعلبك وينابيع عقفة حيث أجهز الإله أدونيس على خنزيرٍ. طبعاً ولم أخفِ راقت لي الحياة الليلية في بيروت. نال إعجابي نادي اسمه B-018 أكثر من النوادي الأخرى يقع فوق مخيمٍ فلسطيني قديم دمرته المليشيا المسيحية في إحدى ليالي الحرب دون هوادة. جعل المعماري من هذا النادي ضريحاً يشهد على تلك الظروف المأساوية: يقع تحت الأرض فكان لابد من الولوج إلى الأعماق للوصول إليه. في الداخل بعمق عشرة أمتار تحت الأرض، كل شيء أسود عدا انعكاس الزجاجات في البار الضخم واللون الأحمر المنبعث من زجاجة النبيذ الوردي الموضوعة على كل طاولة ضمن إناء زهرٍ معدني بجوار صورة أحد المشاهير الراحلين. للطاولات والأرائك شكل حجارة النصب التذكاري بيد أن السيناريو المكرر كل ليلة يخبر بأن الحياة تتغلب على الموت. عندما يبلغ الحفل ذروته تتراقص الغانيات معتليات أحذيتهن ذات الكعب العالي على الأضرحة ليطردن بأردافهن ذكرى الحرب والحداد. يرفع سقف النادي لتهب السماء المرصعة بالنجوم نفسها لكل الساهرين فتستحوذ على إعجابهم بينما تفوح الموسيقى في الخارج كعبق الحرية...

أحببت بيروت وتكررت زيارتي لها لأسباب عـدة: تغطيـة مهرجـان أو لقاء مع أحد قادة الحرب. هناك كان لي في كل عام ليلة غناء في الشرق. هنا، الوضع مختلف إذ جئت لأقدم رواية وكذلك مـن أجـل فـيلم مـع كـاترين دونـوف عنوانـه "أريـد أن أرىٰ"، كانـت رحلـة خياليـة في لبنـان المنهـك بقذائف٢٠٠٦، تصويره تراوح بين نتاجٍ فني وتوثيقٍ صادم. تمثـل دونـوف فيه دورها كأيقونة سينما تمت دعوتها لمهرجانٍ خيري في بلـدٍ تحت التهديـد بالانفجار وتعلن: "أريد أن أرىٰ". تستقل السيارة مع شابٍ لبنـاني وسـيم وتتجول معه في الطرقات المحفـورة مـا بـين أنقـاض القـرىٰ المـدمرة نحـو الجنوب حتىٰ الحـدود الإسرائيليـة ودبابـات FINUL البيـضاء[1]. طريـق ممنوع. توجست شخصيات FINUL الخوف وأجرت اتـصالاً مـع الجـيش الإسرائيلي فجاء الرد من الطرف الآخر للأسـلاك الـشائكة: "لـن تطلقـوا النار بالطبع علىٰ كاترين دونوف!" ليس هناك من مخرج، ارتجال تام يعيـشه المخرجان، الزوج والزوجة، إنـه اسـتئثار بـما هـو غـير متوقـع بـين لبنـاني وفرنسيةٌ، ما بين مجهول وأيقونة، ما بـين الحـرب والـسلم وهـي دائـماً عـلىٰ استعداد للتحليق، إذاً لم تأتِ تسميتها "حمامة" من فراغ.

دار العرض مساءً. بدأ اليوم بداية جيدة بشمسٍ مـشرقة ولم يكـن هنـاك الضغط الذي اضطررت لمواجهته خلال الرحلة السابقة حين خـيم أنـصار حزب الله أمام قصر الحكومة بالأضواء الكـشافة والـسياج مطلقـين بـأعلىٰ صوت ترانيم حربية تنتهي بكلمة "الله أكبر"

يسود الهـدوء هنـا. اتجهـت نحـو الحـي الـشيعي في الـضاحية الجنوبيـة لبيروت. تحلّىٰ السائق الذي يقـودني بالـذوق فمـلأ صـوت المطربـة فـيروز

1 – FINUL قوات الأمم المتحدة في لبنان.

الرائع المكان. وددت رؤية الحفر التي تخلفها طائرات المطاردة الإسرائيلية بضرباتها الميليمترية. لدي كاميرا صغيرة، فسحت لوحات إعلانات للعلامة التجارية INTUITION الخاصة بالملابس الداخلية المجال لعرض صور ضخمة للشهداء. الشوارع مرصعة بالأعلام الخضراء أو الصفراء محفورة بكلاشينكوف مرسومة بطريقة تصور اسم "حزب الله" كانت الضربات الإسرائيلية منهجية: بين بناءين هناك فجأة صدعٌ. تم شطب المبنى من الخارطة بكل نظافة. صورت بآلة التصوير الصغيرة وتناهى لمسامعي أصوات التلفاز وصرخات الأطفال والآذان.

توقفنا على الإشارة في شارعٍ تجاري حين قطعت دراجتان ناريتان الطريق، ترجل ركابها من دون خوذ وتوجهوا نحو سيارتنا وأخرجوا سلاحهم المدسوس في حزام بنطال الجينز وسددوا علينا. أمرونا بالترجل من السيارة، أُرهب السائق بيد أنني لم أدرك تماماً ما الذي يحدث.

اقتادونا إلى دربٍ "هم" ليسوا سوى رجلٍ أسمر البشرة ذي شوارب وشعرٍ قط، أصلع بدين. خلف بائع الكباب هناك هاتف أصفر ملحوم بالجدار. طلبوا مني أن أسلمهم آلة التصوير وجواز سفري ونظاراتي الشمسية وهاتفي. رن الهاتف فمدوا لي السماعة، قال الصوت بالإنكليزية وهو يطيل حرف الراء: "سيد سيزارررررر عليك أن تتبعنا" قلت: "لا نقاش بالأمر، أصدقائي بانتظاري، لست خائفاً" أجاب: "هكذا هو وإلا لن ترررررجع". لم يعنني هذا النوع من التهديد إذ كنت أعرف أنني سأعود.في تلك الحقبة، كنت أؤمن بنجمي. أعادوني إلى السيارة مكان الموت والسائق على المقود وفي المقعد الخلفي جلس سائقا الدراجة بعد أن وضعا مسدساتهما على الفخذ. قاد السائق حسب التعليمات التي أعطياه إياها بالعربية.

بلحظةٍ ما ولجنا في نفق فلم أعد أرىٰ سوىٰ طرف لوحة القيادة، فاحت رائحة عطر "بعد الحلاقة" الذي يضعه السائق أكثر لابد أن المسام تفتحت بوقع الخوف. خرجت السيارة من العتمة لنجد مستودعاً، توقفت السيارة وطلبوا إلينا الترجل. صُفقت أبواب السيارة مصدرةً صخباً قاسياً. الطقس حارٌ في المستودع، بدأت الشكوك تراودني. يؤدي درجٌ معدنيٌ لكوخٍ من الألجيكو يشبه كوخ الورش. السائق أمامي يقوده الشاب الطويل والنحيل ثم اختفىٰ في غرفةٍ أُغلق بابها. طلب رجلٌ ثالثٌ لم أعد أذكر شكله ساعة يدي فأذعنت. أومأ إلي أن أستدير ثم فتح باباً وطلب مني الدخول. أقفلوا خلفي بالمفتاح ما أثار حفيظتي لم ينتبني الرعب بل أثاروا حفيظتي وهناك فرق. كان لدي متسعٌ من الوقت لأدقق في الغرفة حيث تم أسري وأيقنت أنني جلبت لنفسي الهموم. علىٰ النافذة الوحيدة قضبان وعلىٰ الطرف الآخر زجاجٌ أغلق بورقٍ بلاستيكي ضارب للصفرة يمنع رؤية أي شيء. فرشت الأرضية بموكيت أخضر تنبعث منه رائحة الرطوبة. هناك طاولة مكتب من الميلانين بالمقابل مع كرسي يعلوها إطار مذهب بخلفيةٍ خضراء وسورة من القرآن. تعالت خفقات فؤادي، لا أحد يعرف أين أنا ولا يمكن لأحد أن يعرف.

فتح الباب ليدخل شابٌ يزي معاصر تماماً بصدارٍ ذي سحاب لامع. قال لي أن أجلس علىٰ الكرسي الآخر في الغرفة مقابله ثم أخبرني بلغةٍ انكليزية متقنة: "أنت بين يدي حزب الله، حركة المقاومة الإسلامية. ما سبب تواجدك في بيروت؟"

أُسيء تأويل القضية، لم أتوقع أن أقول لهذا الرجل: "كاترين دونوف" فأخبرته عن كتابي. قال: "أي كتاب؟" – كتابي، آخر رواية صدرت لي. لم يذهله الأمر، إنه محترفٌ حقاً. دَوّن ملاحظات علىٰ ورقة لم أتمكن من رؤيتها فعلىٰ طاولة المكتب غطاء خشبي. تأملت سورة القرآن، جميلةٌ هي الكتابة

العربية لكنها تغمني إذ كنت أقرنها بفيديو عمليات الخطف والكاميكاز حيث تلوح على الرايات بإيحاءٍ حربي ومتوعد.

- ما قصة الرواية؟

- ليست على قدرٍ من الأهمية. أجبت.

- بلى، هذا مهم.

أرغمت على سرد حبكة هذا الكتاب الذي تدور أحداثه في بيرماني. لم يبدُ عليه الذهول للمرة الثانية. دَوّن بعض الملاحظات ثم سألني وهو يتفرس بي: "ولماذا تُصوّر؟" لم أرتبك وأجبت: "أُصوّر من أجلي ومن أجل أصدقائي كي يروا بيروت والضربات.

- ولماذا؟

- لأنهم يريدون أن يروا.

نهض وخرج من الغرفة. سألته ألا يقفل بالمفتاح فرفض رفضاً قاطعاً. آلمتني طقطقة القفل. انتظرت وبدت الساعات طويلة. شعرت بالحر والعطش لكنني تماسكت واثقاً من حقي. فتح الباب وعاد المستجوب، قال: "هلا تبعتنا لو سمحت...". أخرجني من الغرفة ثم عبرت الممر الضيق لأجد الدرج المعدني المؤدي إلى المستودع حيث رُكنت السيارة. سأعود للشارع إلى الفندق، ستجري الأمور على ما يرام.

إلا إذا لم يكن هذا المتوقع. جاء رجلٌ آخر أربعيني لا توحي هيئته بالاطمئنان، مسدسه في حزامه وبيده مفتاح السيارة. طلب مني أن أدخل، سألته:

- إلى أين؟ وأين السائق؟

- افعل ما يطلب منك لو سمحت.

- لا جدال، أريد أن أعرف أين هو.

- سيأتي لاحقاً، افعل ما يطلب منك لو سمحت.

شعرت بألمٍ في ساقي، دائماً يتسبب به الضيق. ملامح الرجل صارمة لا تتيح المجال للحديث. صعدت بقرب السائق، وضع مسدسه على لوحة القيادة وانطلقت السيارة. سألت: "إلى أين نحن ذاهبون؟"، لم يجب. مضينا ومضينا. تتوالى الشوارع المتشابهة مع الأبنية القذرة ذاتها المزروعة بالصحون الفضائية وصور الشهداء نفسها. غادرنا المركز. تعرفت من بعيد على مطار بيروت جنوب المدينة. إذاً نحن نقود نحو الجنوب أيضاً. لم يعصبوا عيني ما زادني قلقاً، فكرت بأرضٍ مجهولة أو حفرة.

مركزٌ آخر. مرآب. مرآب مطعم. توقفت السيارة. قال لي السائق: "ترجل وامضِ في هذا الاتجاه". انحنى وفتح باب السيارة، مد ذراعه ليشير إلي. عند المدخل هناك رجلٌ آخر عند المدخل، على بعد عشرين متراً مع كاميرا فيديو. صورني، انعقدت معدتي. "لماذا يصورني"؟ - تقدم. بهذا اكتفى قائدي بالجواب. خرجت من السيارة، ساقاي ترتعدان. يصورني الرجل وبدا لي السيناريو شديد الوضوح. سيطلبون فدية. سأغذي حساب مقاومتهم في البنك. فكرت بأصدقائي وأهلي، لم أفكر بك أنت يا هكتور فلم تكن موجوداً بعد. كنت سأنتهي في الساعة ٢٠، يحيط بي المحاربان مع الكلاشينكوف وترفرف على معطفهم راية خضراء عليها كتابة بالعربية. الطقوس المؤثرة، كلا شكراً. أود أن أبدو حسن الطلة بالفيديو. اتجهت نحو الكاميرا. كما سبق وقلت إنه مرآب مطعم، رجالٌ يدخنون النارجيلة ونساء

لا تظهر منهن سوى عيونهن، بنقابٍ أسود حسب العرف الشيعي. أشار لي الرجل بالدخول إلى المطعم. جاء أشخاصٌ آخرون واقتادوني إلى غرفةٍ أخرى في نهاية القاعة، أقفلوا ورائي. لمرة الأخرى وجدت نفسي بمواجهة رجلين. شابان بعيدان كل البعد عن نموذج الإسلاميين. بالكاد نبتت لحيتهما مثلي ربما ثلاثة أيام فقط دون حلاقة... وَجّه أحدهما الكاميرا في حين سألني الآخر بالفرنسية، ماذا أرغب أن أشرب؟ فأجبت إنني لا أرغب بشيء وعوض أن ينتقل لسؤالٍ آخر، ألح بصوتٍ هادئٍ جداً: "ليس حسناً ما تقوم به، إننا نقترح عليك بلطف... أجبت: كوكا كولا إذاً.. هز رأسه، أحلف إنني أقول الحقيقة حتى ولو كانت مدهشة، وصرح: "كلا، ستشرب عصير الفواكه". خاطب بالعربية رجلاً لا بد أنه خلف ظهري. رن خلفهما هاتف من البكاليت. أجاب الرجل الذي لا يصور دون أن يرفع السماعة. تتكرر هذه العملية كل ثلاث دقائق. كنت على علم أن لحزب الله شبكة الاتصال الخاصة به في لبنان والتي يراقبها هو بنفسه. وصل عصير الفواكه. أحلف للمرة الثانية إنني أكتب الحقيقة: كأسٌ ممتلئ حتى الحافة بسائلٍ زهري ضارب للبرتقالي ومغطى بالكريمة ومزين بحبةٍ من الفراولة. لم يكن لدي أدنى فكرة أين كنت ولا ماذا كنت أفعل ولا ماذا سيحدث؟ مازال ضوء الكاميرا الأحمر مضيئاً للتصوير.

بقي جنديا المليشيا ملتزمين طيلة الوقت بل كانا متقنني العمل بصورةٍ مملة ويكررا الأسئلة عينها: ماذا أفعل في بيروت؟ وما هو هذا الكتاب الذي أتحدث عنه؟ ولماذا جئت أتحدث عنه في بيروت؟ ما هو الدافع الحقيقي لمجيئي ما هي مصلحتي؟ وما الفائدة التي سأجنيها؟

كررت إجاباتي نفسها: لا مصلحة ملموسة سوىٰ متعة التبادل. حب بيروت ولبنان... تضرعت في سري ألا يقعوا علىٰ المقابلات التي قمت بها عن جنرالٍ مسيحي أسبق أو عن ذاك الصحفي الذي اغتيل في سيارته في لبنان. ثم بالختام، ما هو موقفي من الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي وما رأيي بإيران وأميركا وهكذا دواليك.. والهاتف البكاليت يرن ويرن.

فيما بعد توقفت عين الكاميرا الحمراء عن اللمعان. نهض الرجلان. وصل رجلٌ ثالث وأعطاهما ظرفاً من ورق الكرفت. وضع المستجوب محتوىٰ الظرف قرب كأس عصير الفاكهة ذي الحجم الكبير والذي انتهيت من شربه مع الكريمة... نظاراتي الشمسية وساعة يدي وجواز سفري وهاتفي دون الكاميرا. قلت بعنجهية وأنا استحوذ علىٰ نظارة Ray-Ban: "احتفظوا بالكاميرا". تمنوا لي إقامة طيبة في بيروت. في الخارج وجدت السائق، منطوياً علىٰ نفسه متكئاً علىٰ باب السيارة ويده علىٰ قلبه بالكاد يلتقط أنفاسه ولونه ضاربٌ للخضرة. راودني شكٌ عنيف حين أدار مفتاح السيارة، راقبت صوت الفرقعة ولكن لا.. لا شيء.

لم يتفوه بكلمة طيلة الدرب والوقت ليل. يبدو جامع "الحريري" كقصر شهرزاد الغابة النائمة بقبته الزرقاء أما المآذن فتتأهب للانطلاق نحو النجوم. تركني في الفندق حيث طلبت لنفسي كأس ويسكي.

أنا علىٰ قيد الحياة لكنني أدركت أن في هذه البقعة من العالم يرتفع الضغط درجة أكثر. كنت محظوظاً. أخذت جرعة كبيرة من الأوكسجين. الشيء الوحيد الذي يثقل كاهلي هو ذاك الفيلم الذي أُخذ لي، يراودني إحساس بأنني تعرضت للسرقة وطعنت نزاهتي. مجرد تفصيل ولكن أن يبقوا لي علىٰ أثرٍ يثير حفيظتي.

اتصلت بسمير فشرح لي أنهم اعتقدوا لا محالة بأنني عميل إسرائيلي فكان لزاماً عليهم إجراء بعض التحريات. قلت: "لماذا وهل يتنزه العميل الإسرائيلي في الضاحية؟ وهم يصيبونها بضربات بطائرات من دون طيار؟"

- "تحتاج الطائرات من دون طيار لمعرفةٍ على الأرض، هذا ما اعتقدوا أنك تفعل بالكاميرا التي تحمل"

بات الشرق المعقد مبهماً، حان وقت العودة إلى أوروبا.

بعد آسيا هاهو الشرق وضاق محيط حركتي.

فتحت عيني. مازال الطفل ها هنا يكشف أردافه الرخامية للقمر تحت زجاج القفص. سألت المراقب: متى ستطلقون سراحه؟

- صباح الغد.

ألتقط أنفاسي بحبورٍ غبي: عما قريب صولجان الطفل المتوحش. غريبٌ.. كم يبدو لي نتاج الفن قيّماً وحياً. كم يزيح الفن الثقل عن كاهلي وينير أفكاري السوداء. حين تشعر أنك على غير ما يرام يوماً ما فلتحاول دخول متحفٍ ما. لعلك تشبهني، فتشعر بالألفة من فورك. لوحات ومنحوتات تخاطب روحك وقلبك. آلهة ومطر ذهبي وإله وثني يتغنى للوفرة. فتيات إنجيليات بنهودٍ بيضاء وصور للعذراء بخلفياتٍ ذهبية وسلالم ترتقي إلى السماء وملائكة تنقش على القضبان ومن الأعلى نورٌ. أسماك وحمامات وأكاليل. الجمال.

هل بت تفهم بصورة أفضل لِمَ عاهدت نفسي ألا أغادر أوروبا ومنعت نفسي عن ألا أعبر بوابة المطار المؤدية لخارج ما هو عين الإعصار الكوكبي،

إحدىٰ آخر البقع الحرة في العالم؟ هل أدركت بصورة أفضل لماذا أنا هنا ألعن والدتك التي أرغمتني علىٰ نقض عهودي؟ ولتعرضك أنت نفسك للخطر فيما لو حل بي مكروه؟

أعرف بما عساك تجيبني: من المضحك أن تحرم نفسك من جنانٍ جديدة وأن الكوارث الطبيعية نادرة الحدوث وهي تحتاج لسلسلةٍ من المصادفات السيئة وعلىٰ كل حال فهذا النوع من الكوارث وارد الحدوث في أوروبا.

كما قد تضيف إنه لمن المشين حقاً العبور بصمت بجوار جمال هذه الأصقاع التي تفوق بجمالها أوروبا.

هذا صحيح. قليلة هي الأشياء التي تضاهي أبهة الضباب المنقشع بالشمس علىٰ مدينة مروك الضائعة في بيرماني في ولاية أراكان، أو نعومة خيوط العنكبوت الموشومة علىٰ وجوه فتيات العرق الصيني.

كما لا بد أن أعهد إليك أن الغوص في ينابيع أبو الشروف الحارة في واحة سوىٰ عند أبواب ليبيا حيث تلقىٰ الإسكندر الكبير الجواب من قديسي زيوس أمون بأنه سيتولىٰ حكم مصر. إنه من أفضل الحمامات.

لكن سأضيف إنه لتحيا هذه اللحظات يا ملاكي، عليك أن تمضي ساعات وساعات بالطائرة بما يعادل فرصة تفجير الرحلة.

لتحيا ذلك، عليك أن تقل حافلات يقودها رجال بأفواه محمرة من القات وعيون محترقة بالمخدر.

لتحيا ذلك، ستقاسي مناظر قبيحة جداً ونفس الطرقات ذات التراب الأحمر المتشقق بالشمس والقرىٰ المختصرة بعشرة أكواخ من الصفيح والآجر، مأهولة بأناس فقراء مدقعين في مأساتهم وأطفال بأفواه يلتصق

عليهـا الـذباب يهيمـون في القـذارة ويلعبـون ببقايـا صـناعية وقطـع مـن الدواليب عندما لا تكون بقايا حرب. تصادف كلاباً هزيلة وقذرة وعرجاء ومفترسة بفرو مثل الضباع.

وإن لم تكن تؤمن مثلي بـ«كليشة» (هواة علم الجمال) التي تقول إن قمـة الجمال تنبجس من القذارة فستعاني إذاً من هذه المناظر.

أخذت طريق الفندق، كنت بحاجة لأجد مرسىً لي فيـه. كـان عـلي أن أدفعها للتفكير قبل أن أدعها تغادر لأنني شعرت أننا كنا هناك. كـان علينـا أن نتحاور ومنذ الأزل.

أدرت المفتاح في القفل ودفعت باب الغرفة بلطف، اتهيأ لأرىٰ في فوضى الشراشف الحريرية جسدها الأسـمر العـاري وهـي متكئـة كالعـادة عـلىٰ خصرها اليساري.

تحسست عبثاً. لاشيء. أدرت النور. كان الفراش فارغاً.

حب لا موت

ما سمعت سوى صوتها المرح الذي يدعوني لترك رسالة بعد الصافرة. لم يكن الوقت قد تأخر بعد فتابعت تلك الحركات التي أصبحت بعدة سنوات حركات العصر، لدرجة أن أحد الفلاسفة استنتج حين رأى إحدى الفتيات تنجز مهامها في المترو أن نوعاً بشرياً جديداً قد بزغ وأطلق عليه حين شاهد سرعة أناملها على لوح المفاتيح الصغير: "عقلة الإصبع" فمن الغول إذاً؟

قمت "بعقلة الإصبع" أنا وذهبت الرسالة تحلق عبر الأمواج الكهرطيسية التي تحيك المدينة عبر الحجارة المنقوشة ونسيج الأجساد البشرية نحو جوال طارق. تشارك فينيسيا في اتصال الكل مع الكل لتبرهن أن هذه البشرة العجوز المترهلة مازالت بالتيار. في ذاك الوقت، كان يتم إرسال ٢٠٠ ألف رسالة كل ثانية في العالم، حطت إحداها في جوالي وهي الوحيدة التي تعنيني: "إنها معي في حفلٍ في سكولا غراند دي سان روكو Scula Grande di San Rocco"[1]

حفلٌ في هيكل تانتوريت؟ عش كثيراً ترَ كثيراً.

قفزت في أحد القوارب وعبرت القناة بالاتجاه المعاكس وأنا ألاحق بناظري أطراف الصلبان الطويلة والتماثيل والبيارق المعدنية التي تكلل

---

1 - صرح ديني مهم سياحي في حي سان باولو في فينيسا تانتوري. أصبح معرضاً لرسامي المدرسة الفينيسية.

الأبنية وتخدش معطف الليل. يقولون في فينيسيا cielolinea كما يقولون في نيويورك Skyline؟

اقتحم القارب المغامرة بمحرك مخنوق ودخل في الشرايين الأضيق. أبوابٌ سرية تفتح على المياه تعلوها أقنعةٌ بأفواه شياطين وأطفال ملائكة. نزلت عند برج أجراس كنيسة فراري ودرت حولها لأصل لكامبو سان روكو. يدخن طارق على الدرج الخارجي وحول عنقه ربطةٌ جديدة بموديل منفرد نفذه ابنه.

سألني: هل من مشكلة؟

- لا مشكلة. هل باز هنا؟

- نعم إنها في الداخل.

شعرت بالاطمئنان. قلت وأنا ارتقي السلالم:

- لم أكن أعرف أنه يحق لنا استئجار لاسكولا من أجل حفل.

- قريباً سيتمكنون من شرائها. إن أوروبا تتقوض يا عزيزي...

يتصاعد الدخان من الطبق الإيطالي "ريزيتو" تحت بشارة العذراء. حافظ أب الملائكة غابريل على تركيزه في حين غاص حشد الأطفال الملائكة ببطء نحو أطباق السلامي. تتصاعد الضحكات وكرات "البروسيكو"[1] نحو الروح القدس وأضرم النار في عيني مريم العذراء. الفنانة المحتفلة هذا المساء إسرائيلية تشبه جان دارك.

لم أجد باز، ذهبت لآخر الدرج.

---

1 - الاسم القديم لنبيذ إيطالي من العنب الأبيض.

مدت لي فتاة في الطابق العلوي مرآة لـئلا ألـوي رقبتـي لأمتـع نـاظري بعرض العذابات والمعجزات التي تلهب السقف الخشبي المـذهب. تلقـى القديس سيباستيان سهماً في وسط جبينه أسفل هالته المضيئة وكان مصعوقاً عديم الأرداف. يعج جبلٌ من إهابٍ خطّاء بأفـاعٍ لهـا آذان كـلاب والـسماء تتقيأ سلماً حجرياً تملؤه فرق النحل الملائكية بالطنين. بات يـصعب التمييـز ما بين أجنحتها والغيوم حيث يطل رسول إلهي آخر بيده كأس مرار يـسقيه للمسيح الذي لم يعد يحتمل المزيد. مثلي. ساقاي ترتعـدان. شربـت الكثـير وأصابتني الخدع البصرية بالغثيان.

نزلت. ناولني طارق كأساً.

- ألم تجدها؟

هززت برأسي.

- آسف. لم أرها وهي تغادر.

أخرجت جوالي من جيب سـترتي ولكـن الـشاشة عـذراء لا تحمـل أي معلومة تخصها.

سأل طارق:

- هل تبادلتما الشتائم؟

- ما زالت بنفس الحالة النفسية التي كانت عليها يوم زيارتنا لـك.

طأطأ رأسه حتى أصبح بين حذاءيه المطليين.

- أتعلم أنها لم تأتِ من أجل عرض شطآنها؟

- أعلم، لقد كنت هناك.

- وهي لا.

لم يلح.

انبثق فرانسيسكو فيزولي كالشيطان من لاسكولا، يرتدي كنزة كتب عليها "Lord Byron"، ذاك الفتى الوسيم الفنان المعاصر الذي رفض نقد المجتمع قائلاً: إنه لا يتحلى بالكمال الكافي لهذه المهمة. قال: "هل تبحث عن باز؟ لقد ذهبت إلى الحفلة الإيسلندية" كان هو بدوره ذاهباً إلى هناك. هل أرغب بمرافقته؟

يتمدد القصر كالتمساح على كتف الماء محتمياً من ضجيج العالم ببواباتٍ مغطاة بنقوشٍ أرمنية. بالحقيقة تحمي هذه البوابات العالم من ضجيج القصر. في الداخل، تتلوى مئات الأجساد كنباتاتٍ لاحمة في حمّة من الأصوات الكهربائية. في قعر الحديقة الشاسعة أقبل DJ القادم من ريكجافيك "عاصمة إيسلندا" ليطلق براكين صوت جزيرته البعيدة لتدوي في قلب متجر Sérénissme الخاص بالأطفال. تتلألأ أحرفٌ أثريةٌ من النيون الأزرق الكهربائي على جدران الآجر القديمة لتكتب عبارة "بلدك غير موجود". قطعت عبر غابات من الأعضاء فاعترضت طريقي عرائش الأرجل وأغصان الأذرع، عبقت رائحة الكحول والعطر في رأسي. تصرخ فتياتٌ ذات وجهٍ مدبب من الإثارة وهن يدققن كؤوسهن مع كؤوس القمر.

دفعني عملاق أصهب فرح، تعرفت على النحات توماس هوسياغو وهو يؤرجح ساقاً فوق الأخرى وبيده.

قال لي بالإنكليزية: "فينيسيا المدينة الأكثر تأثيراً في العالم"

فيزولي الآن عاري الصدر، بدل tee-shirt بالرداء الشبكي الذي ارتدته الممثلة فيكتوريا ريزي في فيلم "X"، دعاها فندق البافيون الإيطالي " Le Pavillon Italie" في باريس لتتربع عارية عرشاً من السباكيتي الملونة.

سألني العملاق الأصهب: لست مع باز؟

- أبحث عنها، قيل لي إنها هنا.

- مرت من هنا لكنها ذهبت عند فرانسيسكا. تقيم حفلاً في الشرفة. يبدو أنك فقدت السيطرة، يا صديقي...

- أحاول أن أضع يدي عليها، هذا كل ما في الأمر.

- بالتوفيق لأن باز جميلة.

- و..؟

- وموهوبة؟

- أوافقك الرأي.

- وهي خاصةً فنانة..

- أعلم.

- إذاً، دعها وشأنها لأنك ستعاني معها. لطالما عاشرت فتيات يائسات وفي النهاية أنا من عُقب، انظر، ها أنا وحيد تماماً..."

ربتُ على كتفه وقلت: "ولكن أنا توماس لا أريد أن أعاقبها..."

يجثو فندق "بلازيو Le Palazzo C" في فينيسيا على كتف القناة، اجتزت في البدء انعكاس الباب قبل أن أعبر الباب نفسه. اصطدم القارب بخشب المخبز المدهون بالأحمر والأبيض. ينتظر غلامٌ شديدٌ على متن

الصندل وبيده طبق مع كؤوسٍ تتراقص فيها فقاعات الشامبانيا ولمعان شراب "Spritz" البرتقالي. يصعد وينزل بإيقاع الموج. تجرعت محتوى الكأس قبل الدخول إلى القصر. رددت الجدران العتيقة الرطبة صدى خطواتي على الرخام فتضاعف صوتها. فتحتُ باب المصعد الضيق المبطن باللون الزهري شابتان بالعشرين من العمر تضحكان وهما حافيتا الأقدام وبيدهما حذاؤهما ذو الكعب العالي جداً. انسليت بين الصدور الفتية. في القمة هناك شرفة تطل على الليل والمدينة. حمامٌ من الحشود وشلالاتٌ من ضحكات. "سيزار" فرانسيسكا عشيقة الأماكن بأناقة فراشةٍ نادرة، برّاقة ورشيقة. هل مازال هناك أميرات؟ تتنقل منزلقةً بفستانها الأخضر بلون عينيها. أمسكت جوانا فاسكونسيلو ذراعي وقالت: "كيف حال باز؟ رأيت لتوي الصور التي التقطتها في المعرض.. حقاً قوية.. مشمسة وخانقة. لم لا تأتي لرؤيتي في ليشبونا؟ إنك تعتني بها، أليس كذلك؟ لقد كانت برفقة موريزيو منذ برهة ولكن لم يكن لدي متسعٌ من الوقت لألقي التحية..."

كاتيلن؟ انطلقت نحوه. خيالٌ كعود الكبريت وأنف بينوكيو ويشاطره أيضاً الهوس باللعب مع الحقيقة. أرسل شبيهه لصحفيةٍ من نيويورك تايمز وضع في شوارع كان من المفترض أن تجري مقابلة معه. وضع في شوارع توران تماثيل شمعية لأشخاصٍ محرومي المأوى كما وضع على أشجار ساحةٍ مأهولة في ميلان جثماين لأطفال مشنوقين تبدو حقيقية أكثر من الطبيعة. أفرطت في الشرب، أُثيرت أعصابي.

"حسناً كما تريد، موريزيو؟"

أمعن بي النظر وكأنه يخمن في المزحة التي قد يقوم بها وهو جالسٌ على الحاجز المطل على القناة الكبرى أكثر انخفاضاً بعشرين متراً ومتحزماً ببزته الرسمية السوداء. عمل طويلاً في معرض للجثث ولأن الجثة هي الشيء الأكثر جدية في العالم من دون شك، قرر أن يسخر من كل شيء.

- أنا بأفضل حال لأنني سأحال إلى المعاش.

- سمعت ذلك لكن يصعب علي أن أصدق..

- أفهم ذلك بسبب صيتي الذائع ككاذب..

بينوكيو دائماً.. بل نحت تماثلاً له. بينوكيو غارق ويداه الصغيرتان ذات القفازات مفتوحتان، يطفو على بطنه في مياه نبع متحف غوغانهيم في نيويورك.

تابع قائلاً: وأنت كيف حالك؟

- أبحث عن باز منذ عدة ساعات، قيل لي إنها معك.

تظاهر بأنه يبحث حوله وقال: "انظر إنها ليست هنا..

- لعلك لا تعرف أين هي؟

- ليس لدي أدنى فكرة.

هل رأيت أنفه يطول؟ فار دمي المخضب بالكحول. أمسكت بياقة سترته بكلتا يدي وبدأت أدفعه إلى الخلف. أفلت كأسه فتدحرج على كوم القرميد ثم انقلب.

صرخ: "ماذا تفعل، أنت مجنون!"

- كلا أنا عاشق محروم وثملٌ قليلاً. قل لي فوراً أين هي وإلا سأنهيك حقاً مثل صديقك بينوكيو.

لا بد أن أنفاسي المعطرة جداً بالزنبق والبرتقال المر قد أقلقته: "حسناً سيزار سأقول لك ولكن اصطحبني أشعر بالدوار..."

سحبته نحو الشرفة.

- إذاً؟

- إنها في حوت العنبر. حوت لوريس جريود.

قلت له وأنا أدفعه مجدداً إلى الخلف: في النهاية لم تعد مضحكاً.

صرخ: كف، إنها الحقيقة! أقسم لك!

التفت عدد من المدعوين إلينا. قلت بنبرةٍ إيجابية للغاية: "لا تقلقوا إنها إحدى مآثر السيد موريزيو كاتيلان!"

أعدته إلى عالم الأحياء.

حوت لوريس جيرود؟

قال: "لكن نعم. بجديةٍ مفاجئة والعرق يلمع على جبينه الكبير. "المنحوتة جوفاء. سله"

تركت موريزيو فصحح ربطة عنقه ومرر يده في شعره القصير بلون الفلفل والملح.

قلت له وأنا أنفض الغبار عن سترته: اعذرني إنك تعلم ماذا تعني لي..

قال: علي حقاً أن اتقاعد.

ظهر فتى وبيده طبقٌ مليءٌ بالكؤوس فكان علي أن أكف هنا. في الطرف المقابل من الشرفة يحتسي لوريس جيرود كأس نبيذٍ أحمر بساقٍ طويلةٍ جداً، يا لغرابة أن يكون شابٌ محببٌ مثله وحيداً.

في بطن الحوت

كان لوريس أحد المفضلين لدي من بين مجموعة نجوم الفنانين بل لعله المفضل. عُهد إليه في الثامنة والعشرين أربعة آلاف متر مربع من قصر طوكيو. وفي سن الثالثة والثلاثين نظم مع مجموعة الراب النيويوركية أول حفل موسيقي.. فريد عصره.. المتخصص بحيوانات أعماق البحار التي سلبت لبه. تم تصوير الحدث وبثه على الشاشات العملاقة في حي تايمز سكوير في نيويورك.. تتراقص الأحياء بعمق ثلاثة آلاف متر مطلقة ألعاباً نارية بضيائها الحيوي. لطالما أحبت باز لوريس كثيراً، بت أفهم الآن وبشكل أفضل ما يجمع بينهما.

اتجهت نحوه. عنقه مكشوف وتغطي خصلة من شعره جبينه وأزرار قميصه مغلقة حتى الياقة. تعدلت موسيقا روك قاسية ومسمومة بلطافة حواره. شربنا نخبنا.

- قل إذاً. لقد رأيت ما فعلت مع موريزيو... هذا ليس حسناً ستعيده لنا شخصاً جدياً..

- أنت جدي سلفاً، سنكسب الوقت إذاً. إنني أبحث عن باز. ما هي قصة الحوت الأجوف؟

ابتسم بحزن وتجرع جرعة كبيرة من شرابه الأحمر كالدم.

- قالت لي إنها ترغب في أن تكون وحدها.

- ماذا تعرف عنه؟

وضع كأسه جانباً وحل أزرار قميصه ثم قال: "في النهاية أنتما راشدان". لمعت سلسلةٌ على صدره وفي طرفها مفتاح.

- هناك بابٌ إذاً؟

- أجل فالنحت أجوف ويضم نوعاً من الحياة، لنجرب فيه الحياة في بطن الحوت. سميته: منزل جيبيتو.

- جيبيتو؟ والآخر يعتبر نفسه بينوكيو. أنتم حقاً صبية صغار.

حييت الفنان وأخذت الأميرة في أحضاني. تدحرجت على درج الرخام وارتميت في أول قارب أجرة عبر.

صبية، نعم. لكن هل يمكنني أن ألومهما أن يحاولا استعادة الطفولة؟ ألم نكن بسن السادسة كشادنٍ صغير يركض في الغابات الخضراء والمورقة والموثرة؟ حين كنا نستغرب من الحكايات التي يسردها لنا والدانا وأن للألعاب المتحركة روحاً وأن الفاصولياء تتطاول إلى الغيوم حيث تعشعش القصور؟ كم كان جميلاً ما سؤالك ذاك اليوم: "حين التقيت بهما هل قيدتهما بسلسلةٍ من القلوب؟"

انزلقت نحو الأرسنال. تبدو ظلال الجدران مقطعة في نسيج الليل بمقصٍ مجنون. شرفاتٌ مركبة وفاخرة: إننا في الشرق. في الداخل مستودعات مليئة بالماء وكأننا نتخيل قاعدة سرية. في القرن الخامس عشر خرجت منها خمسون سفينة حربية بالشهر واتجهت جميعها لتقوم بمجزرة في معركة ليبانت[1].

يتصارع الأدرينالين مع الكحول في أوردتي: أمعنت النظر في العتمة لألمح الحيوان. أكثر سواداً من الليل. ترسم رافعةٌ هيدروليكية ببرجها

1 - معركة ليبانت تعتبر من أكبر المعارك البحرية في التاريخ، جرت في الخامس من تشرين الأول عام ١٥٧١ في خليج باتراس في اليونان مابين البحرية العثمانية والمسيحية الإسبانية والفينيسية. انتهت بهزيمة الأتراك.

وأسهمها خيال طير جارحٍ على صفحة الماء. أخيراً لاح بضياء البدر، متمدداً على طوله على أرصفة الأرسنال. تسترخي كتلةٌ هائلة على سرير الرمل.

يسود الهدوء التام. وضعت قدمي على الرصيف. ابتعد القارب.

يحيط بالمنحوتة الرائعة سياجٌ معدني تخطيته. انغرزت خطاي في الرمل. يصدر صريراً. إنني أميز الحيوان الآن تماماً. عينٌ مفتوحة على رأسه الضخم بشكلِ فأسٍ مصقول من العصر الحجري. فاغر الفم بلونٍ زهري وفكٍ داخلي يشبه صماماً مصبوغاً بأسنان مخروطية. خطمه مليءٌ بالندب جراء معاركه مع الأخطبوط العملاق في أعماق البحار.

عثرت على الفتحة الدائرية غربال كتيم كما في الغواصات. أدخلت المفتاح فانطلقت عملية الفتح ودار مصراعا السد بلطفٍ.

دخلت في بطن الحوت.

قفزت.

" أخفتني!"

يشبه مغارة. مغارة حيوية غير معتمة كلياً، تضيئها مصابيح صغيرة بحجم خرم الإبرة تبث نوراً دافئاً بلون الكريمة. فكرةٌ للانعزال والانسحاب من العالم مثلما هي خبرةٌ فيها مزيجٌ من الهذيان والنكوص للوراء. المكان ضيق، مجهزٌ كحجرة حيث كل عناصرها: الرفوف والمرحاض والفراش محفورة في الجدران من نشارة الزجاج لتشكل كلاً ناعماً ونقياً. لا ألوان تميزها سوى الموقد ومطفئ الحريق وحقيبة الإسعافات الأولية.

كل ما تبقى أبيض اللون، كل ما تبقى عدا باز، متمددة على السرير بسروالها الداخلي عارية الصدر.

اقتربت.

- ستنامين؟

- لا أدري لا قرار بالنوم فإما أن يأتي أو لا يأتي.

- قلقت، هل تعلمين؟

- أنت من تركتني.

- آسف. أنا أعتذر. هل تسمحين أن آتي بقربك.

- افعل ما يحلو لك.

لن أتوسل لها. خلعت ملابسي. ابتعدت لتفسح لي المكان. آلمني جسدي الشاحب بقرب جسدها الذي يلمع في الحجرة كقطعةٍ من الكهرمان الثمين.

حطت يدي على خصرها وشدته إلى حوضي. تحاكي أناملي منحنيات جسدها منزلقة من مفاصل ركبتيها حتى أكواز صدرها مروراً بالترقوة وجيدها الرفيع جداً.

ارتعشت واستدار جسدها بين يدي.

"كفى لو سمحت"

تحت مآقيها ترمقني بنظرة مصورة بدقة منظار قاتلٍ مأجور.

- حسناً باز، لكن أرغب في أن نتحدث.

- ترغب دائماً في أن نتحدث. أنا لم أعد أريد الكلام.

ابتعدت عني. شعرها الأسود المنساب يهفهف على كتفيها. بقيت متمدداً، أتأملها. لا أريد أن أخسرها.

- اعتذرت وأعتذر أيضاً. لكن أريد أن تفهميني.

- لا يجوز ترك امرأة في المطعم.

- أعلم، هذا سيئ ولكن لم أعرف بماذا أرد. صدمني ما كنت تقولين. آثرت الخروج.

- هذا تصرفٌ لا يقوم به رجلٌ حقيقي.

تلقيت الإهانة بألم وماذا كانت تريد مني أن أفعل؟ إنها لا تترك شيئاً أبداً، لا تترك لك مهرباً. إذاً أجل، حاصرتني لكنني عدت. اعتذرت مرتين. قلت:

- هناك أشياء لا تعلمينها...

كشف مبسمها عن ثنية قاسية.

- لماذا تبتسمين هكذا؟

- لا لشيء. إنك تعاملني أحياناً كبلهاء..

عادت ابتسامتها أقل قسوة تساورها المرارة.

- يوماً ما، ستفتح عينيك. على العالم وعلى نفسك وعلي.. إنه أنت الذي لا يعلم بعض الأمور. بالنهاية أنت تعرفها فقد حدثتك عنها... لكنك لا تقيس أبعادها...

رفعت يديها إلى وجهها. اهتز زورها وانسكبت الدموع. نهضت لأمسك يديها: "باز، ما الخطب؟"

قالت أيضاً: "أنت لا تفهم شيئاً. تشوه صوتها وأصبح بمخرجٍ حلقي تخنقه الدموع.

"اشرحي لي. أنا هنا من أجلك..."

هزت رأسها رفضاً وهي تتأمل فخذيها: "أنت لست هنا من أجل أحد. إنك لا تفكر سوى بنفسك.."

اعتلت الغصة حنجرتي. أخذتها في أحضاني ووضعت رأسها على قلبي. انشدت أعصابي ثم استسلمت.

- هذا غير صحيح. لا أفكر سوى بك.

- لو كنت تفكر بي لفهمت ماذا أريد أن أقول لك ولفهمت كم أنا مخنوقة.

بدأت ترتجف. ترتجف حقاً. خفت. عانقتها بشدة.

- حدثيني باز، ماذا يحدث؟

- لم أعد قادرة أن ألتقط أنفاسي، سيزار. حقاً، لم أعد أتنفس. لم أعد أتنفس في باريس. لم أعد قادرة أن أتنفس بقربك..

طأطأت رأسي مجروحاً حد الموت.

- حقاً؟ حتى بقربي؟

مسحت وجهها بيدها وقالت لي بصوتٍ أثقلته انفعالاتٌ تجتاحها كطوفان لا يجابهه شيء:

- نعم حتى بقربك. أنت لا تكفي لمنع حدوث ذلك.

- ماذا يحدث؟

- تلك الموجة السوداء التي ترمي القذارة على كل شيء. الناس والعنف وكل تلك الاتصالات التي لا تجدي نفعاً... أنت أيضاً. أنت تشبههم. الجو مسموم سيزار، تنبعث رائحة الموت...

- لا تقولي هذا..

رفعت يديها إلى شفاهي. ذكرتني رائحة بشرتها بالعسل البني. لا رائحة موت وأنا لا أشبههم.

- لم لم تجيبي؟ اتصلت بك خمسين مرة..

- لم يعد جوالي معي.

- فقدته؟

- رميته. في الماء، هناك في الأمام.

- وكيف كان من المفترض أن أجدك؟

- لم يكن مفروضاً عليك. رغبت في أن أبقى بسلام. أن تنسوني قليلاً.

- كيف أنساك، باز؟ أنا أحبك.

ارتعشت.

- سنستقل الطائرة غداً. سأعتني بك. دعيني اعتني بك لو سمحتي.

مددتها في أحضاني يداعبنا النور الحليبي. بقينا هكذا طويلاً متعانقين في دفء بطن الحوت ثم بدأت أجسادنا بالحركة، كم كان رائعاً.

سمعت أنفاسها، لا أريدها أن ترحل. علي أن أحافظ عليها. علي أن أنسخ منها نسخةً أخرى كما يقولون عن المفتاح. خطر الطفل ذو الضفدع لراي في بالي. جمعنا في هذا الملاذ، نبض حياة، الضفدع الذي يتحرك بنظرته القاسية وابتسامته الخفيفة، سعيد بوجوده في العالم.

في خضم المزيج الحارق للهاثنا، قلت: أريد طفلاً منك.

- كف.

- فكري بالطفل ذي الضفدع. أريد طفلاً مثله.

- كف.

- أثر فيك أيضاً.

- صهٍ.

لم نتحدث بهذا الأمر البتة. فبالنسبة لها هذا ليس موضوع حديث لأنها فنانة؟ حماقة. أنا لا أؤمن بهذه النظرية، إن الفنان لا طفل له سوى فنه. كنت فيها، في بطن الحوت.

عرفت للتو أن الأمر مختلف. كان هناك خطبٌ ما. مهما كانت الطريقة التي يتبعها الناس لممارسة الحب ومهما كانت الأشكال التي يختارونها

وهندسة أجسادهم لكن الفعل يبقى دائماً بنفس الحركة: ذهاب وعودة سلسة ومكررة ومنتظمة ووافية. وكأنه علينا للذهاب نحو الآخر أن ننزل من ذاتنا آخذين منها الأفضل. وكأن علينا بالبدء في أن نبحث عن السر الذي جعلنا على ما نحن عليه لنوحده مع سر الآخر.

بعد وقت طويلٍ حتى غفونا منهكين بهذا الصرح المتين من البشرة والعرق واللهاث. أخيراً نُسفت شياطيننا وحدها.

فتحت عيني أولاً مأخوذاً بفكرةٍ مستبدة. نهضت وأخذت حقيبة يدها الصغيرة. عثرت داخلها على ما كنت أطمع: ظرف حبوب مانع الحمل. أنا الآن أقل ثمالةً ويقيني جلي: حدث بيننا في الليلة الماضية شيء لا أرغب في أن يُحِلّه الطب والكيمياء للعدم.

شيء حدث لا يجوز أن يتخرب. كان علي أن أجعل الحظ يحالفنا. حب لا موت.

عدت لأرقد.

فتحت عيناها بعد عدة لحظات يصعب علي أن أحدد كم من الوقت بالضبط. سمعتها تبحث في حقيبتها ثم أقسمت بالإسبانية. عادت بجواري لتوقظني. هناك مشكلة.

❖ ❖

نحن في الطائرة. يسود التوتر لكنني بحالةٍ جيدة. بعيداً عن الغيوم، بعيداً عن الخير والشر أكملت جريمتي. لصالحنا.

أشرب "غاربيلادي" شرابٌ أحمر بلون قميص الوطني غاربيلادي ذي اللحية وغني بالفيتامينات. اكتفت باز بالماء. غازاتا، أتأملها إنها كوتي

والمنظر الذي يمتعني. اشتد سواد عينها أكثر من المعتاد. ينقش النمش وجهها بجمال، تمرر يدها بشعرها بعصبيةٍ شديدة تصلني أمواجها، أترقب الإشارات. حبيبتي لا تقلقي. سأغفر كل هبات مزاجك وحالات الغثيان عندما تستيقظين، وحلمتاك المنتفختان بلونٍ غامق. سأقول لك إنك جميلة حتى حين تنتفخين كالمنطاد.

كادت تؤخرنا وهي تبحث وتبحث في الفندق حيث كان علينا الذهاب بعد الحوت – آه يا لشكل حارس الموقع، جوناس المتأنق، وهو يرانا نخرج من بطن الحيوان الثدي– بحثت في حقيبة المكياج وفي حقيبة السفر وتحت الفراش وفي القمامة المعدنية في الحمام. كررت على مسامعها أننا حقاً سنتأخر على موعد الطائرة. أرغمت نفسي على التكشير. لقد أصبحت مرهقاً حقاً. إنني عازم حقاً على أن استقل هذه الطائرة فلدي موعدٌ مهم. نال منها السأم والإنهاك فقررت أخيراً أن تسألني: "أرأيت حبوب منع الحمل؟" ولأنني لم أتوقع نفسي أجيب: "سرقتها لأنني أريد منك طفلاً ولست واثقاً أنك تريدنه مني" استبدلت الجواب بقول: "حبوب منع الحمل؟ وماذا أفعل بها؟"

رميتها بين الأشجار،..

هل هذا جرم؟ هل أنا قذر؟ أجل إنه قرار يتخذه الاثنان معاً. ولكن ماذا لو أخطأ أحدهما؟ رغبت في أن نجد صيدلية. لحسن الحظ، مازال الوقت باكراً ومازالت غويديكا تغط بالنوم. باركت عذوبة الحياة على الطريقة الإيطالية. "ستفوتنا الطائرة..."، أصررت أيضاً لأرغمها على أن تقفز في قارب أجرة. فتحت عيني جيداً لأثبت في ذاكرتي دائماً صورة هذه المدينة المنطوية على ذاتها والقاعدة على الماء وتجتاحها المياه، مستعدةً للإنجاب، هذه المدينة التي ستجعلني أباً.

حلقنا فوق جبال الألب مضيئة مغطاة بالثلوج. ساد الصمت بيننا منذ إقلاع الطائرة وحلق معنا... حتى الغيوم... تحمينا المقصورة البرتقالية من الموت. امتقع وجهها فوضعت يدي بلطفٍ على ساعدها: هل من خطبٍ، باز؟

- لا شيء.

- هل هي قصة حبوب منع الحمل؟

خلصت بالقول: "أجل"

برهنت على ذلك منذ استيقاظها ولكن ان أسمعها تعبر عن قلقها وفكرة أن يسبب هذا لها القلق آلمني كثيراً.

- ولماذا؟ ألا ترغبين بطفلٍ مني؟

قلت العبارة بكل ما في العالم من عذوبة وبكل ما فيه من حب. ابتسمت لها فرمقتني أخيراً وقالت بنبرة حاسمة: "لا أريد طفلاً. على كل حال أمامي ٦٢ ساعة لأتناول الحبة"

- ولماذا لا تريدين طفلاً؟

مرت لحظاتٌ طويلة ثم تفوهت بجملةٍ بدت لي عبثيةً فقط: "لأنني تبنيت قرشاً".

كان ينقصني أن أختنق بشراب غاربيلادي. انتصبت في مقعدي وقلت: "ماذا قلت؟

- تبنّيت قرشاً.

- قالت هذا وهي تتأمل كأس الماء المتلألأ. دخل نور الشمس من كوة الطائرة ليلقي على اللوح خيالات متحركة. طلب المضيف وضع أحزمة الأمان فهناك مطبٌ هوائي.

الطفـل

الإعلان لسيزار

سيصعب عليك أن تفهم أن لديك أخاً أكبر وهذا الأخ سمكة قرشٍ.

لست أدري كيف ضربت هذه الفكرة جذورها في رأسها لدرجة أنها استحوذت عليها ولا أعلم من أين انبثق هذا العشق المباغت لأسماك القرش؟ أجل، ولدت قرب المحيط. إلا أن هذا الجزء من المحيط الذي يحد موطن طفولتها، البحر كانتابريا، لم يُشتهر باحتوائه على هذا النوع من الحيوانات الذي وقع خيارها عليه لتتبناه: القرش الكبير ذو المطرقة "Sphyr na mokarran". يخلف ثلوماً بطيفه الذي يلوح على عمق ثلاثمئة متر من السطح في كل البحار الحارة في البسيطة من كاليفورنيا المنخفضة لشواطئ موزامبيق مروراً بمضيق أستراليا الكبير ثم للجّة البحر الأحمر الزرقاء. يمكنه العيش حتى ٣٧ عاماً ويزن الراشد خمسمئة وخمسين كيلو متوزعة على طول ستة أمتار.

تبنّي قرش، لا بد أن تتساءل: كيف يحدث شيء كهذا. تتيح بعض الجمعيات هذه الإمكانية تماماً مثل تبنّي البشر. ببضعة مئات اليورو نصبح أباً أو أماً لقرشٍ صغير في البحر الأحمر كما هي الحال لتصبح أباً أو أماً لصغيرٍ من كامبودجيا. بالطبع، لا بد أن الأمر جلي فتبنّي سمكة قرش لا يمت بصلة لتبني صغيرٍ إذ لن يحيا في منزل الأهل. على الأم أن تقدم له الغذاء: لا يجب أن يكون أسد البحر أو فقمة أو أسماكاً أو سلحفاة بحرية وإنما بأدواتٍ من آخر الصيحات ضرورية لمراقبته. بالواقع، يزداد تهديد الصيد لأسماك القرش. في كل عام، يختفي مئة مليون قرش. خلال خمس

سنوات تمت إبادة ٩٠ بالمئة من فصيلة هذا القرش الذي تناط به ميزاتٌ غير معقولة كقدرته على علاج الفشل الجنسي أو التنبؤ بالسرطانات.

إذاً، كما تهب الأمهات المعاصرات أبناءهن هواتف نقالة ليبقوا على اتصالٍ بها باستمرار كذلك أهدت والدتك لقرشها لاقطاً صوتياً كهربائياً فائق التطور، قدمه الموقع الالكتروني للأستاذ "نيل هاميرشلاغ" من جامعة ميامي كما يلي:

لكل تبنّي قرش لاقط مع قمر اصطناعي يعلق بالقرش وبهذا ستتمكنون من متابعته بشكلٍ حقيقي عبر Google Earth! كما لكم أن تطلقوا عليه اسماً وترسلون لنا تباعاً المعلومات المتعلقة بنموه.

الصورة التي احتفظ بها لباز آنذاك هي صورتها جالسةً على الأريكة وقدماها على الطاولة الزجاجية، تضع على فخذيها MacBook لتتقفى أثر متوحشها في المحيطات، هكذا كانت تمضي طيلة وقتها. حتى أنها ازدرت التصوير ما أثار قلقي إذ كانت تمارسه بعشقٍ. لعل هذا كان دافعها ليقع خيارها على الغرفة حيث كل شيء أبطأ وأكثر تثاقلاً وأكثر خطورة ولكن أكثر متعة أيضاً.

فجأة، لم يعد هناك سوى القرش. أين ذهب وكيف أصبح...؟

"من أين جاءت هذه النزوة؟" جوابها كان لاذعاً لكنه كامل ومنسق: "لأنني أجدها كائنات جميلة، جميلة جداً. لأنها كائنات حية. لأنها بخطر. لأنها سيئة الصيت. لأن هذا يعجبني".

– وهل تبنّيته حقاً؟

أرتني الوثيقة مطوية في أحد دروج الحمام، مكانٌ غريب إلا إذا اعتبرنا أن المكان الذي تجد فيه أسماك القرش راحتها بقرب مصدرٍ مائي. على كل حال، من الحسن والجيد الحصول على وثيقةٍ للتبني. تجري الجمعية الأمور على أتم وجهٍ. ورقة من قياس A4 بيضاء مع إفريزٍ أزرقٍ فاتح يمثل أمواجاً بما يشبه إلى حدٍ ما الرسوم الجدارية في قصر مينوس في كريت كما تمت كتابة الكلمات "وثيقة تبنّي" بحروفٍ قوطية. في أسفل الصفحة، رسم قرشٌ ذو مطرقة ودوّن عليها عدة جملٍ بجديةٍ حقيقية:

هذه وثيقة تبين أن

باز أغويليري ي لاستر

قامت بتبنّي

نور

ذكر ستة أقدام من نوع

Great Hammerhead Shark (Sphyrna mokarram)

الطول: ٦ أقدام

الجنس: ذكر

العمر التقديري: جوفانيل، العمر الحقيقي غير معروف.

وأرفق نصٌ صغيرٌ:

سمحت المراقبة عبر الأقمار الصناعية للباحثين بوضع هذا الاكتشاف المثير تحت الأضواء: القرش ذو المطرقة يغوص لأعماقٍ كبيرة. القرش ذو المطرقة نوعٌ من الكائنات المنعزلة قلما يُشاهد مع قرشٍ آخر.

مضت ليلةٌ غناء بيننا بعد فينيسيا. كنت في بطنها. أخبرتني بعد شهرين ونصف. في الحوض، كان الأمر غريباً مسبقاً. رغم أنها كانت ترتاد المكان طيلة الأسابيع، قالت: "يبث يوم الأحد الهدوء في نفسي"

إنه حوض الباب الذهبي. إنك تعرفه لأنه المكان الذي اصطحبك إليه حتى يوم الأحد لتعتاد على عالمها وتحبه أيضاً. في قصرٍ بشكل معبدٍ لملكةٍ مصريةٍ يعود لسنة ٣٠. إنها قطعة مجوهرات في حوض، سوداء ومهذبة حيث نشعر أننا حقاً في أعماق المياه. يقيم فيه حوالي خمسة آلاف سمكة أتت بحقائب حكام المستعمرات ليضفي بعض اللون على العاصمة الرمادية. إنك تحب الركض فيها بساقيك الصغيرتين المشدودتين بنسيج الجينز وأنت تصرخ وتقول: "كرش!" بفمك الطفولي. نتخيل أننا في برج غواصة. هادئ ومظلم لا نور سوى من تلك النوافذ المائية الخضراء والمضيئة حيث تتخبط مخلوقات ذات زعانف وسط جبالٍ من المرجان بلونٍ أحمر غامق. ألصقت أنفك الصغير على النوافذ ورأينا حصان البحر، إنك تعرف اسمه بالفرنسية والإسبانية. أفاعي البحر بخياطيمها المرعبة المليئة بالأسنان والتي تخرج من مغاراتها بانسيابية كالشرائط وأوضاع تنانين. أنت تدعوها "مورينا" أي سمراء بالإسبانية، سمراء كوالدتك، مازال الوصال لم يقطع. هناك أشخاص يهربون من سبب ألمهم من دون جدوى أما أنا فأواجهه. سأتعلم أن أفصل هذا الحوض عن الذعر الذي سببه لي حين زفت لي الخبر.

قررت، ذات مرةٍ، أن أرافقها سعياً مني لإحياء الحوار بيننا ومزاوجة أذواقنا من جديد. كان الطقس رائعاً وحوض السمك مقابل بستانٍ كبير. تسارعت خطوات والدتك على الأدراج المؤدية لبوابة القصر، بدا كعب حذائها الأحمر كقطرتي دمٍ على الحجارة البيضاء.

يشع الحوض بنورٍ أخضر اللون. حاذت المجرىٰ المخصص للتماسيح المائية حيث يهطل ماء الشلال علىٰ دروعهم وانطلقت مباشرةً نحو الحوض الأكبر الذي يضم قرشين برؤوس سوداء وسمكةٌ بقرن وهي نوعٌ من وحيد القرن البحري، لها عينان تتفحصانك بهدوء تفصلهما زائدةٌ صلبة.

لأسماك القرش الضاربة للزرقة زعانف نصفها باللون الأسود من هنا جاءت تسميتها "ذات الرؤوس السوداء". تمر أمامها – أمامنا أنني انضممت إليها– وتنزلق بهدوء، تصل حتىٰ طرف الحوض ثم تعود. رقص باليه لا ينتهي، بل يسبب إيقاعه الواخز تنويماً مغناطيسياً بالتوازي مع غياب الروح في عينيها الفارغة.

بقيت هناك دون حراك. اختفيت بعد بضع دقائق لأراقب أفراس النهر التي تعكر بذيلها صفو تويجات شقائق النعمان - "زهور البحر" كما تسميها أنت -، أعجبتني التقلبات الذكية لسمكة كهربائية من غويانا، ذكرتني بشرتها البنفسجية ذات الوبر بموكيت قديم.

عدت وهي ما تزال أمام الواجهة الزجاجية. رأيت شفاهها تتحرك. أخرجت جوالي من جيبي لأصور انعكاس وجهها في الزجاج وهي تمعن النظر في الخيالات المنسابة ذهاباً وإياباً أمام عينيها.

قالت: "تعالَ!"

اقتلعت من تأملاتها التي يهيمن عليها هدوءٌ مطلق. أمسكت بذراعي بعذوبة فائقة وأخذتني إلىٰ حوضٍ آخر أصغر حجماً تغلي مياهه مصدرةً فقاعات كما في الجاكوزي. انطوت نجمات البحر في منظرٍ من المرجان والصخور وكأنها تخشىٰ سلفاً ما قد يخرج تعلقت بحاجزٍ من البلاستيك

أربع جيوب زعنفية بيضوية الشكل ذات لون بني فاتح بجوار بعضها بعضاً. داخل كل جيب نواة بلونٍ أغمق. يتحرك حولها شيء ما يشبه الكبل: إصبع رخو يتحرك بشكلٍ مدهش كفيلم بنهاية بكرة.

سألت: "ما هذا؟"

- اقترب.

قفزت: لم يكن سوى إصبعٌ رخو لكنه ذيل. ذيل قرش، طفل قرش. باقي الجسد ملتصق بتلك الكتلة المعتمة، صفار البيضة لم يكن أصفر. كان بوسعي أن أتوقع الزعانف والرأس مع الحدبتين تعلمان العينان. تراجعت يراودني الضيق لأجد جملة توضيحية معلقة بالجدار قرب الحوض:

"قرش الشابو حيوان بياض أي يتكاثر بالبيض"

تبلغ هذه البيوض حوالي ثلاثة عشر سنتيمتراً وتفقس بمرور خمسة عشر أسبوعاً. ترتبط الأجنة بكيس صفار البيض الذي يحتوي على مدخراتها الغذائية. يبلغ طول الصغار حوالي خمسة عشر سنتيمتراً خلال الفقس. يمكنك أن تراقب في هذا الحوض بيوضاً بمختلف أطوار التطور وكذلك بعض الأجنة الفتية.

قالت والدتك دون ابتسامة: "كم هذا مؤثر، أليس كذلك؟" وهي تكاد تلتصق بالواجهة الزجاجية.

"أنا أجد ذلك مرعباً". استدارت نحوي يخالج الحزن صوتها: "وأنا هل ستجدني مرعبة؟" فأجبت من فوري والقلق يساورني: "ماذا تقصدين؟"

في أغلفتها الغشائية، تحرك القروش الصغيرة ذيولها بقوة متزايدة.

"أنا حامل"

سرت في جسدي رعشتان بالوقت نفسه: الأولى من السعادة والثانية من الرعب. جمال الخبر الذي زفته ومنظر أجنة القروش المزعج وهي تتحرك في أغشيتها. تصادمت الشارتان وألقيتا داخلي برداً جليدياً. الشكل يلطخ المضمون. من المفترض أن تكون بشرى ولادة طفل لحظة حبور لا تنتهي. لم يكن دون سبب أن ملأ الرسامون لوحات "بشارة العذراء" بزوابع من ملائكة وحمامة بأجنحةٍ ذهبية وزهرية من الزنبق. لماذا زفت لي هذه البشرى الرائعة أمام ما يعتبره ٩٠٪ من البشرية المنظر الأكثر رعباً: حوض يعج بأسماك القرش؟

حقدت عليها كثيراً فكم كنت أتمنى شيئاً آخر. تمنيت لحظةً أكثر شاعرية وحميمية وإنسانية. ماذا يحدث في رأسها، تباً!

حقدت عليها ثم أخذتني بها الرأفة. ضممتها وأبعدت ناظريها عن منظر تلك الحيوانات ذات الدم البارد، زرعت عيني في عينيها التي تزداد عتمتها بإيقاع روحها المتخبطة بالسواد.

- لكن هذا رائع، حبيبتي! لماذا أنت حزينة؟

- لا أدري. أشعر بالخوف.

- ولكن ممّ الخوف؟

- أن يكون مثلهم.

استدارت لتشير إلى صغار القرش. لم أفهم؟

- ماذا تقولين، باز؟ أن يكون مثلهم، ماذا تقصدين؟

- أي بلا عائلة.

سالت دمعة على وجنتها. ضممتها إلى صدري.

- ولكن لديه عائلة. نحن عائلته.

قالت: لا أدري. إننا نحيا من دون حبٍ اليوم.

كم كان فظيعاً سماع هذه الكلمات.

لأنني أرى ذلك أيضاً. يبدو لي أن عروق الحب تنضب يوماً بعد يوم. لعله بات في زمن الأزمة هذا قيمة تعتبر ملاذاً. أو أننا أدرنا له الظهور لأنه يحتل الوقت ولا يعود بالنفع؟ في محيطي الخاص لم أعد أرى سوى أناسٍ تتفارق وفي محيط العمل تمزق الناس بعضها بعضاً. كل الناس خائفة. الشكوك المالية والمناخ المضطرب - أمطارٌ مدرار في عمان في الأردن هذا الصباح- هجرة ملايين البؤساء الفقراء والتي يرى فيها ملايين آخرون بهجرة الجراد، ضربةٌ جديدة في مصر لا تغير شيئاً في القضية. يجدر بنا أن نتخذ دروعاً تحمي مصالحنا الاجتماعية والاقتصادية الصغيرة مهما كلف بمرور الأيام. يجب أن نتمسك بوضعنا و" لينفد بجلده وهو يكز على أسنانه". في التآخي إضعاف بل ربما الموت. إنني أرى حروباً في الأفق، حروب جديدة ليست بين الدول بل بين الجيران. مثل سكان سان بارتيلمي[1] ولكن من نوع آخر: أن يرمي الواحد الآخر من النافذة فقط ليحصل على ما لديه. يتخيل الناس جميعاً حروباً كهذه إذ يبدو أن الناس تتفارق وتقسو وتتجافى. بدأ بوشايةٍ صغيرة ذلك على تويتر أو عند آلة

1 - مجزرة البروتستانت حدثت عام ١٥٧٢ في سان بارتيملي وهي جزيرة فرنسية في الأنتيل. جراء حرب دينية وسياسية واجتماعية إبان حكم شارل الخامس.

القهوة ثم استمر في طابور الانتظار أمام صالة السينما بضرباتٍ بالمرفق على الخاصرة وتبادل نظرات الحقد وانتهى على الأوتوستراد بشتائم جنسية ونهايات وخيمة قد تودي بحياة ثلاثة صغار يمصون أذن لعبتهم في خضم اصطدامٍ دموي.

باز محقة. الأمور تزداد تعقيداً. يوماً بعد يوم تصبح الحياة خالية من الحب. إلا حبنا لذاتنا. تكرر مواقع التواصل الاجتماعي لنا كلمة "مشاركة" وتقنعنا بسراب عالم يصبح فيه كل شيء مشتركاً في حين أن الواقع هو العكس تماماً. إننا لا نتشارك صوره بل برميه.

قلت لباز: ولكننا نحب بعضنا بعضاً. وأنا أضمها أمام واجهات الماء المالحة حيث تموج خيالاتٌ غريبة. كم تكون الطبيعة خلّاقة... تضرعت لئلا تكون خلاقة للغاية مع الكائن الصغير الذي ينمو في بطن باز وأن الطبيعة أو الله أو أكبر الكل ألا يؤول الطبيعة الجغرافية الغريبة لهذا الخبر كأمنيتنا بأن يتكون في باز فرضية الإنسان والقرش.

**

مضت فترة الحمل بسلام. كان بطنها يكبر إذاً أنت أيضاً.

حضرت تصوير الإيكو الأول وأغرمت بصوت قلبك. ضجة مكررة يمكن أن يكون لها عميق الأثر شرط أن تصدر من حبة مشمش حية تبلغ بضعة غرامات. بالمقابل أضمرت الكره لتلك الفتاة بالرداء الأبيض التي تدير الجلسة والتي استبعدتني منها كلياً. كان الحديث نسائياً وجهدت لتعلمني بذلك. لم تكن تجيب على أسئلتي حتى تعيدها باز. تعرض الشاشة مشهداً فضائياً بخلفيةٍ سوداء، خطاً لبنياً متحركاً. كفضاء ناسا. عبارة

"لفظت عبارة "وضوح الأنفي" تلك عظمة الأنف أيضاً. تسبح بعصارتك التي لم تنتهِ بعد شكل مخلوق روسويل بحركات متقطعة. البعد الجمجمي الذيلي طبيعي. "كل شيء طبيعي" أكدت الفتاة ذات المريول الأبيض. قلت: "كنت أفضل ألا يكون طبيعياً جداً مع ذلك". أجابت بجفاء: "لا يجب عليك أن تمزح في هذا". ابتسمت والدتك بعد أن عبست بتأثير مداعبة الجِل الشفاف البارد.

مضت عدة أشهر على آخر مرة رأيتها متحمسة حين نفذنا خيالي.

المخنثة النائمة

انطلق كل شيء من عشاءٍ تحت هـرم اللـوفر عـلى شرف معـرض كبـير لعصر النهضة. تجاذبنا أطراف الحديث مع مدير المتحف وقـد بـسط النبيـذ جناحه عليها لنحكي خيالات فنية تتدفق من تلقاء ذاتها.

فكرته الخيالية قامت على جمع النساء الثلاث المتمددات والأكثر سـحراً في تاريخ الفن في معرضٍ واحد: أولمبيا دو ماني وماجا ديسنودا دو غويا وفينوس أوربين من تيتيان. سألت: "ومـن سـتحتل الـصدارة؟ قـال بطريقـةٍ جازمـة: "فينوس أوربان، رسمتها تيتان من أجلي" ثم احتسى مـن كأسـه. كانـت بـاز تلك الليلة ترتدي فستاناً بنقش النمر يخز النظر، لم تفـوت لـه العبـارة: "هـل رسمت من أجلك ذاك البطن الجميل المدور وتلـك اليـد اليـسرى بخـاتم في البنصر التي تحط بهدوء على العانة ونظرتها البنية الملحاحة"

اعتلت الحمرة وجنتيه وكم يصعب أن تعلو الحمرة وجنتي هذا الرجل. ثم آثر أن يبتسم.

"أن تحب لوحة حقاً يعني أن تشعر بها حسياً. كتـب بلـزاك شـيئاً جمـيلاً جداً عن اللوحات الفنية وعمّن يشاهدها، قال: "إنها تعرف الهواة وتناديهم وتلوح لهم: "هيا. هيا.

تحدث عن اللوحة بصورةٍ رائعة وعـن تلـك المـرأة ذات الـشعر المحلـول والمتدفق على كتفيها. لعلها تتأهـب للخـروج مـن الحـمام فوصـيفاتها في آخـر اللوحة يتـأهبن ليخـرجن مـن الـصناديق الفـستان الـذي يخفيهـا قلـيلاً عـن الأنظار...يفوح عبق طيات الوسائد والأغطية وتداعبنا عذوبتها عبر اللوحـة

في جوٍ لغسقٍ نلمحه بالسماء المطلية باللون البرتقالي تلوح من النافذة لتعلن نهاية النهار... ثم لاحظ أن الناس أتاحت له المجال ليتحدث ويطلق العنان لخياله فأفسح المجال لبقية المدعوين لأن يعبروا بدورهم عما يدور في خلدهم. لطالما حلمت بأن أغلق على نفسي في متحفٍ. هذا سخيف لكنه حلمي فقلت ذلك. عبر الجميع عما يدور في أذهانهم ثم كف الجميع عن الكلام.

في أحد الأيام لدى هبوط الليل، ضربت لي باز موعداً أمام الهرم. كان المدير بانتظارنا في الداخل. فرحت كصبيٍ صغير إنه حلمٌ راودني منذ الصغر. ضممتها في أحضاني. لا أعلم كيف حصلت على كلمة "افتح يا سمسم". كم كانت ابتسامتها رائعة.

يا بني هكتور، أتمنى أن تلتقي بفتاةٍ مثل باز تتيح لك هذه الزيارة، أو بالأحرى هذه الرحلة. في البدء يسود ليلٌ مرصعٌ بالنجوم. تصر خطواتك على الأرض الخشبية أو تطقطق على البلاط الذي تطؤه وحدك. بل إن فكرة الوحدة ثانوية في هذا الخيال لا بل غياب الضوضاء أمرٌ هام. لم يجرؤ أحدٌ على الكلام، يسود الهدوء ويهيمن لا يخدشه سوى كعب حذاء باز المدبب. تخترق حزمة النور من مصابيح جيبنا العتمة.

أعلى درج الصرح تنتصب "لا فيكتوار دو ساموثراس" عند مقدمة البرج الحجري وتبدو كنجمة هوليوود عجوز عارية تصرخ بأن مجوهراتها سرقت. في الدائرة الصغيرة التي ترسمها مصابيحنا، تنشر الزهريات اليونانية معاركها بالأسود والبرتقالي: صاعقة زيوس تضرب عمالقة بفراء حيوانات وأورور تبكي مصرع ابنها ميمنون على يد أخيل وبين يديها جسد ابنها ملتحٍ كالمسيح، كان تمثال العذراء المنتحبة. مازال أوريست يمسك بالخنجر الذي أجهز به

على والدته، يجلس على صخرة بنظرةٍ فارغة ملطخاً بدم الخنزير الصغير الذي يلوح به أبوبون. غيثٌ من مجازر يتهافت على الواجهات.

عبرنا القاعات بقلبٍ خافق. انتُشلت ملكة تدمر من قبرها وفي عينها نظرة مفترسة وفمها مزموم تجتر حقدها وبين يديها تسحق نسيج عمامتها المتوجة بالجواهر لعلها تبحث بأفكارها عن مساندة الثيران المجنحة الضخمة من امبراطورية نبوخذ نصر على مقربة منها. يا لسحر هذه الليلة بينهم وياهولها! أمواتٌ لكنهم حاضرون دائماً.تباطأت خفقات قلبي وكأنني في غيبوبة. سأقول لك مجدداً لم يتفوه أحدٌ بكلمة. حتى تلك اللحظة وفي وسط الممر انثنى فجأة طول المدير ذي المتر وثمانية وتسعين سنتيمتراً. برزت فتحة في جدار القصر فانسل فيها وقال لنا: "تعالا". هناك درج ببضعة درجات يؤدي إلى بابٍ آخر قام هو بفتحه لنلاقي شرفةً مع حاجز انحنى فوقه وطلب منا أن نحاكيه ونسلط مصابيحنا إلى الأسفل. كبحت باز صرخةً. أما أنا فانحنيت أكثر لأراها بالأسفل.

ممددة على بطنها على فراشٍ منجد، تدعوك بجمالها وحيويتها لتنضم لغفوتها بعد الحب أو ربما قبله؟

قال: "تعالا". عدنا على أعقابنا لنلج في القاعة فنتمكن من تأملها ما بين مثيلاتها: "حذار، هناك حبلٌ"

تنزه إصبع مصباحي ببطءٍ على إهاب المرأة. شعرها ململمٌ وتحط ذقنها حرداً على قوس ذراعها ينتهي قوس عمودها الفقري الجميل بانحناءةٍ بارزة في قعر الكلى، ينساب خصرها بعذوبة ويحط على كتلتي الأرداف الممتلئتين وفخذيها المشدودين. أكثر ما يثير الاهتمام هما قدماها، كأنها انزلقت من

أعلىٰ منحدرٍ سريع لحلم أخاذ فحركت ساقها اليسرىٰ وقدمها بخفةٍ لا ثقل يمانعها، تبدو ساقها الأخرىٰ – الفخذ والربلة والأصابع المزروعة في الفراش – منبسطة بعد متعة جارفة توحي لنا بأننا نرىٰ رعشة جسدها. من الجانب الآخر يتنزه مصباح باز علىٰ جسد المرأة بدوره لتتعانق حزمتا النور أحياناً، شعرت أننا نتقاسم هذا الجسد كمصاصي دماء. كما أن مضيفنا أطفأ مصباحه ليلوح ظله العالي في الظلام. كدنا نلامس الصمت بشفاهنا لكن باز قطعته بعبارة: "لكن، لكن... إنه منتصب!"

درت حول الجسد. من جانب البطن يبدو عنق الشابة تداعبه خصلات هاربة من تسريحتها ونهدها المدور المليء بالوعود مسحوق برخاوة علىٰ الفراش وقوس بطنها العذب ومن أسفله... قضيبٌ منتصب. تملكتنا الحيرة.

تردد صوت مدير الأماكن وهو يلقي أبيات شعر لقصيدةٍ واضحة كما هي متصنعة عمداً:

نرى في المتحف القديم
على سرير من الرخام المنحوت
تمثالاً غامضاً
بجمالٍ مثير للقلق

هل هو رجلٌ؟ هل هو امرأة؟
آلهةٌ أم إله؟
خاف الحب من الرذيلة
فتردد وأمسك الاعتراف

المخنث إذاً هو. المخنث النائم الذي قام بيرنين بنحته برخامٍ عتيق. ليعرض صفات كلا الجنسين حسب المكان الذي تتأمله منه.

سألت والدتك: "ما قصته؟" وهذا ما كنت أحب فيها أيضاً أنها تضع الإنسانية في كل شيء. لكل رجلٍ وكل امرأة قصة أو مأساة أو سعادة تفسر نمط حياته. روى لها المدير أسطورة "هيرمافروديت" وذلك قبل أن تكون ميزة حيوانية تصف كيفية التكاثر لدى بعض الحيوانات مثل الحلزون و"السمك المهرج" (تمنع الخنوثة البشرية الإنجاب) هيرمافروديت كان اسم وهو اسم ابن هيرمس وأفروديت. شرح مضيفنا قائلاً: "أخذ من أمه آلهة الجمال وكان يحيا في الغابات فتصاب آلهات الماء والغاب بالجنون وهن يتأوهن من الرغبة وهن يرين ابن الطبيعة هذا يتنزه في الأدغال العطرة والوديان الخصبة وينام عارياً في ظل المغارات ويحمم جسده الخيالي في مياه أنهارهن.. إحدى الآلهات لم تعد تطيق صبراً، اسمها سالماسيس، فقررت أن تتصرف. إنها حورية ماء، آلهة ماء لكن جبلتها نارية. عبرت عن جذوتها في أحد أيام الحر. عرضت عليه بكل تهذيب أن يتزوج بها بل قالت له إنه وإن كان متزوجاً فهي تكتفي "بحبٍ عابر".

رمت باز ملاحظة: عملية!

- أجل، هكذا هم اليونانيون. لكن هيرمافروديت لم يكن كذلك إذ اعتلت الحمرة وجنتيه وقالت لها: إنها لو استمرت على هذه الحال فسيمضي بحال سبيله..

- فتى..

- ولكن نعم، لكنها آلهة الماء والغاب... ثم وبينما كان يسبح على صدره في عذوبة النهر، انقضت عليه وشلت حركة كل أعضائه ما عدا عضو

واحد وحاولت الاستمتاع بهذا الجسد اللذيذ. قال أوفيد الشاعر الروماني في ديوانه "التحولات": كشقار البحر الذي قبض على فريسته وثبتها بمجساته". إلا أنه قاوم.

تناهى لمسامعي في الصمت ضحكة باز بهدوء. تابع المدير: "طلبت من الآلهة أن يمدوها بالعون ويجمعانهما أبداً. انتهت الآلهة بالاستجابة لسالاميس بما أنهم من هواة الجسد وكانوا يستمتعون بالمشهد ولا يجدر بآلهة أن تعيش الحرمان.

- سألت باز: إذاً هيرمافروديت زوجان؟

- الزوجان السعيدان الوحيدان اللذان عرفتهما. كما قالت سيدة عجوز ارستقراطية إنكليزية في القرن الثامن عشر حين رأت التمثال للمرة الأولى.

- أضفت: جميل.

لم أكن أرى باز لكنني كنت أسمعها. إذا كان سلم الحماسة عند باز بعشر درجات فهي في الدرجة الثامنة على الأقل. مترعة بتجربة المتاحف الليلية وسحر مدير المكان الفرنسي جداً. لم تكف عن طرح الأسئلة تثرثر في هدوء مقابر المتحف الشاغر. وهو يجيب مستمتعاً بفضولها ومأسوراً بسحرها ككل من يراها، سحرها الذي يتسلل في الجسد كتيارٍ دافئ.

"نعم إن مجموعة بورغيز هو الرد الروماني على تمثالٍ يوناني. من جهةٍ أخرى إن الكاردينال سيبيون بورغيز هو من طلب لهذا الجسد المرتعد سريراً على مقاسه.

- إذاً الفراش لم يكن موجوداً بالأصل؟

- أضاف قائلاً: كلا أضافه بيرنين بعد خمسة عشر قرناً. انظروا لعبقرية الصنع فخياطة الجلد المنجد تتعارض مع انحناءات الجسد المنسابة. هذا ما أعطى انطباعاً بأن فن هذا النائم معاصر جداً. توجب علي أن أحميه بهذا الحاجز لأن كل الناس ترغب بفحص هذا التأثير الواقعي بنفسها.

ترى هل يمكن أن نلاحق بأن خدعنا تمثالاً؟ من القاضي الذي قد يجعلنا نعتقد أنه غير راضٍ؟



حان وقت الرحيل. إنها عدوى ساندريلا: لا يحق لنا البقاء هنا بل لعلنا نجازف كثيراً وكأننا نقلب قانون الزمن. من الخطورة التنزه بين الأموات أو بالأحرى بين من يحاكون الأحياء وعرفوا منهم الكثير، الكثير من الأحياء الذين هم الآن في عداد الموتى. كم من عينٍ كأعيننا حطت على

هيرمافروديت؟ عيون لم تعد موجودة الآن وأصبحت حجاجاً سوداً في غياهب القبور، وذكريات ملونة تحولت لرماد. تردد صوت جرسٍ جنائزي. كثف الهواء وخمدت النجوم. قال المدير: "هيا بنا"

شعرت بالدوار وأنا أرى باز التمثال الحي تخربش البلاط العتيق بكعب حذائها المعاصر وتتعرج ما بين هؤلاء الرجال والنساء أسرى دروعهم الرخامية ولو أمعنا النظر لبدا لنا إهابهم ينبض بحياةٍ صماء ومتمردة. ملائكة وآلهة بيدهم أقواس ترافقهم أيلة أو أصدقاء فتية يستعدون للسباحة ويتحولون فجأة لحجارة بقرارٍ من إلهٍ غيور يجمد التدفق في الأوردة ويطفئ نبضات قلوبهم البهية. توجست خيفة على باز وهي سمراء وسط هذا العاج وتعج بالحركة في خضم شللٍ حتمي لكنها فانية في هذه الأبدية...

خطر لي الصليب الذي رسمته على أردافها. صليب الملائكة: لقد انضمت لهم. ما رأيتها قط هكذا. كانت متأثرة جداً وهي تحيي مضيفنا ولثمته على وجنته ونحن نغادر اللوفر وقالت: "ما رأيت قط التماثيل هكذا. شكراً. شكراً. شكراً! أدركت الآن لماذا يلقبونك بالسيد لوفر!".

كررت لعشرات المرات تلك الليلة "تشو! تشو!" وهي تضحك وتتبعني في الشقة من غرفة الاستقبال للمطبخ حتى السرير أيقظتني تنفخ على رقبتي وأذني ونقرتي وأنا غافٍ رأسي يعج برؤى هيرمافروديت النائم، تكرر: "تشو.. تشو.."

لم أكن أقوى رغم محاولتي على أن أسألها: "ألم يعد الفن الأوروبي يكتم أنفاسك"؟

الإهاب على الرخام

ظننت أن خيالي انتصر وسحق حلمها. ظننت أنني أعدتها للسكة وأن أسماك القرش قد تفرقت ولن نذكر مجدداً قصة التبنّي تلك.

حظيت بإيحاء أو أفضل من ذلك كانت شديدة الحماس، هذه الكلمة التي تعني عند القدماء أن إلهاً قد مسه. ارتقت أعلى جبل الأولمب عزيزتي الأستورية.

هجرت شطآنها وارتادت المتاحف.

بدأت بكابوديمونت والملكة صوفيا ومعرض بورغيز أو ديلف. وفي أورسي أيضاً حيث أمضت حياتها، ثم بالانتظار متحف اللوفر والذي يمثل لهذه السمكة الأكبر قالت: "إن نجح الأمر فسأحاول في اللوفر"

انكبت على عملها الجديد. عثرت على موضوع جريء في عصرٍ تشظت فيه كل المعالم وبات معاشنا يقتصر على ما هو فوري: مواجهة المشاهدين مع الأعمال الفنية. طبقت المنهج ذاته: "لا بد من التكرار لا أن نكرر ذاتنا" كما قال لها جوزيف كوديلكا، المصور ذائع الصيت الذي كرس سنوات بأكملها ليصور الغجر. صادفتهما معاً في إحدى الأمسيات قرب وكالة ماغنوم أعلى ساحة كليشيه حيث ينام كوديلكا حين لا يأخذ السفر للتصوير. أصبح هو نفسه غجرياً حقيقياً بعمرٍ يناهز الخامسة والستين وهو يجمع المقعدين ليرقد عليهما. كانا يحتسيا البيرة البيضاء وما استطعت أن أميز من هو الأكثر انتعاشاً باز أم جوزيف أم البيرة، ترتدي باز فستاناً رمادياً بلون اللؤلؤ بشيالات رفيعة وهي عائدة من المسبح بشعرها المبتل

المرفوع للأعلى، أما هو فأطلق بعبثية لحيته البيضاء كشعره الأشعث في عراكٍ وعيناه تلمعان مكراً خلف عدسات نظارته، يرتدي قميصاً شبكياً بلونٍ أخضر غامق ذكرني بمحاربٍ قديمٍ لا مبادئ له أو أن مبادئه تمشي بعكس الكتلة البشرية.

"لا أريد أن تتملكني الرغبة بمكانٍ تفرض علي العودة إليه. أعيش حيث أعيش وحين تنتهي الصور التي التقطها سأنتقل للعيش في مكانٍ آخر، هذا كل شيء."

صمتت غارقة بأفكارها، تخط بالسبابة صوراً معقدة على البخار الذي يغطي نظارتها ذات الشكل الأنثوي.

قال كوديلكا: "يجب أن نعيد ونعيد الصورة نفسها إنها الطريقة المثلى للحصول على الأفضل"

إذاً، اتبعت المنهج ذاته. دائماً في غرفتها التي تتيح لها حسب قولها اللعب من النور والمواد والرخام والشمس والسمرة كالرسام. واللعب مع الوقت أيضاً فالغرفة تسمح بزمنٍ طويلٍ للتعريض. تطل من سقفها على كل شيء، على الناس والأعمال. ليس هناك ما هو أكثر ارتفاعاً من والدتك سوى السماء. يالمتعة رؤيتها في هذا المتحف وسط صحن أوساي المأهول في الزمن الغابر بالقطارات قبل أن تطردها هذه العربات على خلاف قدرات الأعمال الفنية! كان لديها مساعدان، طالبان من الفنون الجميلة اسمهما جوليان وأورليا وكنت ألقبهما بالوصيفين لأنهما يتحليان بصبرٍ لا ينفد وكرّسا نفسيهما كلياً لهذه الإمبراطورة المعاصرة التي تضع أحياناً عصبةً من اللبلاب في شعرها وتقودهما بكلماتٍ مبهمةً بالنسبة لي والتي تشكل طقوس التحايل

على الحياة والقبض عليها كذلك تحويل الرجال والنساء وحتى الأعمال الفنية التي تقع بمصيدة هدفها لنوعٍ من الألعاب. عندما تشاهد هذه الصور ستفهم ما أقول: حتى الأعمال الفنية تبدو ألعاباً. تميل وتبتعد، إنها الملكة وهم الألعاب، تهيمن هي على كل شيء. يتخلل نور الصيف من كوة القناة فوق رأسها لينفجر لآلاف من قطع البلّور.

اكتشفت النسخ الأولى بعد مضي شهرٍ. أخرجتهم في ظرف كرافت منتظرةً حكمي بمراوغة فهي تعلم أنها لن تصدقني لو قلت لها إن هذا رائع كما ستتحطم نفسياً لو لم أتحلّ بالحماسة التي تتمناها.

قلت: "هذا قوي"

أجل. قوي. لأنه لم يكن جميلاً وحسب فجماله يخطفك حتى الصميم ويصعد إلى عقلك ويهبط حتى الكلى، ستحبه لأنه مفعم بالحياة ولأنك ستتنعم بهذه الحياة.

"حقاً؟ هل أنت جاد؟"

ارتفعت حرارة جسدها وارتعش بالقلق أو بالرضا، إنها عكس قطعة من الجليد. إنني أشعر بها ما إن أقترب منها. أحياناً حين تضطرب في نومها تتلألأ قطرات العرق على صدغيها..

"إنه قوي للغاية"

أبعدت خصلات شعرها المتساقطة على عينها اليسرى. عينها حادة وسوداء كالخنجر لكن نصله هنا تآكل وصارت كاللوزة تتمنى لو تقرطها. استرخى ذقنها المائل على كفها. يعتصر الفؤاد بتلك الابتسامة التي تكشف عن أسنانها.

عملها الجديد هذا مذهل. قذيفة. ماذا نرىٰ فيه؟ للتبسيط: نرىٰ أشخاصاً وأعمالاً فنية. المواجهة الكبرىٰ بين الفاني والباقي وبين الجسد والرخام وبين العاري والمستور. حب من النظرة الأولىٰ واشمئزاز وتأليف بطيء. الزمن المعلق. حمىٰ الزحام أيضاً. تنساب شرائط طويلة من الزوار الآسيويين كتنانين رأس السنة ما بين تماثيل القرن التاسع عشر وتلامذة يعدون أمام أبقار برسمٍ انطباعي. تمسح فتاةٌ شابة وحيدة دمعتها أمام حاملة ماء من البرونز. تمسح دمعة تماماً فهي الحال دائماً عند باز كلوحة "ديانا عائدة من الصيد للفنان بيير بول روبنس" في التصوير كما أشارت الجريدة الإيطالية اليومية "ديلا سيرا" حيث يظهر كل شيء بجلاءٍ خارق. يتولد لدينا انطباع بكوننا إلهاً لا يفلت منه شيء، كتلكما السيدتين العجوزتين الجالستين متعبتين والثالثة تنهض لتعود فجأة لجزر الذهب لهنري ايدموند كروس حيث يلمع الرمل وتتراقص الشمس علىٰ الأمواج. أي ذكرىٰ هذه التي استحضرتها؟ تذكرت ما قال لنا مدير اللوفر: إن الأعمال تختارك. انقسمت مجموعة مدرسية لقسمين. الفتية لا يتجاوزون العاشرة متحمسين كالبراغيث أمام لوحة صيد النمر لدولاكروا (عين حصانٍ مجنونة وعزيمة فارس بعباءةٍ حمراء وفروٍ وحشي وفكين يتقطران دماً ولمعان الفولاذ). أما الفتيات الصغيرات فصمتن ذهولاً ورغبة أمام الأميرات الأثيرات في لوحة غوستاف مورو تحلين بخواتم من حجارة القمر وتوجن بالألماس، كلا كان هناك أيضاً صبيٌ صغيرٌ... السلوك الذي أعشق، طالباتٌ فنون ظريفاتٌ يجلسن بأثوابهن وهن بقمة التركيز يرسمن علىٰ الأوراق البيضاء الضخمة في كراساتهن النسيجية ذات الألف صفحة عضلات مميزة لمحاربين أسطوريين.

لا تفيد الأعمال الفنية أحياناً إلا كوسيط بين البشر. موجةٌ خاملة لتجاذبهم المغناطيسي. مثل هذين الزوجين اللذين يمسكان بأيدي بعضهم بعضاً مسمّرين أمام لوحة "رولا" لجيرفيكس (الفتاة العارية بجسدها المرتعد بعد ممارسة الحب ومشدها مرمي على الأرض ويدها في شعرها أما الشرشف فيلتف أمام عورتها وإلا لكان مكشوفاً لعيون المشاهد والرجل عند النافذة يرتدي قميصاً يراقب الطريق وكأن تهديداً قد يلوح. هل هناك أيضاً زوجان خفيان وخجولان ومختبئان؟ هذه السيدة الرزينة بالستين أو السبعين بحليها الكثيرة ومعطفها البنفسجي الضارب للأرجواني وشعرها معقوص للأعلى ربما هي أريتيرية، ترى لماذا تتفرس بوجه رجلٍ أصغر منها بالعمر يشبه سامي فري لكنه أكثر بدانةً منه بخضم الحوار مع جسد الشابة تارانتين المهجور...؟

كانت هذه الصور تحتوي على حكايا كثيرة! بوسعنا أن نمضي أمامها ساعات تكاد أفكار الشخصيات التي تتطور في الصورة تصل مسامعنا. من كان ذاك الرجل الذي تنظر إليه تلك السيدة وهو يصغرها بعشرين عاماً؟ هل هو حبيب قديم؟ مستقبل؟ طالب قديم؟ ابنٌ مفقود؟ لا تقدم الصورة تتمة الحكايا... فقط وددت أن أقول لك يا هكتور إن والدتك كانت في أوج قدرتها الفنية والسيدة المطلقة لنظرتها الشخصية والحساسة واللاذعة. لا ينافسها أحدٌ بخطف نكهة الحياة والشهوانية التي يحثها كل هذا الجمال في تلك العقول الشاردة.

إذاً بالطبع، أقول من تلقاء نفسي عنها ومن يدري لعل الأمر معاكس، خطوة نحو قطيعتها مع الجنس البشري؟ فلو أمعنا النظر لوجدنا أن التماثيل تهيمن على هذه المجموعة الجديدة التي كرسها التصوير. هيمنةٌ جمالية وسلطانٌ على الزمن. تقشعر أبدان المشاهدين وتحمر وتتقشر. تعارض

التماثيل البيضاء والسوداء الثبات الأعظم لأجسادهم المعدنية. كم كان قوياً ومأساوياً. يبدو أنها ستفتح محلاً.

أخبرتني ذات مساء: "لن تكتب أي مقال حين سيتم عرضه عند طارق، أرجوك"

- لا أستطيع يا عزيزتي، نحن الآن معاً سيتولد صراع مصالح.

❖ ❖

ظننت أن الرخام الأملس أبعدها عن خشونة القشريات فلم تعد تأتي على ذكر أخيك المائي. ثم وقعت على SMS يا لحماقة أن تقع على رسالة نصية. إنها سخافة قذرة وخاصة لشخصٍ مثلي لطالما رفض الانغماس في الجاسوسية الزوجية. اتفقت مع باز أنه لو حدث ورقدنا خارجاً وكان الجسد هو فقط من يتحدث فهذا أمرٌ عادي ويحدث لا داعي لذكره.

أضافت: "لا أريد أن أعرف شيئاً وإلا لفقأت عينيك ثم رحلت للتو. لن أفقأ عينيك لأنني غاضبة بل لأنني لست والدتك وستكون مثيراً للشفقة لو حدثتني عن الأمر والناس المثيرون للشفقة يستحقون العقاب.

- أنا لن أفقأ عينيك لن أقوى على ذلك.

سألتني في الحال:

- هل تخدعني؟

أنا لا أخدع زوجتي ولكن كما يقول الناس لا دافع لي، كنت أحبها بل ليس لدي أية مبادرة: إنها بالنسبة لي كل النساء فهي تارة آسيوية وتارة إفريقية وروسية وتشيلية وأحياناً أثيرية كما أنها مثيرة بكل سرور.

سألت: "ماذا لو وقعنا في الحب؟"

- أقترح أن نقول فهذا يعني أن جولتنا انتهت. أطلقت صافرة النهاية واتجهنا نحو المشالح لنستحم ونرتدي ملابسنا ونحزم أمتعتنا. لن نعقد اجتماع قمة لنضع خطة إنقاذ. في وقت الأزمات ينتهي الأمر بالتدهور".

أضافت بما كاد يجعلني أذرف الدموع:

- ألن نحاول ولو قليلاً.

والآن هذه الرسالة، كانت تستحم بماء ساخن وضعت فيه ملحاً من البحر الميت. أضاءت شاشة جوالها بلاك بيري على الطاولة المنخفضة مصدراً صوتاً رجاجاً طفيفاً. لم استطع سوى أن ألقي نظرة. رسالة قصيرة، لم تميزها أي عبارة مثل "يا ساكنة أحلامي، إني أشتاق إليكِ". ولا "الليلة غناء هيا بسرعة تعالي". ولا "أداعب جسدي حين أفكر بكِ". كلا لا شيء مهم يميز الرسالة بل اقتصرت على جملة من دون فعل: "مصابيح لورانزيني" مع اسم المرسل في الأعلى سجلته باز في قائمة الأسماء: "بحري"

خطر لي في البدء أنها وصفة طبية أو نصيحة للصيانة أو لإضاءة ورشتها. أمسكت جوالي ودخلت الشبكة العالمية للمعلومات، محيط من المعلومات لا نهاية له وكتبت: "مصابيح لورانزيني" فدل على عضو إحساس عند سمك القرش يسمح له بالتقاط أقل حقل كهربائي أو دقة قلب أو تقلص عضلات الفريسة...

سمعت باب الحمام يفتح ووقع خطاها على الأرضية الخشبية إلى الغرفة. تبعتها وتعالت خفقات قلبي. كانت مدثرة بثوب الحمام وعقدت المنشفة على شعرها كتاج. لا بد أن أعرف من كان هذا "بحري"

برولاكتين

لم أرغب بالسؤال. ندالة مني أو تعامياً وهما سيان. قلت في سري: إن لا شيء يستحق الذكر ويمر بسلام. وغالباً ما يحدث ولا بد أني لست على علم بكل شيء بما أنني لا أراقبها ولا بد أنها تحذف الرسائل السابقة، وهذه الرسالة أيضاً لن أوليها أهمية كبيرة. نعم هناك رسائل أخرى بتوقيع الشخص ذاته الذي يتحدث عن "الأجفان الإضافية" أو "الزعانف اللوحية"، وتفاصيل بيولوجية تمت دوماً بعالم أسماك القرش.

من باب الواقعية وأيضاً لأنني أميز ما بين ما هو قيم وما ليس قيماً. لم أرغب بتعكير صفو لحظات لقائي معها، اللحظات القليلة التي تجمعنا لأن الشركة تستحوذ على وقتي. طوفان المعلومات هائل وطبول الحرب الاقتصادية تقرع بقوة بمنحنياتها المرعبة ومساراتها الرقمية وبياناتها الكارثية. العالم هامد كالجثة تحركه بضعة اهتزازات أرغم نفسي على نشرها بطريقةٍ جميلةٍ لئلا يتسرب اليأس لنفس القارئ: حوار مع فاتنةٍ مثقفة ومثيرة من هوليوود أو عملية إنقاذ كبيرة على شواطئ كازنوفا أو نموذج أوروبي حقيقي حصلت فرنسا على مخطوط مذكراته المزخرف بثلاثة قلوب- أمسكته بيدي فسرت الكهرباء في جسدي- أو ملف أوراق عن المذهب الانطباعي. كان الوقت شتاءً ثم انقضى الشتاء. غطى الثلج باريس ثم بانت. لم أعد أكتب. أن أنجب طفلاً خيرٌ لي من أن أكتب رواية حتى ولو أن باز تبقيني بعيداً عن الحبكة.

في المساء حين أعود، عادةً ما أجدها جالسة على الأريكة من الجلد الأسود. أحدثك عن هذه الصورة: ترفع قدميها على طاولةٍ منخفضة

وتضع حاسوبها ذا علامة "تفاحة" على فخذيها. غارقة بعملها وبعيدة جداً. بالكاد ترفع رأسها لدى مجيئي دون أن تتفوه بكلمة. أتجه إلى الحمام لأستحم من هذا الغياب. عندما انتهي تطفئ جهازها وتتجه إلى الغرفة.

في إحدى الأمسيات، أعاد لي البخار الممتزج بالحرارة الثقة. فكرت بابننا القادم بالطفل ذي الضفدع وبلياليناا التي قضيناها في فينيسيا. فكرت بالحوت وبالتجربة التي خضناها في بطن الحوت. كم كنت سعيداً بانتظار هذا الطفل. ترى هل كانت هي أيضاً سعيدة؟ هل ألوم نفسي؟ لقد تغيرت لم يكن تغيراً جسدياً فحسب. ولكن أنا أيضاً تغيرت ولم يكن تغيراً جسدياً أبداً، أتخيل شكلي حين أنظر بالمرآة "الأب المستقبلي" وخصلاتٌ بيضاء تتخلل شعري الكث، هذا كل شيء. بالإضافة لخيوطٍ رمادية في اللحية. أما ما تبقى فينتظر الرجل الذي يقابلني بالمرآة أياماً جميلة مليئة بالحب والحيوية أهبها لها وللصغير الذي تحمل في أحشائها، وهو صبي حسب ما أكدت لنا مصورة الإيكو بعد أن سألتنا خمس مراتٍ إن كنا نرغب حقاً بمعرفة جنس المولود حيث أكدت: "هناك بعض الأمهات والآباء الذين يؤثرون المفاجأة" أجبتها مشيراً لباز وقد أغرورقت عيني بدموع الفرح: "لأنكم تظنون أننا بحاجة عاطفياً لشيء صغير كزيادة؟ ". خرجت من الحمام وهي ما تزال في غرفة الضيوف وحاسبها على فخذيها. ثنت غطاء الحاسب لدى اقترابي. تلف الشريط على جبينها فلا يبشر بخير.

- ألست على ما يرام؟

- بلى.

- لا يبدو ذلك. أترغبين في أن نتحدث؟

هزت رأسها. جلست بجوارها وأمسكت بيدها اليسرى، يدها الصغيرة بطلاء أظافر أحمر. سألت: ماذا تشاهدين؟

- أشياء.

لم أشعر بالضيق فالأمر لا يمت لي بصلة في نهاية المطاف. إنها الحاجة للاطمئنان على مواقع الانترنت المتعلقة بمعلومات حول الحمل مثل: "magrossesse.com / enceinteetendetresse.fr" حيث نقرأ معلوماتٍ مثل: "فكري بالسعادة التي تمنيحنها لطفلك حين تتناولين أغذية سكرية".

يبدو أنها لا ترغب في مشاركتي بهذه المعلومات ولكن لماذا يغطي وجهها الحزن؟

اكتفيت بأن أضع رأسي في حضنها. كبر حجم ثدييها لكنني لم أجعل من هذا قضية. أغمضت عيني تلك اللحظة وحاولت أن أسمع، أشعر بركلات القدم كما قرأت في أحد المواقع الخاصة بالحمل، فأنا أيضاً أطالعها بدوري وإلا كيف لي أن أعرف ما أنا بصدد كتابته؟ كما أنه من الجيد وجود عبارة أو ترنيمة أو كلمة نهمس بها للطفل عبر الجدار المشيمي بانتظام مهما أمكن فهذا يهدئ الجنين ليكون بالنسبة له موعداً صوتياً أو مرهماً لفظياً ووعداً باللقاء القريب والتعارف.

أول عبارة خطرت لي هي: "هكتور وأخيل وأوليس أبطال حرب طروادة"

كلا، لن أعمل من حجم ثدييها حكاية. يغط ثدياها من الجانب الداخلي على أذني اليسرى أما أذني اليمنى فملتصقة بجدار بطنها. لن أعمل قصة كما تقتضي العادة والعبارات المكررة. ولكن حتى تكون هذه العبارات حقيقة بالنسبة لي علي أن أراهما وأداعبهما وأحط حجمهما على راحة كفي وحلمتهما بين أسناني وأرضعهما بعذوبة. كان من المفترض أن نمارس الحب.

لم تكن تسمح لي بل تدفع يدي حين تحط على بطنها المكور. كم كان ذلك مؤلماً. ذهبت لأقرأ في غرفة الضيوف فلم تمنعني.

عانيت ككلبٍ. شعرت بالخزي ولم أجرؤ على أن أبوح لها لئلا أزيد الإهانة للخزي. ترى ماذا كانت لتجيبني؟ أن لا رغبة لها بي. بدا جسدي هزيلاً أمام جسدها الثدي المهيب الذي يضم حياتان لا واحدة فقط. قلبان ينبضان مبدئياً لكنني كنت أبحث عن قلبها عبثاً فهو لم يعد يخفق لي.

شعور الذنب يكتم أنفاسي. استحضر ليلة الحوت. أذكر نفسي وأنا استحوذ على ظرف حبوب منع الحمل وأدسه في جيبي. أخبرتني بأنها لا ترغب بالإنجاب لكنني عاندت القدر. هل هذا من صنع يدي، هل هذا خطئي؟

أمضت باز حملها ببهاءٍ متزايد. إمبراطورة في سريرها. تبدو كفينوس جانيتركس بقوامها الممتلئ وبشرتها المنيرة. إنها تشرق وتتجاهلني. أنا من يصيبني الغثيان.

كانت والدتك في أوج ثورتها. قررت في أحد الأيام أن أتحدث بالأمر مع صديقي باستيان وهو أبٌ محنك لطالما تباهى بذلك لنقل باعني سحر الحركات والجمال الذي يطرأ على جسد المرأة الحبيبة وإنه ارتقاءٌ لمستوى عالٍ بل مقدس في العلاقة بين الرجل والمرأة.

قال وهو يتجرع الميجيتو ومتكئ على أريكة بلونٍ أحمر فاقع: "لا تداعبك.الأمر سيان لدى كل النساء"

ابتلعت كل ما تبقى لي من حشمة وسألت:

- "لكنك قلت لي إن ممارسة الحب مع ساندرين إبان الحمل حملكما لحدود التجربة الرمزية؟

لاحظ أنني يائس فارتسمت تجعيدة على جبينه الكبير، أضاف: "يجب أن تتحلى بالصبر، سيزار. كما أن باز فنانة.

- أي إنها أقل من امرأة، هذا ما تعنيه؟

- بل أكثر من امرأة. صحح لي.

- أود أن أذكرك أننا لم نعد نمارس الحب.

هز رأسه. "ما زلتما في بداية الطريق لعلك لا تطمئنها"

رسم ابتسامة حائرة ثم أخذ ورقة نعناع وبدأ يقضمها. جواب غير واعٍ يعود لطقوس نبوة ديلف.

- هلا تنبأت لي بالمستقبل، باستيان.

- ماذا تقول؟

- لا شيء، أمزح. انسَ.

- سيزار الحمل هو عملية كيميائية قبل كل شيء...

- بدأت تصبح مملاً، خذ موجيتو آخر.

- سأنهي هذه الكأس بداية. أصغ إلي. يجب أن تتخيل جسدها كما لو أنه حفلة راقصة كبرى. يشبه إلى حدٍ ما هنا، مليء بالثريات والموسيقى. أو كنادٍ ليلي مع أناسٍ يتراقصون بسرعةٍ متزايدة. لا بد أن تتخيل مقطوعات موسيقية تتغير في كل وقت وتصعب مجاراتها. ننتقل من حفلة موسيقية على القيثارة إلى معزوفة الرومبا في الكونغو ثم نصغي لبراهمس بعد أغنية sex Pisto. هؤلاء الراقصون والراقصات هم الهرمونات تتمزج وتتحدى بعضها بعضاً... تحثُّ الهرمونات المحرضة: البرولاكتين والبروجسترون الغدد الثديية لتنتج الحليب والأوكيتوسين الذي يحل محل DJ يركز جداً على المناطق السفلية فهو المسؤول عن التقلصات وتتزايد قدرته حتى الطلقة الأخيرة..

- قبل إغلاق النادي الليلي بالضبط؟

- كلا فهناك رأس جديد يطل بعد بضع عشرات من الدقائق من انفجار المشيمة. كما لم أحدثك بعد عن الأندورفين.

- هرمون السعادة، أعرف يفرز خلال ممارسة المشي..

- أو نشوة الحب.

- يبدو لي المشي أفضل الآن.

ضحك باستيان ثم عاد لجِدِه:

- يُسكب الأندروفين في المخ خلال الولادة ليبقي مستوى الألم محمولاً. هناك شيء آخر أيضاً رائع: هذه الهرمونات تعطي السيطرة للعقل البدائي على العقل الواعي.

- هل تعني أن الولادة شيءٌ غير منطقي؟

- بدائي على كل حال. لأن العقل البدائي ولنقل الزواحف والذي يعود لحقبةٍ كنا فيها أسماكاً وعندما خرجنا من الماء عرفنا الولادة. هو من يسيطر على الخوف ويطلق الأحكام ويجعلنا نتجاوز الحدود العقلية فالمرأة الولود تسمح لنفسها بالصراخ وقبول وضعيات غريبة مرفوضة اجتماعياً.

منعت قهقهةً، ألانني شعرت بالضيق؟ أم تأثرت فعقل الزواحف ما نجح قط بالقبض على زمام السيطرة؟

تابع قائلاً: "العقل البدائي هو من يجعلك قادراً على الالتحام مع الكائن الموجود في بطنك والذي ستكمل معه هذا الإنجاز الكبير..

- هل لاحظت أنك قلت في بطنك؟

- حملٌ لثلاث مرات سيزار وكأنني أنا..

- لو أُتيح لك بيولوجياً، هل تقدم عليه؟

- قال يمسك بلوزةٍ وعيناه هاربتان في اللامحدود: هذا مشوق. هناك الجوانب المرهقة في الحمل وآلام الولادة المبرحة نعم باتت نسبية بإبر التخدير القطني ولكن هناك ذاك الرابط القوي الذي تنميه المرأة مع الطفل والذي يعجز الرجل عن تنميته.."

بدا عليه الغموض.

- ماذا تريد أن تقول؟

ابتسم: "سيعجبك قولي، سيذكرك بدراساتك العزيزة. قبل أن تضيع في الصحافة.. أتذكر ما قال بودلير عن المرأة؟

- "المرأة طبيعية، هذا يعني مقيتة"؟

- بالضبط. حسناً تخيل لو غير بودلير رأيه، لو عرف أن الأندروفين هو أفيون طبيعي بتركيب يشابه المورفين وأن المرأة تفرزه وتنقله لجنينها فهما متصلان أبداً بهذه العلاقة تقريباً مثل مدمن المخدرات وبائعه تبادلياً، من هنا تنشأ علاقتهما الراسخة..

- والتي لا يمكن لنا نحن الرجال منافستها..

- هاك! فهمت كل شيء. إذاً تحلَ بالصبر لاحتمال ألمك. ما يحدث الآن في جسدها سيدي ليس تمرداً بل ثورة.

- ما لم تقطع لي رأسي..

- موجيتو آخر، ربما؟

أدرنالين

نسي باستيان ذكر هرمونٍ آخر: الأدرنالين. الهرمون الذي يفرز في حالات الخوف والخطر، تراه غير واقعي، وهو يتدحرج في دمها ويسرّع من إيقاع قلبها ويزيد من قسوة ملامحها ويطلق العنان لغضب متكرر.

عدت فيما بعد. هل كانت نسخة للإرسال؟ أم اجتماعاً يستمر عمراً؟ أم حصاراً صعباً؟ نشرة مباشرة؟ خطف غريبٍ في الصحراء؟ كلا، بل موعد طال مع الفنان البلقاني الذي أستمع له مرة كل أسبوع لأسبر غموض النسوة ذوات الشعر الأزرق والبشرة الشاحبة مستخدماً طلاءً يمزجه برماد سجائره.

يحمل الهواء غبار الطلع والأوزون. استقليت الحافلة وتأملت المدينة المسترخية بين يدي الصيف وكل تلك الفتيات يرتدين تنوراتٍ وأولئك الصبية الذين لم يعودوا يرغبون بالتفكير بمعاهد متابعة الطالب ولا بالديون الكبرى الألمانية ولا بحلب المدينة السورية التي ينحرون بها بالسلاح الثقيل. حلب تلك المدينة حيث نعمت بحمام عثماني في أزقة المدينة القديمة ومساج حيوي مدّني بالطاقة بأنامل رجلٍ ضخمٍ بشوارب.

يرتدي أغلب الناس من حولي قبعات. أجل، من أجل الإصغاء للموسيقى ولكن أيضاً قبعات تفصلهم عن العالم عسى أن يتمكنوا من احتماله. نثر الهواء غباره في عين الشمس وأينعت أغصان أشجار مونهارت، صعدت الأدراج أربعة أربعة هانئ البال، لم يخطر لي ما سأجد.

كانت تجلس في غرفة الضيوف وبيدها MacBook وترتدي أحد قمصاني مفتوحاً عند بطنها المنتفخ كالبصلة. مشهد زوجتي هذا يكفي

ليغمرني بالفرح رغم أنغام "Nisi Dominus" من حولها. صوت جهير وسرقة حب وصوت المطرب المردد: أنشودة فيفالدي التي تزعم أنه من دون عون الله فلا شيء يستحق العناء ما يبث القشعريرة في جسدي.

سألتها: "هل كل شيء على ما يرام؟"

قفزت. لم تسمعني. أغلقت مباشرة الحاسب على فخذيها قرب بطنها. ثمينٌ كعلبة مجوهرات فلا بد من إخفاء الشاشة.

- نعم وأنت؟

بدا الغيظ على ملامحها. أجبت: "جيد جداً".

جلست بجوارها وضممت كتفيها ثم بدأت أحدثها عن الفنان البلقاني فطالما أحبت عمله. الصوت مرتفع جداً مددت يدي لأمسك بجهاز التحكم وأخفض الصوت. فهاجت: "ماذا تفعل؟"

- إننا لا نسمع بعضنا.

- بالأحرى أنت لا تسمع صوتك وكم تحب أن تسمع صوتك..؟

أصابتني الطلقة في رأسي حتى لم يتسنَ لي أن ألفظ رداً لائقاً.. فتمتمت: "اسمعي باز أنت تشاركينني يومي..

- وهل هذا يعطيك الحق لأنك قررت فقط بأن تكتم صوت ما أستمع له؟

- هذا ليس حقاً أحصل عليه...

أتت بحركةٍ عصبية وحدجتني بتلك العيون السوداء. آثرت ألّا ألح. أعدت الصوت لمستواه العالي كما كان. نهضت لأحضر كأساً.

قلت لدى عودتي إلى الصالة: "لن أعرض عليك طبعاً.

أجابت وهي تشد على كل حرفٍ وكأنها تقلدني: "طبعاً".

- هل من مشكلة؟

- أنت يبدو بالمقابل أنك على ما يرام: كأس نبيذك وهيئة الرضا ومقابلاتك..

- أصغِ باز. ماذا تريدين؟ أأحدثك عن يومي. احتسيت كأس نبيذ أين المأساة؟

- آه! ما من مأساة ولكن كان لك أن تسألني عن أخباري.

- هل تمزحين؟ ما إن دخلت حتى سألتك كيف الحال..

- بشكلٍ رسمي. لكنك بالحقيقة لا تكترث فعلاً، ما يعنيك شؤونك فحسب.

- كفى باز.. هل ذهبت اليوم إلى الأستوديو؟

هزّت برأسها ثم أمسكت الحاسب وغاصت مجدداً فيها تبحث. جلستُ على الأريكة من الجلد وسألت:

- أترغبين بالكلام؟

- كلا، أرغب في أن تتركني بسلام.

- لأن وجودي يزعجك، هنا؟

لم تتكلف عناء الرد، أمسكت بهاتفها الجوال وبدأت تعزف أي "تتواصل" كما يقولون.

ذهبت منفياً إلى الغرفة، تمددت على السرير وتأملت من نافذتي سلطان الصيف الأخضر على الطبيعة ونعمت بأريج النسغ المنبعث بسخاء من

الزيزفون والأكاسيا في "ماكيز". عدت بذهني للحقبة التي كانت الغابة تبسط جنحها على مونمارت بأكملها وهي تعجُّ بالأكواخ والمساكن الصغيرة حيث يسكن الهامشيون من العصر الجميل وقطاع طرق مكللين بنبات الدمسيس كخبراء بطعنات السكاكين. خطر لي موديغلياني وبيكاسو وفان دونغ الذين ترعرعوا في جو الحياة الفانية المشبعة بالملذات الجنسية والكحول وألوان من بواكير أعمالهم التي جعلت منهم ملوك عصرهم. استسلمتُ لنسمةٍ دافئة وأغمضت عيني. كم كنت أحب لحظات أحلام اليقظة هذه التي تعيدني لرجال ونساء الماضي. عملت حين كنت طالباً على تلك المرحلة التي كان لها عميق الأثر في نفسي لدرجة أنها تنبثق أحياناً ببساطٍ متألقٍ في بؤبؤ عيني. باريس ١٩٠٠ تدوي بغرابة وتكسر التقاليد ببعضٍ من السذاجة التي تجعل كل شيء ممكناً دون خطورة ولا ألم حتى دون نتائج ظاهرة. منذ ثلاثين سنة هكذا وغير بعيد عن سريري الذي يطفو بأحلام اليقظة فوق قوانين الزمن. في بار القطة السوداء هناك شاعرٌ شاب كثُّ الشعر يدعى موريس رولينات ينظم قصائد سوداوية جداً ومبالغ بها ينشدها مع عزف البيانو حيث يحطّ رأسه المنهك:

آهٍ! يا من تنفخ الأفيون في رأس طفلٍ
تتكئ قدماك مرتجفتين على ظهر النمر!

لم يحكم عليه بالسجن ولم تلاحقه الأحقاد على تويتر. خطر لي لقب الرسام الفرنسي تولوز لوتريك "الإبريق" أو "الدلة" لأنه طوله لا يتجاوز متراً واثنين وخمسين سنتيمتراً، أصيب بالسفلس فعبد برياب إله الخصوبة لدى الإغريق وما اتخذه بشكلٍ سيئ ولم يراءِ. كانوا يعرفون كيف يضحكون.

تطلق موسيقى "نيسي دومينس لفيفالدي" أنغامها الرائعة فتهتز حجارة الثريا الفينيسية. فتحت عيني ونهضت. نظرت لساعتي يدي، مرت ساعةٌ من الوقت.

مازالت باز أمام شاشة حاسبها لابد أنها تغوص في دهاليز موقع doctissimo.com عن الصحة أو موقع mamancherie.fr. ما تجرأت يوماً أن أتخيل فيما تستغرق.

- ماذا تفعلين؟

- أجابت: أشياء.

ساعةٌ مرت لم يتغير شيء.

- شكراً على المعلومة. ألست جائعة؟

- أتنتظر أن أحضر الطعام بينما تنام أنت؟

لم تكن تنقصها الوقاحة.

- لا أنتظر شيئاً. هل تشعرين بالجوع؟

لا جواب. حضرت لنفسي قدحاً واتجهت إلى الفرن. وضعت المائدة ومازالت موسيقى فيفالدي تلف بحلقات. الآن تدوي ستابات ماتر غناء أم تنوح أمام جثمان ابنها المصلوب. كاد الطعام يجهز.

ناديت من عتبة الصالون: الطعام جاهز. هلا أوقفتي الموسيقى الآن؟ أو فلتغيريها ولكن أوقفي هذه لو سمحتي.."

اعتذرت وهيمن صمتٌ مرحبٌ به. تغرد العصافير على الأشجار. نهضت واضعةً يدها تحت بطنها وكأنها تريد أن توازنه. قالت: "سأعود"

حاسبها ملتفٌ كالهرة على الأريكة المصنوعة من الجلد مغرٍ جداً. هـذا سيئ، أعلم أن علي احـترام خـصوصيتها. هـذا سـيئ لكنـه مفيـد. أود أن أعرف ما الذي يعكر مزاجها ويجعلهـا مشاكـسة. أريـد أن أمـسك بيـد أن أمسك بإشارةٍ واحدة. أعراضٌ تقلقها؟ أمسكت الجهـاز الـصغير ورفعـت الشاشة فأضاءت فوراً. لكن الصفحة التي كانت تتصفحها لم تكن موجودة فدخلت إلى اختيار المفضلة، حيث تتـدخل الزوجـات بـافتراض أن يجـدن السبب الذي يمنع أزواجهن من ملامستهن ليكتـشفن أنـه يفـضل صـفحة YOUPORN. كثيراً ما يدخل هذا الطمأنينة لأنفسهن إذ ظنن أن في حياته عشيقة.

لم أجد أفلاماً خلاعية بل أسوأ من ذلك. اكتشف أن باز تبحر منذ أشهرٍ على مواقع خاصة بتكاثر أسماك القرش. عـوض أن تعـرف سـلوك جنينهـا وكيـف ينمو، كانت تتجول يوميـاً علـى موقـع vingtmilleoeufssousiesmers.com والذي يقدم مع الكثير من التفاصيل عن التطور الجنينـي لأسـماك القـرش والاختلاف بين الأنواع البياضة والولـودة والـسرلود. تعلمـت أن أسـماك القرش تلد بالطبيعة وفق كل النماذج المقترحة. رنـين، أقـرأ بمـيلان. لـيس لدي سوى بضع دقـائق سـتعود. تتعلـق البيـوض حلزونيـة الـشكل عـلى الطحالب حين تكون الأسماك بياضة وتفـرخ في بطـن أماتهـا حـين تكـون الأسماك ولودة أو سرلود. هناك بعـض الأنـواع مثـل القـرش الثـور تأكـل الأجنة بعضها بعضاً داخل الرحم. ففي الرحم العديد مـن الأجنـة، يلـتهم الأقوى إخوته وأخواته ليكون الوحيد لدى الولادة. صعقت وأنـا أتخيلهـا حبلى وبطنها الكبير أمامها فيه مولودنا وهي متعلقة بهذه المعلومات المريعـة عن حياة الزواحف. صفحة المفضلة تحتوي مواقع مثل:

أو magicmaman.com أو àmillelieuesdedoctissimo.fr
.healthyoceansneedsharks.com أو reproductionsquale.com

هبط الضيق عليَّ وكأنني ممن يعتنون بها. تناهى ضجيج الصيد لمسامعي. لم يعد لدي متسعٌ من الوقت. يمكنها أن تحذف كل شيء بكبسة زر.

لفتني عنوانٌ في صفحة المفضلة: أعجوبة قرش الحمار الوحشي في ولادةٍ عذرية. صار الأمر مدعاةً للجنون. في حوض سمك في أحد أجمل الفنادق، أنجبت أنثى قرش تدعى زبيدة خمسة قروش بصحةٍ ممتازة بينما لم تكن برفقة قرشٍ مذكرٍ.. جميع صغار زينب من الجنس نفسه عدا والدتهم. إنها خصوب بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. ماذا تبحث باز في هذه المواقع؟ بدأ رأسي يدوي. يضيف المقال إن حالة التوالد بلا إلقاح هذه تفسر لماذا ومنذ أربعة ملايين عام تمكنت أسماك القرش من اجتياز آلاف السنوات دون عائق ومازالت تفرض قوانينها في المحيطات في حين أن العديد من الأنواع الأخرى قد اختفت. الهيدريات المائية ذات الرؤوس التي تنمو دون توقف...

سمعت وقع خطاها في الممر، أغلقت الحاسب مصعوقاً.

سألت وأنا أسكب لها صحناً من المعكرون: "ماذا فعلت اليوم؟". لم أضف رغم أن الشهية لم تكن تنقصني وتابعت: "عدا تفحص مواقع علم الأجنة الخاص بأسماك القرش..."

قالت هي دون أن تتكلف عناء النظر نحوي: متى تنوي الاهتمام بالغرفة؟

- هلا أجبتي على أسئلتي؟

- كلا، فهي متخلفة: ماذا فعلت؟ أنت تعرف حق المعرفة أنه لم يعد بوسعي أن أعمل... ماذا أفعل؟ أبقى طيلة الوقت هنا وأحمل ابنك.

الطبيعة سيئة الخلق، أدفع الغالي والنفيس وأتمكن من أن أجيبها وأحمي نفسي فقط من ملاحظاتٍ كهذه: "حسناً، غداً سأكون أنا، اتفقنا؟" لعلنا نتوصل لهذا في العشرين سنة القادمة. بماذا عساني أجيب؟

وضعت يدي بدافع الحب على يدها. وضعت بين شفتيها حبة طماطم صغيرة مدهونة بزيت الزيتون المعسل وكررت السؤال:

- وماذا عن الغرفة؟ متى ستتولى أمرها؟

- مازال أمامنا أربعة أشهر..

- في عطلة الأسبوع هذه؟

- هذه العطلة! كلا، لا يناسبني، لدي...

ما إن تفوهت بهذه الجملة حتى قفزت لتكملها عني: ورقة لأعيدها؟ برنامج سياسي؟ مقابلة مع وزير المواصلات؟ أو المحاربين القدماء؟ هذا لا يناسبني... هذا كل ما يمكنك قوله لامرأة حامل؟ هل أنت رجل أم ماذا؟ كززت على أسناني. هذه المسرحية الجديدة، التشكيك بالرجولة. النزاع على تمثال الرجل. طيلة اليوم وأنا في العمل بيد أنني ما واجهت نمراً بأنياب حادة كالفأس ولم أضع شيخ القبيلة على الخازوق إثر نزاعٍ على فخذ غزال... كل ما قمت به هو أن مررت إلى متجر "Franc prix" وابتعت نوعاً من لحم الخنزير. الجملة صاعقة لكنها نتاج الحياة العصرية.

في عطلة الأسبوع إذاً، أولينا اهتمامنا لغرفة النوم. أحضر الحمال السرير الذي أمضت طيلة الأسبوع باختياره. لكنه لم يعد يعجبها والخطأ خطئي. الغدد الكظرية تفرز سيولاً من الأدرنالين في جسدها.

قلت: "يمكننا استبداله"

كررت الجملة وهي تقلدني بوقاحة وهي تغير نبرة صوتها: "يمكننا استبداله..."

هذا كل ما وجدت لتجيب؟ لماذا لم تخبرني أن هذا السرير سيئ لهذه الدرجة! ألا رأي لك؟ هل علي أن أتولى أمر كل شيء! انظر لهذا اللون، تباً!

- أتدرين أن أمامه متسعٌ من الوقت ليكبر ويكترث للألوان...

رمقتني بنظرةٍ مصدومة وكأنني أخبرها بعزمي على ثقب حلمتي.

- أنت أحمق أم ماذا؟ اللون لنا نحن! وهذا السرير ابن العاهرة سيبقى تحت أنظارنا لسنتين!

- لكن هذا اللون الكريمي جميل جداً.

- السرير ذو لون الشوكولا أفضل.

- يمكننا استبداله.

اتصلت بالمتجر فاستبدلوا السرير بآخر بلون الشوكولا على جناح السرعة فالسعر الباهظ الذي يبيعون فيه أثاثهم يحتم عليهم أن يعودوا بنشاط حاملين ذات الموديل ولكن بلون الشوكولا. ثم كان هناك الصوان. أجهشت بالبكاء فحضنتها وجلسنا على سرير الشوكولا.

- اذهب سيزار..

- ماذا تقولين؟ بسبب صوان؟

- أنت تعرف حق المعرفة أن الصوان ليس السبب.

- ماذا إذاً؟

أجهشت بالبكـاء مجـدداً: "أنـت لا تبـث الطمأنينـة في قلبـي". لم أعـد استوعب شيئاً: "الموضوع يتعلق بأن تكون أباً لا أدري إن كنت تدرك...

كان علي أن أجيب بما يليق: أنا أدرك الأمر تماماً، أنا لا أسمح لك..

تنهدت وهي تمرر يديها في شعرها. تخربطت تقاسيم وجهها. قذفتني هنا بقنبلتها الذرية: "أفضل أن ترحل. أنت لم تخلق لتكون أباً. ستكون أباً سيئاً.

عص قلبـي كالمعـصم. كنـت منهـاراً وغاضـباً ومحرجـاً. البقـاء يعنـي إزعاجها ومن السيئ إزعاج امرأة حامل. الرحيل يعني الإطاعة والحد مـن الإزعاج لكنه جبنٌ. الرجل الذي لا يقاوم.. كما أنه من بـاب المـسؤولية، لا يجوز ترك امرأة حامل بمفردها.

جرت على نفسي وقلت: فلنهدئ من روعك ما هو سوى مجرد صوان..

خطأٌ بالحكم أو باللغة. هزت رأسها وقالت: قطعاً أنـت لا تفقـه شـيئاً. ارحل، أرجوك.

- ما عاد أمامي خيار فالبقاء يعني أن أضـيف درجـة عـلى مقيـاس ريخـتر لعدم حبها لي.

فتح باستيان الباب لي وهو بسرواله الداخلي. كانت الساعة قد تجـاوزت الواحدة صباحاً. أغرقت حـزني بالبـدء ببـضع كـؤوس مـن الكحـول كـما تقتضي الحاجة. لم أعد امتلك القوة ولا الرغبة لأبحث عن فنـدقٍ. كـما أنـه وحده مع ثلاثة أطفال، ذهبت ساندرين في مؤتمر في تور.

- ما ترتب الوضع.

- آه! كلا.

لا رغبة بالتطور مادام يرتدي سروالاً برسمة أشجار نخيل ذكرني بالفيديو في جزر المالديف الذي أريته لباز "من قضيبك تُخلق الفوضى"

سألني وهو يجلس على الأريكة: أنت من رحل؟

ما أجبت، أخذنا قدحاً، قدحان. لم يكن بوسعي قول شيء... لا أنها نعتتني بأنني لست برجل ولا أنها تبحر منذ ثلاثة أسابيع في مواقع تعنى بالتطور الجنيني لأسماك القرش. كان بوسعي أن أقول لأثبت حقي ولكن ما كنت أرغب، أشعر بالعار بكشف هذا الحدث الذي يضع باز بصف الهُبلِ.

أجبت مهاناً: لا شيء يذكر.

- كما تشاء.

بقينا صامتين. هدأني الكحول رويداً رويداً. وزاد هدوئي بفضل الديكور المحايد في غرفة الضيوف حيث سأنزل بعد بضع لحظات. رائحة الشراشف لا تشبه رائحة شراشفنا ولا غسيلنا. فراشٌ أكثر قسوة أو أكثر طراوة لم أعد أدري. كان بوسعي بالطبع الذهاب لفندقٍ ولكن يرعبني طعم الرماد الذي سأشعر به في فمي عند الفطور وما كنت أرغب بمواجهته وحدي.

نمت بشكلٍ سيئ حتماً. أغمض جفني ألاقي الوضع الضوئي لأرى بيوضاً شفافةً يتحرك فيها ذيلُ قرشٍ معلق برأس جنين إنسان.

على طعام الفطور، كان هناك شمسٌ وشوكولا بالحليب. كانت تلطخ فم الصغير ذي الثلاث سنوات. أما الفتاتان، بعمر السبع وعشر سنوات

فكانتا تتذوقان الحبوب بالعسل بالملعقة وتتفرسان بي وكأنني من أصحاب السوابق.

لماذا أنت هنا؟

صعد باستيان حاملاً كرواسان: لأنه يرغب برؤيتكما يا فتيات.

- هل زوجتك هنا؟

- كلا، ليست هنا.

- قال باستيان: دعا سيزار وشأنه. إنه هنا لأنه رغب برؤية صديقه العزيز.

عادت الرؤوس الثلاثة الشقر لتغطس في الشوكولا. كانوا شقراً بقدر ما هو أسمر. طالما سخرت منه لأن مورثاته تقهقرت أمام مورثات ساندرين في حين أنه من المعروف أن مورثات الشقار هي المتنحية "ليس لك سلطة، لا سلطة لك ماذا تريد..."

أخذت حماماً طويلاً وأعدت ملابسي التي لم تعد لها رائحة التبغ منذ أن مُنع التدخين في البارات، ولكن هذا جيد على كل حال. بالحقيقة تفوح رائحة الكآبة. هزت رسالةٌ جوالي: اعذرني.. بالخط العريض.

استعدت زوجتي. قبلت صديقي ونسله الأشقر. عادت للطريق ألوانه واختفى عبق الكآبة عن ملابسي.

أندروفين

كانت تجلس على الأريكة العميقة حين وصلت، حاسوبها الأبيض على فخذيها، ترتدي "تيشرت" كُتب عليها FUCK GOOGLE ASK ME. درت حول الطاولة المنخفضة عليها صحنٌ فيه قطعٌ من المانغو، جلست بقربها فأخفضت شاشة حاسوبها. هاجمت هذه المرة: هل ترغبين في أن تخبريني ماذا تشاهدين؟

طرحت السؤال بأقل عنفٍ ممكن ولكن جعلتها تفهم بالصرامة التي لفظت بها كلماتي أنه الآن من الضروري أن تجيب على سؤالي خشية وقوع أزمة جديدة. ازدوجت لئلا أهول الاستجواب كما في الأفلام الأميركية، شرطيٌّ شديدٌ يطرح الأسئلة وآخر لطيف يبتسم ويقترح فنجاناً من القهوة. المحقق اللطيف يعبث بالصحن حيث قطع المانغو كثيرة العصير حسب الطلب.

لاحت تجعيدةُ ضيقٍ على جبين باز الجميل، تنتقي بما ستعترف: استعلم عن أخبار نور.

- نور؟

قالت كطفلةٍ صغيرة تمت مباغتتها ويدها على وعاء المربى:

- قرشي.

- وابننا نحن، كيف حاله؟

ألقت رأسها للخلف وتمطمطت: إنه بخير كنزي، لا تقلق..

- آه، حسناً بالطبع أنا قلق فقلما حدثتني عنه.

ابتسمت لي وبدأت تداعب بطنها بكل هدوء.

- قلما حدثتك عنه لأنه هنا مرتاحٌ في الدفء. بالنسبة له، كل شيء على ما يرام. بينما نور..

توقفت للحظة واجتاح القلق فجأةً تلك العيون السوداء مما بدء يقلقني بدوري. تابعت: "بينما نور بخطر كل يوم.. صياد، شبكة.. هاك، انظر".

فتحت حاسوبها، ظهرت خارطة على الشاشة، يمكننا أن نميز بجلاء رسم خط الشاطئ مع أسماء أماكن مختلفة باللغة العربية. في عرض البحر، في عمق البحر الأزرق، هناك سلسلةٌ من النقاط الحمراء تجتمع على خطٍ.

- هذا خط سير نور؟

- أجل، يمكنني أن أعرف أين هو كل يوم.

ابتسمت بحزنٍ وهي تنظر إلى الشاشة ثم خلصت للقول: "لا أريد إزعاجك بهذا". وفي عينيها بريقٌ محيرٌ.

- أنت لا تزعجينني بل تثيرين قلقي في بعض الأحيان.

أخفضت عينيها، آخذت نفسي. حقاً لا رغبة لي بدراما. أنا متعب.

ذهبت لآخذ حماماً. ملابسي القديمة في السلة. حين عدتُ مدثراً ببرنسٍ ناعمٍ كالاهتمام الذي وددت أن أوليه لها، لمحتُ مجدداً غيمةً ثقيلةً تعتم نظرتها.

- لماذا تقول إنني أثير قلقك؟

جلست بقربها:

- ولكن لا، أنت لا تثيرين قلقي..

- بلى، قلت هذا للتو.

هذا جنون، يصعب متابعة رقص الباليه الهرموني هذا.

- انسي..

وضعت رأسها على كتفي. فتحت ساقاي وفُتح البرنس لتغوص يدها المعطرة بعصير المانغو.

عثرت على زوجتي. كان لي الحق في الولوج بها. لحقت بي قبل شهرين من الولادة إلى برشلونة. قدحٌ على قمة فندق W المبني كشراعٍ هائل وسط البحر. يرتدي صبية البار زياً بلون فاكهة الكاكي وبيدهم سكاكين طويلة. لتحضير الكوكتيل، لم يكونوا يقطعوا الفاكهة بل يقسموها ليسيل العصير غديراً حلواً على البار. كانت السماء ذهبية. مثل شوبان وجورج ساند. مثل ملك إسبانيا الذي ظل دوتها رغم مشاكل الصيد الخاصة في إفريقيا. وصلنا إلى كورسيكا من هناك حيث استقبلنا صديقنا هنري واقترح أن يقلنا بالقارب. رفضت على الهاتف بسبب وضع باز ولكن هي عاودت الاتصال به لتقول إن هذا مناسب بل أفضل من ركوب الطائرة. يمكننا التوقف لدى وقوع أي مشكلة. رضخت.

في ماجورك، عدنا لمشروعنا "كتابٌ حول ما سيختفي". كانت الشمس شديدة لدرجة أنه راودنا انطباعٌ بأننا نرى الليمون ينبت.

ما سيختفي في ماجورك:

- قهوة مواكست من مدينة بولينسا وعبوتها المعدنية وأولئك العجائز الذين يعيدون صنع العالم تحت لافتة ضوئية لبيرة إيسترلا.

- مطعم كاس باترو مارش في ديا والمعلق فوق البحر اللازوردي في ظل جبال سيرا ترامونتانا حيث نتلذذ بتناول الأخطبوط المشوي ونحن نرى الصبية يترامون في المياه الرقراقة من أعالي الصخور كما في أكابلكو.

- المواكب من أجل القديسة كاتالينا في فالدوموسىٰ مع الصبية الصغار الذين يرتدون ملابس كالملائكة الزرق وعلىٰ ظهورهم أجنحةٌ ورقية مغطاة بريش حقيقي.

- الحياة المتوحشة علىٰ خلجان شبه جزيرة فيرمانتور. بكرٌ وهادئة جداً في السياحة العالمية التي أعدمت غرب الجزيرة.

كان هناك لحظات أقل سكينةً حيث قلقت علىٰ أعصابها وبطنها. مثلاً في إحدىٰ الأمسيات، كان غروب الشمس رائعاً بأنالبوفار. كنا نرشف قدحاً علىٰ شرفة الفندق وأمامنا منظر العرائش تتدلىٰ نحو البحر. غابت باز للحظة. بالقرب منا، جلس ثلاثة سياح إلىٰ المائدة، الزوجان بالخمسينات وابنتهما بالعشرين من العمر. ما كانوا يتحدثون، كلٌّ منهم في جواله، الوالدان كالفتاة. نهضت الأم واتجهت نحو الدرابزين المطل علىٰ الكرمة والبحر وأسندت ظهرها وأدارته للكوكب البرتقالي علىٰ أهبة الانحلال في المياه. لوّح الأب بجواله والتقط لها صورة وكذلك فعلت الفتاة من دون أي كلمة وصورت والدها الذي يصور والدتها. دعيت ألا تأتي باز. هذا أمرٌ عاديٌ لكن هذا النوع من المعدات يغرقها بكره ذاتها. سألتني في الصباح ذاته: "هل تعرف كم صورة يتم التقاطها بيومٍ واحد؟" حين كان عشرات المتسكعين قرب رأس فورمانتور يخلدون علىٰ شاشات جوالاتهم مشهد السيارة التي انسحقت في الوادي. هل لديك فكرة؟ تم حسابها: عشرة ملايين! - هذا لا صلة له، إنهم يسجلون رعشة، يحتفظون بابتسامة أو طفل، يسجلون حبهم.. نظراتهم مثلي. أصبح كل الناس مصورين اليوم. بارر محق. سأعتزل عملي.

منذ خمسة عشر يوماً، هاجمت مارتن بارر بوحشية وهو أكثر المصورين شهرة في العالم، هندباء بحجمٍ بشري وفم بشكل سحاب لامع ويعشق تصوير القباحة المعاصرة. كان ذلك في لقاءات آرل قبلة فن التصوير حيث قدم بارر معرضاً للكليشات على الإنترنت منها التقطته قطة بعد أن عُلقت كاميرا تصوير حول رقبتها. زعم أن هناك المزيد من الصور متاحة على الإنترنت تحتاج حياةً كاملة لمشاهدتها لذلك يجب الكف عن تصوير المزيد والاكتفاء بالبحث على الشبكة والقيام بنسخ ولصق. "لماذا نكلف أنفسنا اليوم عناء الخروج لتصوير غروب الشمس في حين تكفي كبسةٌ للدخول إلى الشبكة والعثور على ملايين المناظر لغروب الشمس؟ والبعض منها أجمل من تلك التي ستنذر لالتقاطها يوماً بحاله؟ هذا ما قاله في مناظرة حول "مستقبل فن التصوير" والذي دعيت إليه باز أيضاً.

جلست على المسرح مع البقية شدت ظهرها على المظلة الأولمبية التي تفجرت بحرارة الريف، التزمت الصمت لوقت طويل قبل أن تنهض وتوجه له انتقادها اللاذع بأنها تجده "مثيراً للشفقة" وأن البعض هنا قطعاً يحاولون الاستمرار: "لن يكون بالأمر السهل ولكن نعم، سنحاول أن نتنافس مع القطط ومع التفاح وأجهزة الحاسوب. سنحاول ألا نتصارع في ميدان الحماقة وأن نرى عمق العالم باستخدام عيننا بصدق قدر ما تتطلب وربما بسذاجة إن لم تكن هذه الكلمات ممنوعة في مناظرة" أذهلتني قوة شخصيتها وجرأتها. ساد الصمت ثم طوفانٌ من التصفيق والتصفير.

سبحنا في مياه كورسيكية متحاشيين سياط قناديل البحر. وافانا هنري بالقارب إلى ماجورك. مازالت قدما باز الجميلتان بأظافرها المقلمة والمطلية

تعنّ على بالي ونحن على جسر الراتينج، كان يعتريني الخوف ألا تنزلق ببطنها الكبير أو تدفعها ريحٌ عاصفة نحو الغيوم. نعمنا بعبورٍ هانئ ومحبب. يا ليالي المرسى في خلجانٍ محمية. يترنح القارب بهدهدة النوم والسباحة في المياه العذبة قبل تناول طعام الفطور. تلك السهرات الطويلة في حضن القارب تراقبنا النجوم وباز غافية مخدرة بأشعة الشمس الميمونة ومداعبات الماء الرقراق. قاربٌ صغيرٌ ومتعةٌ كبيرة. بشرتنا متخمة وعيوننا جاحظةٌ من النور وسط الأمواج أما معدتنا فتغمرها فرحة وجبات طعام بسيطة مشبعة بالمغذيات الدقيقة من أقدس أعماق كوكبنا: السردين من ساريناج وسمك البونيت من بونيفاسيو.

منزل هنري الخشبي هناك. هنري ذاك الرجل الأصهب غريب الأطوار، عيناه لامعتان وكبير القامة. يتمتع بطبيعةٍ مرحة وخلّاقة. يعيش حالة طارئة ليشعر أنه مشغول وهو في الخمسين من العمر. خضع لتنظير قولون فراوده شعورٌ بالإهانة ما زاد تعلقه بعبارة: "علي أن أعيش حياتي وبسرعة! كم بقي من العمر؟ عشرون عاماً؟ تسهر كارولين، زوجته، لملء جدول حفلاته الصيفية خشية أن يفجعها هنري الكسول بكآبته. كان يصطاد بالشبكة ونظراته ككلبٍ تعرض للضرب وكتفاه مقوستان في حين تتساقط أوراق الأوكالبتوس في المسبح. لمعت عيناه وكأننا لم نجتز الثانية عشرة بعد حين اقترحت له أن نرى من يمكنه البقاء لمدة أطول حابساً أنفاسه تحت الماء.

في المساء، حضر العشاء مع النبيذ والسمك وأطباقٍ تنيرها برامج جميلة تضفي على الحوارات ألحان تناغمٍ مرح. أمضينا أوقاتاً ممتعةً. انضم إلينا فيما بعد معلنٌ سابق كان يعيش في سويسرا لا حباً بالجبال مع أنه رياضيٌ وسيم

ثم باع وكالة الإعلان الخاصة به ليولي اهتمامه لمزارع بن في كولومبيا. أطال الحديث مع باز وسمح لنفسه بأن يلتقط صورةً لبطنها دون أن تجد عبارةً للرد عليه. قال: "لا يجوز أبداً أن نحرم أبصارنا مما هو أساسي" كان شاباً لطيفاً لكنه يتفوه بعبارات غريبة مثلُ: "ربحت حياتي إلى أن خسرتها".

قالت لي باز: "إنه جذاب ألا توافقني الرأي؟" بينما كانت ممددة على السرير تداعب بطنها الذي أصبح بحجم خوذة الدراجة النارية. أنا كنت أبدل ملابسي، قلت: جذاب؟ أنت تبالغين بعض الشيء، أليس كذلك؟

اتكأت على مرفقيها وقالت: جميلٌ أن يعيد تشكيل حياته هكذا؟

رسمت ابتسامة بامتعاض: أن يربح حياته حد الخسارة؟

- راقت لي العبارة.

- تقصدين اللازمة.

خلعت سروالي ووضعته على كرسي خشبي ذكرني بمقاعد المدرسة في نورماندي. قالت: يبدو لي من الحري قول لازمة "خسرت حياتي حتى ربحتها"

- شعارٌ يعود لأيار ٦٨

- شعارٌ قلب مفاهيمه.

- يبقى شعاراً لا فلسفة. نوعٌ من الحماقة مثل "تحت بلاط الشاطئ" أو "كل شيء سياسة". هل لاحظت أنهم يستخدمون نفس الكلمة "شعار" سواء في مظاهرة أو إعلان؟ مع أن من هم في الثامنة والستين يستحوذون علينا بتظاهرهم أنهم سئموا من المجتمع الاستهلاكي.

- لا أحد يقع بحب معدل نمو اقتصادي، كان جيداً أليس كذلك؟

- ما قلت: إنه غير موهوب.

- هذا لا يمنع أنهم قضوا أوقاتاً ممتعة.

- المشكلة أنهم لا يريدون إيقاف ذلك أبداً ويملؤون الصحف: الاستمتاع دون أي عائق حتى النهاية ويتعلقون بالفكرة حتى تكاد تصبح متعة دون استمتاع.

قلت ذلك وأنا اتجه إلى الحمام. ضحكت وقالت: كم أنت أحمق، حقاً لماذا تحب أن تتمشى عارياً هكذا؟

- هذا الجانب الألماني في شخصيتي.

ضحكت وقالت: وهذه لازمة أيضاً.

قلت وأنا أضع معجون الأسنان على الفرشاة: أنت محقة أيتها الإسبانية المعتدة بذاتها.

- أنت تضحك ولكن أنا أحب اللازمات. تتعرض دائماً للانتقاد ربما لأنها تقول الحقيقة.

- أه! أجل؟ أنت ترقصين الفلامينكو؟ تحبين مصارعة الثيران؟ هل أضع قبعة؟

- كلا ولكنك تعرف كل شيء عن كل شيء ككل الفرنسيين. أما فيما يتعلق بالفلامينكو أو مصارعة الثيران فهذا يعني أننا نحب الموت والمقدسات واللون الأحمر والمأساة. آه حسناً، هذا صحيح ومعنى الاحتفال أيضاً، اعترف أننا في إسبانيا نمتلك هذا الحس حتى عندما لا تسير الأمور على ما يرام. أما أنتم الفرنسيون فمشاعركم باردة ودائمو الشكوى.

لم يكن لدي ما أجيب به لأن معجون الأسنان يملأ فمي ولأنها محقة. تابعت حديثها متمددة ويدها على بطنها المكور كالكرة الأرضية وكأنها تجوب بأفكارها ثم تابعت: "كل هذه اللازمات لنقول إن القهوة الإيطالية

شهية، أليس كذلك؟ مع أن هذا واقع فالقهوة الإيطالية لذيذة. ولنقول إن الشعب الألماني أكثر تنظيماً من الشعوب الأخرى؟ وهم يقولون "ضمن النظام عوض أن يقولوا حسناً! ولنقول إن الفرنسيين يشعرون أنهم متفوقون ولدي أكثر من ثلاثين مثالاً أعطيها عنك وعن طارق فأنت تعطي دروساً لكل الناس. أترى أن "اللازمات" صحيحة لهذلك أعشقها.

قلت وأنا أغلق الصنبور: - أنت مصورة وتعلمين أن العالم حسن الصنعة.

ضحكت مجدداً. كانت سعيدة والشمس تلقي بلونٍ ذهبي على بطنها. كم تبدو هذه المداعبة الحارة لطيفة في الداخل! كانت تسبح كل يوم حتى حل عبق الملح محل كلور المسابح. كانت تسبح وأنت في أحشائها. أدفع كل ما لدي مقابل أن أعيش هذا الحمام المضاعف. أنت تسبح في بطن والدتك وهي تسبح في البحر مثل الدمية الروسية لكنها مائية.

في إحدى الأمسيات، ذكرني هنري "بالمناطق الرمادية" وهو مشروعٌ خططنا له في لقائنا الأول خلال احتفال في كابول حيث حصل على حمولة أزياء المسرح الفرنسي التي أوصى بها من أجل المدارس المحلية ليعمل على تطوير النشاط المسرحي. كان يضع شعراً مستعاراً مثل لويس الرابع عشر ويحتسي الويسكي ويرقص على أنغام أغنية "please stand up" للمطرب Eminem تطلقها حجرات صوتية هائلة. مازلت أذكر الكلاشينكوف المرمية أمام البوابة في حين أصحابها ثملون في الداخل. كان يكفي رمي رمانة من أعلى الجدار لتتبعثر الأجساد البشرية التي ترتدي ملابس ثمينة مضحكة في ليلٍ أفغاني مظلم.

قلت له ونحن نشرب نخبنا: إنني أشعر بأن العالم بأسره يتشظى ويتفتت لأجزاء خبيثة وأن المناطق الرمادية ترصع نصف الكرة الأرضية وأن هناك مناطق بأكملها تغيب عن رادارات الإعلام. أشرق وجه هنري تحت شعره المستعار. جاء من كردستان العراق حيث بنى سينما منفوخة وسط مركز إربيل ليعيد تمثيل "cinema paradise" في هذه الأراضي حيث اختنق ٢٠٠ ألف مواطن بالغاز على يد علي الكيماوي ابن عم صدام حسين. يمكننا فعل شيءٍ في هذه المناطق المفقودة. كان يرغب في أن نذهب إلى أبا غازي أو أوسيتيا الجنوبية وبونتلاند وإريتريا ومئات الجزر التي ترسم الحدود بين أندونيسيا والفلبين أو في تلك المدن اللعينة لاغوس وسانا لنلتقي بكل أشكال المخلوقات والتراث الذي قد نعثر عليه لنحصيها ونساعد في تطويرها إن لم يكن الوقت قد استدركنا.

قال لي تلك الأمسية وهو يقدم لي نبيذاً أبيض: "دعني أذكرك أنك أنت صاحب الفكرة".

- كنت ثملاً وألقي شعراً.

- تبدو ظريفاً وأنت على تلك الحالة، سأعمل جاهداً لتجد نفسك على تلك الحال. تلك المناطق التي لا يأتي أحدٌ على ذكرها حيث يتعطش شبابها للخلق والموسيقى والزخرفة والرقص والأدب ويتوق كبار السن فيها حتماً لنقل فنهم قبل أن يغير وجه العالم كلياً. يجب أن ننطلق بسرعة يا سيزار فالحياة قصيرة.

- هل تريد اختصار الفكرة؟

- كف! بل يمكن لباز أن تأتي وتلتقط صوراً حقاً سيكون ذلك شيقاً ونافعاً للأجيال القادمة. ألا يعنيك قدوم باز؟

احتسيت قدحي. تفحصتني باز بنظرة من عينيها. تحداني هنري فهو يعلم وزوجته كذلك، قالت له: هنري دع سيزار وشأنه.

وضعت كأسي جانباً وتابع قائلاً: فكر بالأمر.

- فكرت بكل شيء.

- وجود باز يغير كل المعطيات أليس كذلك؟ طبعاً بعد الولادة. ابتسم وقال: "ألا يعنيك أمر باز؟" رمقته كارولين بنظرةٍ ناقمة وحاولت تغيير الموضوع: - أيرغب أحدكم بتناول هذه السمكة الشهية؟

حري بك الموت هنا على أن تطأ تلك الأراضي، كف عن هذا السلوك الغريب، مخدر كالأطفال الأوروبيين المدللين الذين لا يقدرون قيمة ما بين أيديهم. استشطت غضباً وحاولت أن أهدئ من روعي.

استمر هنري بالتحديق بباز واستنطاق عينيها، مضت لحظات طويلة قبل أن تجيب وهي تحدق بي: "طبعاً يستهويني الأمر"، أشحت بناظري وقلت: "نعم أود تناول المزيد من هذا السمك الشهي"

أمضينا فيما بعد أمسيةً مضنيةً إذ كانت أبوابي موصدة واتخذت موقفاً معادياً. لطالما لامتني باز على قلة إحساسي بينما أبذل جهدي لأسيطر على خوفي وغضبي. غضبي من أن يراودني الخوف وخوفي من أن استشيط غضباً. هل كنت أسيراً؟ كلا سبق أن قلت لك، لم أعد أرغب بالمغادرة ورؤية العالم؟ لقد اكتفيت بما رأيت. أطلق إرهابيون ملثمون كالبدو النار على خفر الحدود المصريين في سيناء، في شهر رمضان وفي لحظة الإفطار المقدسة. تلك الوجبة التي ينتهي بها الصيام ويتناولها الجميع معاً لدى غروب الشمس. لم يخطر للصبية المساكين الذين وضعوا أسلحتهم جانباً سوى أن يعيشوا اللحظة ويهنؤوا بلقاء ربهم وهو نفس رب قاتليهم الذين

لا يفتئون يلفظون اسم الله بينما ما احترموا حتى وقت الهدنة.. كلاب. عندما أفكر بسيناء استحضر شروق الشمس الوردي قرب دير سانت كاترين بقممه من الغرانيت حيث لاقى موسى الأبدية بينما ما لاقى خفر الحدود في مصر سوى رصاصة بالرأس.

لمت باز. في الغرفة: "*كنت أود*... وكأنك طفلة، لا يحق لك ذلك.

- رأيت حتى هنري..

- أنا لا أعيش مع هنري.

- ولكن هذا غير معقول، سيزار.

- حضنتني فجأة وداعبتني ثم حطت رأسها على فخذي فداعبت شعرها.

- إننا محظوظون جداً، هل تعلمين؟ ما رأيت شكل الخارج كيف يكون..

- كف عن قول "الخارج"! إنه نفس العالم!

- كلا، إنه ليس نفس العالم. لا أرغب في العيش كصيني في أحد أبراج شونجكينج ولا أرغب في أن أتفجر في إحدى المظاهرات في شوارع القاهرة ولا أن أذبح بالسكين لأنني أرتدي حذاءً رياضياً نال إعجاب أحد ما في الكيب..

- أنت تبالغ..

- بالكاد أقول الحقيقة.

توقفت هنيهة ثم تابعت: "هنري بحاجة ليضفي بعض الجنون على حياته بينما أنا أتوق للسكينة. لم أعد أرغب في رؤية كيف يقوى الناس على

الحياة في حنايا مدينة مانيل، لا أعتقد أنني أتجاهلها ولكن لم أعد أرغب برؤيتها.

- مع أنك صحفي.

- لم يعد هذا يعني أحداً.

- لماذا تقول هذا؟ جحظت عيناها بشرار غضب:

- لأن خوارزميي غوغل هم من يحددون ما ينال اهتمام الناس أو لا. لم يعد هناك صحافة هي مجرد متابعة للأحداث.

- إنك تسببين الألم لنفسك.

بعد برهة، لفت رأسها وأشاحت ببصرها نحو حقيبة السفر القديمة جانب السرير. تابعت قائلاً: "أنا أشعر بالراحة هنا وأظن أنت أيضاً. هنا المكان جميلٌ وممتعٌ. ربما ينهار كل هذا يوماً ما ولكن لم يأتِ بعد هذا اليوم. أتمنى أن يشهد ذلك..

وضعت يدي على بطنها وبدأت أهمهم بصوتٍ ناعمٍ ومريح جملتي الأبوية المعتادة: "هكتور، أخيل، أوليس أبطال حرب طروادة. إنها جملة بمنتهى الغباء، أليس كذلك؟

ابتسمت: "كلا أبداً، إنها أفكارٌ جميلة لأسماء جميلة حتى".

- هل أحببتها حقاً؟

- جداً.

- ثلاثتهم؟

- أجل، ثلاثتهم وأنت؟

- هناك الأسماء والأسطورة التي تعبر عنها. هذا مهم: أخيل العنيد والغاضب وأوليس المنافق. بالنسبة لي هو حتماً هكتور.

- هو ذات الاسم في اللغة الإسبانية مع حركة طفيفة، إنه اسمٌ يناسبني.

- سنضع الحركة على الاسم. أحبك باز.

- وأنا أيضاً أحبك أيها العصابي، يا صغيري الأوروبي الغامض، اللامكتشف للعالم.

- لا يمكنك قول هذا، لقد رأيت الكثير في العالم بل وخاطرت.

- أما أنا فلا. لا بد أن أفعل ذلك وحدي.

- ما عدتِ وحدك.

انسحبت وجلست جانباً وصدرها يتدلى ثم رفعت ركبتيها نحو بطنها، تمددت بجانبها. قالت فجأة: هل تعرف قصة الشقراء التي لديها "عصبونين"؟

أجبت متفاجئاً: كلا.

- إنها شقراء حامل.

- أنت حمقاء.

انفجرت ضاحكة كفتاةٍ صغيرة: كم أكره هذا النوع من الدعابات.

- ولم تقولينها إذاً؟

- رداً على ما قلت: ما عدتِ وحدك. تذكرت عبارة "إنني اثنان" فخطرت لي هذه الدعابة التي سمعتها في البار ذاك اليوم.

- أترتادين البارات؟

- شوكولا ساخنة بعد نزهة قصيرة.

- بشرتك هي الشوكولا الساخنة..

استدرت على جانبي لأراها بشكلٍ أفضل: هل تعرفين عندما أقول "ما عدتِ وحدك" فأنا أفكر فينا كلانا ليس به فقط.

- أنا حين أفكر في إنني حامل فلا أفكر سوى به. إن وزنه يزداد هل تعلم؟

- دون شك.

- لا تشك، لكنك لا تعرف فلا تجربة لك.

- للأسف هذا ظلم.

- ربما. هل تعرف كيف نقول "حبلى" بالإسبانية؟

- كلا.

- Embarazada

- أي محرجة.

- بالضبط.

استدارت وداعبت بطنها وعيناها معلقتان بالسقف وكأنها تود التركيز على إحساسها. نحتت يداها قمة بطنها نزولاً نحو فرجها. سألت فجأة: هل أنا شديدة السمرة؟ بتلك الصراحة التي تدفع الدموع منهجياً.

- أجل أنت شديدة السمرة ومن الصعب أن نجد من هي أكثر سمرة منك.

- وهل تحب هذا؟

- بالطبع أحب.

- ألا تفضل أن أكون شقراء؟

- لماذا وهل لديك "عصبونين"؟

- حقاً أقول. هل ضاجعت الكثير من الشقراوات؟

- باز

- هيا قل لي.

- وما أهمية ذلك؟ وأنت؟

- أنا. آه حسناً..

بدأت تعد على أصابعها فأوقفتها، أمسكت بيدها وشددت عليها في قبضتي: كفى!

غطت على كتفي وقالت: إذاً كم؟

قلت: بضع..

- بضع تعني من ثلاث إلى تسع؟

- أنت لعينة.

رسمت بسبابتها على صدري وبعد لحظتين تابعت: حسناً لم تخبرني كم عددهن ولكن أخبرني هل تفضل الشقراوات أم السمراوات؟

أجبت بجدية: تعلمين أن الأمر مختلف فالشقراوات على وشك الانقراض لذلك لابد أن نوليهن عنايةً خاصة.

- أنت أحمق. هيا أخبرني بجدية. أعلم أنه كانت تربطك علاقة مع شقراء.

- آه حسناً.

- حتى إنني رأيتها معك ذات مرة.

رفعت حاجبي وسألت: كيف ذلك؟

- أول مرة التقيت بك.

أثارت فضولي وما استوعبت: عند البقال؟

قطبت جبينها: البقال؟ أي بقال؟

ذابت في قلبي قطعةٌ من الثلج. اللحظة الأجمل في حياتي كشاب هي لحظة لقائنا. قلت في سري للوهلة الأولى: إنني سأعيد إحياء الذكريات ثم تراجعت لأتحاشى الإهانة ففكرة عدم تبادل المشاعر مثيرة للخوف، ذاك الحب من النظرة الأولى ومن طرفٍ واحد. ما أصريت.

- أين كان لقاؤنا الأول إذاً؟ في المعرض؟

- كلا قبل ذلك. على غوغل.

- جحظت عيناي: أول مرة التقيتني على غوغل؟

نحن نفتقد لعصر الرومانسية.

تابعت: أجل على غوغل. وددت أن أعرف من ذلك الأبله الذي كتب تلك الحماقات عن عملي. فعثرت في غوغل على صورةٍ لك مع فتاةٍ شقراء جميلةٍ جداً. كنت تمسك بيدها بحميمية واضحة.

- أنا حميمي جداً.

- أنت؟ قطعة من الجليد.. حسناً ماذا عن الشقراوات؟

وضعت سبابتي على شفتيها وقلت بوضوحٍ شديد: اسمعي باز. لا يروق لي هذا الحوار. إن أجبت عن سؤالك حول الشقراوات سيخيب أملك وتعيدي السؤال حول ذوات الشعر الأحمر ثم عن ذوات البشرة السوداء ثم الآسيويات.

- هل ضاجعت فتيات قبيحات؟

- بالطبع فحين نحب النسوة نحبهن جميعهن.

- هذا ليس كلامك.

- لا أدري بيد أن النساء القبيحات مؤثرات لأنهن أكثر كرماً.

- هل تعني أنهن يفعلن أشياء أكثر؟

- كلا. لكنهن يبكين حين يستمتعن، يبكين سعادةً وكأنها معجزة. باختصار حين يكن شديدات القبح.

- يا قواد!

- هل ترغبين؟

- أتظن أنني سأبكي لو متعتني؟

- من الصعب جعلك تستمتعين فأنت ترفعين الحواجز كثيراً.

- كن جدياً.

- أنا جدي. أجد أنك ترفعين الحاجز كثيراً. أنت متطلبة لا بد لك من رجلٍ خلاق.

غشّى الحزن نظرتها: ماذا بك يا باز؟

- لم تعد ترغب بي؟

- كنت واثقاً من أن الحوار سينقلب، لا تتفوهي بحماقات.

رمقتني ببؤسٍ بتلك العينين ذات الأهداب الطويلة، نظرةً أحزنتني حقاً بحزنها الصادق. لم تعد تمزح.

- تجدني قبيحة ومشوهة هكذا؟

- كفى فأنتِ..

- إذاً لماذا لا تخبرني؟

- لكنني أقول لك.

- قليلاً.

- ربما لأنني قطعة من الجليد. لأنني خجول وأنت تعرفين حق المعرفة أنني خجول.

ما أشاحت بصرها عني ولم تكن ترغب بسماع الحقيقة فحسب بل ورؤيتها.

- ما عدت تمارس معي الحب كالسابق.

لم أرغب في أن أجادلها وأقول لها إن الخطأ خطؤها أكثر مما هو خطئي، آثرت الصمت لأنها فتحت بابها، لعلها طريقة كلام لا أكثر.

قلت: ربما يؤثر الحمل بي، أخشى أن أدق رأس الصغير في الداخل. انزلقت يدها على طول بطني، فقلت: أرأيتِ أني أرغبك؟

كم كنت أحب الحوار مع باز، نادراً ما تحاورنا، إذ قلما عبرت باز عن نفسها بحميمية. كنت أهوى الحديث مع والدتك ما عدا حين تشعر بأنها تتعرض لهجوم عندها يصبح الحوار عنيفاً، يخرج عن السيطرة ويتعدى الحدود فلا تواجه بل تخدش دون سبب، تخدش بأظافرها تاركة أثراً على جسدك ثم تلحقه بلسانها فتنعتك "ابن العاهرة" لا لشيء. لهذه الكلمات سحرها بالإسبانية أما حين تشتمني بالفرنسية فيتجمد جسدي.

عادة ما يخضعك الفنانون لتفجيرٍ لتفاصيلهم الأنانية بينما كانت باز تعاني بالتعبير عن نفسها، لا أدري لماذا؟ لعل السبب يعود لماضيها في

إسبانيا ولجرحها المفتوح ضمن عائلةٍ شهدت الحرب الأهلية، ذلك الجرح الذي لا يندمل. لا بد أننا نرث الضعف الجيني من أجدادنا. لماذا لا نرث حدادهم وصلبانهم؟ عرفت فيما بعد أن هناك جثامين في العائلة: عمٌّ أُجهز عليه بالهيروين إبان حركة "موبيدا مدريد"[1]. ذكرياتٌ مبعثرةٌ روتها في أحد الأيام، زد على كونها وحيدة في بلدٍ أجنبي: "لا يمكنني أن أصف لك ولكن لا يراودك ذات الشعور وأنت في دارك.

قلت مبتسماً: حتى وأنتِ معي؟

أجابت دون ابتسامة: حتى معك.

ترى هل هناك جرحٌ آخر لم تطلعني عليه.

كم كنت أحب اللحظات التي تطلق العنان لنفسها فتسر إلي الأشياء بعذوبةٍ. أجل كنت أعشق حواراتي معها.

في اليوم التالي، هناك حوارٌ آخر، كنت أؤثر أن أتحاشاه وأتحاشاها.

---

1 – هي حركة ثقافية مضادة نشأت، في مدريد، خلال مرحلة الانتقال الإسباني في بداية ثمانينات القرن العشرين.

المجادل

الخطأ في الأخبار المحلية.

وخطأ المجادل الذي دعاه هنري لإمضاء الأمسية.

في تلك الفترة، كان يطلق اسم "المجادل" - مرادفها باليونانية يعني "الحرب" – على رجلٍ أو امرأة لكنها مهنةٌ غالباً ما امتهنها رجالٌ يتقنون الحديث عن كل شيء في الإعلام بأقل فارق ممكن. الأخبار كالضرع ويربطه المجادل كالحلابة الكهربائية. أقول المجادل ولكنهم عادة ما يتحركون ضمن مجموعات زوج على الأقل بما يضمن لهم ألا يفوتوا أي مشاهد أو مستمع فلا بد أن يجد كل واحد منهم نفسه أمام "مجادل" أي أمام رأيٍ ما، من يوحي له بأن هناك من يسمعه في هذا البلد السيئ. أرأيت في أي إطارٍ فكري مرهقٍ مزدوجٍ كلياً يتطور العصر؟ يحافظ المناظرون على السلام في هيئة صراع ويختار المشاهدون بطلهم وهكذا ينتهي البرنامج الإذاعي أو التلفزيوني ويعود كلٌ منهم ليستقر على وضعه. المشكلة أن هنري لم يكن لديه تلك الأمسية سوى مجادل واحد، رجلٌ قصير القامة وفي أذنيه شعر. لسوء الحظ، موضوع اليوم الذي يحرض الأخبار العاجلة ووكالة الأنباء الفرنسية هو أسماك القرش التي قامت بالتهام عدد من الأوكرانيين في مصر وكذلك بعض من راكبي الأمواج في جزيرة راينيون. ما طرح موضوعاً لمناظرةٍ جيدةٍ: هل أسماك القرش خطيرة بالنسبة للإنسان؟ هل يجب السماح باصطياد أسماك القرش؟

طبعاً أنا ارتعشت، نظرت للفور إلى باز وكانت حتى اللحظة تنقر بشوكتها السلطة الصيفية، شاردة الذهن. لا داعي للبحث طويلاً حتى نعرف من سيكون المجادل الثاني.

كدت أنهار. لماذا اختاروا أسماك القرش في حين أن الصيف يغص بشكل خاصٍ بالأحداث أي بمواضيع شتى للحوار؟ كان هناك على سبيل المثال: سورية حيث تصوب طائرات الصيد نحو المدنيين. طبعةٌ جديدة لغيرنيكا حتى ولم يكن هناك بيكاسو من شأنها أن تحرك حشوداً. كما أن هناك أوروبا الغارقة بالأزمة حيث يحرق اليونانيون أثاث منازلهم في الشتاء ليحظوا بالدفء. أوروبا التي بات محور الحديث يدور حول الأدراج المتحركة الهائلة. كان حري بهم أن يذكروا بأن أوروبا حسب الأسطورة كانت الأميرة التي أغواها ثور وبعد أن جعلته يعبر البحر كشف عن وجهه الحقيقي وجه زيوس إله الآلهة ثم أمسك بها بعنفٍ تحت شجرة دلب. قليلٌ من الرحمة لأوروبا المسكينة.

كما أن وكالات التدوين والضرائب تشكل موضوعاً جيداً للحوار. والمذهب الإسلامي؟ ممول رائع على موائد العشاء! في مصر، ذاك الصيف، نادى بعض المتطرفين لتدمير الأهرامات فهي رمز الوثنية وفي تونس أصدروا أن "المرأة ليست مساوية للرجل بل مكملة له". أي كما الكاتشب مع البطاطا المقلية. أما في السعودية، ذلك البلد الخلاق فستقوم السلطات ببناء مدينة مخصصة للنساء فيتمكَنَّ من العمل دون أن يغوين الرجال.

والطاقة النووية في اليابان أيضاً على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية حيث تم اكتشاف فراشات متحولة حول مركز فوكوشيما، أجنحة ضامرة وعيون

مشوهة وقرون استشعار. نواقص نقلوها لسلالاتهم، ما يثبت أن الجينات قد تغيرت. ألم يكن هذا موضوعاً جيداً؟ لماذا نبحث خلف أسماك القرش وهم لا يطالبون بشيء؟

بدأ الجدال بهدوء.

تم ذكر الخروج بالقارب نهاراً في عرض البحر قرب جزر لافيري. صخورٌ كالنهود البيضاء مدورة وملساء وفي الأسفل سمك الأخفس وللأسف هناك أيضاً قناديل البحر.

لسعت ذات مرة أو بالأحرى ساطتني على ذراعي من الجهة الطرية فأصبت بثلاث ندبات شديدة الاحمرار ما أعطى لهنري الفرصة كي يحاول إقناعي أن بوله سيهدئ الألم، لا علاج آخر.

روى هنري: "كانت قناديل صغيرة جداً لكن خيوطها طويلة". علق أحد المدعوين وهو قائدٌ من الوسط، كان يحتسي قدحاً من باتريموني: "إنها الحياة البحرية"

بضع كلماتٍ هامشية كان من شأنها إقحام المجادل الذي ما تفوه بكلمة حتى الآن بالحوار فأطلق صفيراً عصبياً: "حبذا لو اقتصدنا بعباراتٍ كهذه"

بهجوم أفعى الكوبرا، ثبت ممثل المركز قدحه وجمدت يده فوق طبقٍ من اللونزو[1] وما عاد يرمش. استمتع المجادل بتأثيره فاعتبر الآن أن طريقه سالكة ويمكنه أن يحاور. أوحى لنا بانطباعٍ كأنه شعر بالارتياح ذاته الذي

---

1 - شرائح لحم الخنزير مع البهار.

يرافق من يتسمم بالغذاء بعد أن يتقيأ. أضاف: "تجعلني جمل كهذه أتأهب. إنها الحياة المائية. وكأن الإنسان يمكنه في عصر الطائرات بلا طيار ألا يكون ضحية الطبيعة"

قال هنري من باب المداعبة: "أتريد استخدام طائرات بدون طيار ضد قناديل البحر؟"

انطلقت ضحكاتٌ فعاد المجادل لوضعه الطبيعي. أذكر أن الإحباط راودني للحظة.

قال مدعوٌ آخر وهو مدير مطعمه الخاص: "وما المانع، سيتوجب حقاً فعل شيءٍ ما، إنها تتكاثر بسبب ازدياد حرارة المناخ. يبدو أننا بسبب درجتي حرارة بازدياد نعبث بالليبدو. ويبدو أيضاً أن جيل فيرن قد سبق وقالها: ستعج المحيطات بقناديل البحر... قرأت ذلك في صحيفتك أليس كذلك يا سيزار؟

- بالضبط يا بيير. لقد كانت قصة تتعلق بسمك السلمون.

- سألت زوجة مدير المركز: قصة تتعلق بسمك السلمون؟

تابع صاحب المطعم: نعم، واجهت أسماك السلمون هجوماً هائلاً للقناديل في إيرلندا. خمسة وعشرون كيلومتراً مربعاً من الجيلاتين الحي. التصقت بحوض لتربية الأسماك بوكينغ هام بالاس. ولأكون أكثر دقة، قذفت مجساتها عبر الشبكات وحقنت سمها في أسماك السلمون وقامت بالتهامها.

علقت سيدةٌ تعمل بالتجميل: هذا مقرف.

تابع صاحب المطعم: مئة ألف سمكة سلمون قُتلت. حسب المقال، أصبح البحر أحمر كالدم.

سألت كارولين: هل يرغب أحدكم بالمزيد من المعكرونة؟

في حرارة الليل الكورسيكي، ما عدنا نسمع سوى صاحب المطعم الذي كان يروي أنه في اليوم التالي عادت قناديل البحر لتنقضّ على الصغار التي ما تجاوزت عمر السنة في مجزرةٍ ثانيةٍ. انبهر الجمع لدرجة أنه كان بوسعنا سماع صرير أجنحة الناموس الدقيقة في شعلة المصباح حين كان صاحب المطعم يلتقط أنفاسه. في الطرف المقابل للمائدة الخشبية، تمتد أجمة وخلفها يلعب القمر على وجه البحر. داعبت نسمةٌ دافئة محملةٌ بعبق الجبال وتراقص القوارب الشراعية فتناهى لمسامعنا ضجيج الحبال المعدنية. كنا على ما يرام، رسمت ابتسامةً لباز فردت. حتى الحظة، كان كل شيء على ما يرام. هل فقدنا المحاور؟ كلا، كان ببساطة مندساً بين ثنايا الحوار يترقب ساعته، اللحظة التي يتراجع فيها صاحب المطعم عن كونه نجم الحوار. جاءت تلك اللحظة. انتظر نهاية جملة طويلة ثم سدد ملاحظة سرت كالرعد على المائدة برمتها: "على الأقل ما كان سوى دم أسماك السلمون".

أي موهبة! بجملةٍ كهذه كنا مرغمين للإصغاء له. استدار الجميع نحوه. سأله هنري: ماذا تعني بقولك؟

- في بعض الأحيان يسيل دم البشر.

استدار هنري نحوي يتظاهر بأنه مصعوق وسألني: كم ليتراً من الدم نزفت؟

علق المجادل: ما كنت أتحدث عن قناديل البحر.

بحرفيةٍ شديدة بدأ يهمهم لنضطر لإصاخة السمع ولمزيدٍ من التعلق بشفاهه: كنت أعني أسماك القرش بحديثي.

التفت إلى باز حين تفوه بهذه الكلمة، تسمرت شوكتها التي كانت على أهبة تحريك المعكرونة المستطيلة.

قلت في نفسي: "تباً.."

رشف المجادل قطرات من النبيذ وشفاهه مغلقة كسحاب البنطال. وضع كأسه جانباً وأضاف:

"هذه القروش الوضيعة"... تردد ضجيجٌ معدني إذ أوقعت باز شوكتها وعيناها معلقتان على المجادل. ها نحن ذا. سوريا غارقةٌ بالنار والدم والاقتصاد الأوروبي على حافة الاختناق ومع ذلك سنتحدث عن أسماك القرش. نظرت إلى باز، ارتسمت تجعيدة مقلقة على جبينها الجميل، قررت أن أقحم نفسي: "تودي قناديل البحر بحياة الناس لعشرة أضعاف إذا ما قارناها بأسماك القرش".

استدارت باز نحوي ووقع المفاجأة يرتسم على وجهها. رفع المجادل يده كخطيب سياسي: وخمس وعشرون مرة أقل من جوز الهند، حسناً. لقد قرأنا ذات المقالة عدا أنني أعرف أن جوز الهند ليس عدواً لنا. كانت المشكلة لتحل لو لم يتمرد ثلاثة "فاقدو إحساس" حين قيل إن عشر أسماك قرش هاجمت راكبي الأمواج.

ما كلفته سوى ثلاث دقائق ليلفظ تلك الكلمة "التعويذة".

قال هنري: بالوقت نفسه، حسناً، إنهم راكبو أمواج.

رمته زوجته بنظرة فاستدرك قائلاً: أقصد القول إن الشمس لوحتهم ولديهم شعر وبطن وفتيات جميلات بانتظارهم.

ضحك المدعوون وبدأ المجادل يهز برأسه بطريقةٍ غريبةٍ كأعراض أزمة صرع وحركات دمية كلب على الشاطئ الخلفي لاستراحة عائلية. تعالى صوته بطريقة تعبيرية: "آه عفواً نسيت نسيت أننا دخلنا في حضارة التسلية الكبرى والرواق، إذ يمكننا الضحك على كل شيء ويجب أن نسخر من كل شيء.

قلت: "المعذرة ولكن ركوب الأمواج هي من حضارة التسلية والرواق فالبحر منطقة برية"

قلد المحاور متباكية قديمة: "رواق، أرغب بهذا ولكن هناك من قضى حتفه يا سيزار"

تدخل هنري ليقول: "أيها الأصدقاء، سننتقل للحلويات. لدينا فراولة من الغابة ستمدنا بالنشاط" ألح.. أجد هذا لا المحاور، يبدو أنه لم يكن يرغب بإلغاء الحوار لحلوياته الخاصة.

قال وهو يستدير نحو هنري: اعذرني صديقي العزيز. إلا أنني أجد هذا سهلاً بعض الشيء. أفضل أن أحضر مائدة حُماة الطبيعة لأتمكن من الاستماع لكل البراهين. أما أن أعمي البصر، آسف فلا يمكنني الاحتمال.

تبادل الحضور النظرات متسائلين حول ما يعني: إن السائحة الألمانية التي التُهمت السنة الماضية، كانت تسبح على الشاطئ أمام الفندق ولم تكن في عرض البحر، أرأيت؟

قالت السيدة التي تعمل بالتجميل: "حقاً هذا مخيف"

وافق المحاور قائلاً: ما وددت ذلك. ألغى للفور العديد من السائحين رحلاتهم إلى مصر وجزيرة راينيون، وهذا يعود بالضرر الكبير على بلدانٍ فقيرةٍ كهذه حيث تستوطن البطالة. أنا أؤيد السلطات التي ترى بضرورة التحرك..

تتابع باز الحوار بانتباه. أنا أعرفها حق المعرفة بل يمكنني القول إن أناملي سبرت كل ميلمتر في جسدها، لكنني ما فهمت صمتها. لا بد أن حرارتها العاطفية تضرب أرقاماً قياسية، لم أرغب في أن ينفجر مقياس الحرارة، إذاً قررت وعلى حسابي أنا أن أضرم النار لأشعل فتيل الحوار دون أن أخيب أملها. في الحقيقة، هذا يشملني فأنا لا تعنيني أسماك القرش القاتلة كما لا يعنيني الأوكرانيون الثلاثة الذين التهمت أرجلهم. في الواقع أنا متعب من كل الحوارات ومن هؤلاء المحاربين الكاذبين. قال أحد مطربي الراب القادم من الشمال الفرنسي: "لست ساذجاً لدرجة أن أكوّن رأياً".

ليس لي سوى طلب واحد منك يا بني هكتور: ضع نفسك باستمرار في طريقٍ مهم وارمِ ما تبقى فالحياة قصيرة.

لكن باز موجودة هنا. عشيقتي الإسبانية ترمقني بذات الانتباه الذي خصتني به المرأة ذات الفروة اليونانية ولابد من الإشراق. سبق أن قلت لك: الحياة الزوجية هي الحرب؟ كما أنها أفضل الشركات. كنت أراها وأنت تملأ بطنها أنت خاصتنا وتركيبتنا. لم أكن أود أن أضع نفسي بموقف التحقير كان علي أن أبدي تعاوناً وأبرهن لها أنني مهتمٌ حقاً بصراعاتها.

تابع المحاور بحرية: لم تكن مع ذلك غلطتنا أن جُنّت هذه الكائنات.

رمقتني باز بنظرة مرهقة. "لقد جُنّت لأنها لم تعد تجد ما تأكل إنها مجرد حوادث فأسماك القرش لا تحب لحم البشر"

انقلب المحاور عن كرسيه يضحك مقهقهاً. آه أجل لقد قرأت هذا أيضاً. أنهم لا يحبون اللحم البشري بل يتذوقونه وأثناء تذوقهم لا يمنع أن يقتلوك.

- تجتاح أعمال الصيد أعماق البحار لذلك تتجه أسماك القرش إلى الشطآن لتتغذى.

- آه. ها قد وصلنا تقهقر الحوار. لا بد من وضع الكوكب تحت الحراسة إذاً؟ احموا الطبيعة الأم؟

علم البيئة هو ديانة بديلة حقاً للغربيين الذين تخلوا عن المسيحية ولكن التقدم يجب أن يجعلهم دائماً عكس الطبيعة! لو لم يقطع أجدادنا الأشجار لعشنا دائماً كالقردة.

قاطعه هنري محاولاً جعل الجو مريحاً ليحافظ على أمسيته الجميلة: لا بأس، ألم ترَ كيف تلجأ السعادين للجنس لحل النزاعات؟

قال المحاور: ليس هناك سعادين بل مترفين فلنحمِ الطبيعة الأم. تمام! ولكن الصدمة الاقتصادية؟ كيف نغذي الناس؟ بالطبع. بالنسبة للمترفين الذين يعيشون في قلاعهم يتناولون "البرغل" لا يمكننا اعتبار هذا.. ترى هل كانوا ليخوضوا بذات الحوار لو أن ابناً أو بنتاً لهم هو من فقد ذراعه أو ساقيه؟

أطلقت باز تنهيدة. تنهيدة تعب. تنهيدة غضب. نبعٌ يفور بماءٍ يغلي.

توجست خيفة. بالغت. النبيذ وفقدان اليقين دفعاني للتفوه بالحماقات: "ماذا لو كنت أنثى قرش وانتشلوا ابنك كما يقولون بحياء (لقتله)؟.

انفجر المحاور ضاحكاً.

"ماذا علينا أن نسمع! هكذا إذاً، يطلبون منا أن نضع أنفسنا محل الحيوانات من حسنٍ لأحسن!.

بل أضاف جملة مرعبة: لقد قرأت حتى أن بوسعنا تبنّي قرش.

قالت سيدة التجميل: كلا؟

نظر إلى كل مدعو وقال: نعم. أؤكد لكم، لم يعد لديانة القلوب حدود.

كانت باز تعض شفاها. خفت أن تلقي العبارة التي لا يمكن استدراكها؟ "كحالي أنا. لقد تبنّيت قرشاً.؟ فيأخذونها كامرأة فاسدة/ كنت رجلاً. رجلها وكان علي أن أكون حصنها.

قلتُ: حسناً؟ من حقنا أن يخيب أملنا بالنوع البشري.. لم يكن دائماً خير نموذج. أليس كذلك؟

فرك يداه بحماس: "آه! حسناً ها قد وصلنا للندم".

ندمت أما هو فابتهج فما كان لأسماك القرش سوى دفعه لميدانه المفضل وهو التنديد بتحريم الإنسان الأبيض ونشر الإسلام في أوروبا.

قلت: كلا لن نصل لهذه المواصيل، فلنبقَ عند أسماك القرش.

آه.. نعم؟ نقصاً بالشجاعة مثل كل من هم في الثلاثين بعد أن حضنتهم أمهاتهم وهنّ بعمر الثامنة والستين وما عادوا يجرؤون على القيام بشيء؟

نظرت إلى هنري لم أكن أرغب في أن أفجر رأس ضيفه دون إذنه. تدخل من جديد ليقول: لعله يجب أن نتوقف هنا؟

قال المحاور وقد خرج عن طوره وجسده يسبح ببرك من الأندروفين الذي يفرزه عقله المتأهب للعراك: ولكن لماذا؟

قلت: نعم سنتوقف هنا.

كنت أرغب في أن تنتهي هذه الوجبة هنا. وأقول للجميع: "عمتم مساء" ثم أضم باز في غرفتنا الصغيرة الخشبية الظريفة. ماذا يساوي هذا الجدال- وهي كلمةٌ كبيرة حقاً- مع شخص لا يشدني الحديث معه بل ينفرني شكله أمام المتعة والإحساس اللذين أهنأ بهما قرب باز.

ما هي الحياة المعاصرة بالحقيقة؟ معارك خاطئة أو حب حقيقي. لم يكن الخيار صعباً. إننا مرغمون على مثل هذا الأشياء.. لكنه تابع:

- لا بد من التنظيف دون أن يأتي من يحدثنا عن النظام البيئي لو اختفت أسماك القرش لوسع المكان بالنهاية لسائر المفترسات البحرية..

تجرأ رئيس الحزب قائلاً: "لكن مفترس أسماك القرش الأساسي هو الإنسان. إذ يصطادها من أجل زعانفها، أليس كذلك؟

أضاف: حسناً من أجل عشرة صينيين لم يعودوا قادرين على الانتصاب وعليهم تناول زعانف ليشفوا. لن ننادي بريجيت باردو لابد من التنظيف"

تحطمت عتبة التسامح عندي، لم أعد أطيق صبراً على كلمات كهذه غاب كل شيء من طاولة الحوار. شخصٌ كهذا لا يثير الشفقة بل خطير. انفجرت بصوتٍ هادئ لكني انفجرت.

"معك أنت لا شيء معقد، يجب دائماً تنظيف كل شيء: أسماك القرش والسعادين ومن هم بعمر الثامنة والستين.. والثلاثين.. الرومانيون ألا يجب تنظيفهم أيضاً؟ والمسلمون؟ ألا تجد أن عددهم كثير جداً.

تسمر هنري وسادت لحظة صمت هائلة على الطاولة. لقد ذهبت بعيداً جداً كنت أعرف وكان الوضع معدماً. استدرت نحو باز. كانت تبتسم لي وترمقني بنظرة مداعبة، نظرة غزالة وهذا يكفي. فليذهبوا جميعاً للجحيم. شحب لون المحاور وتوصل لقول: "ألن تقول شيئاً هنري"؟.

سهل جداً، استلمت الحديث مجدداً حان وقت أن أصبح فاسقاً وأمحقه بضربة تاتان:

"ماذا جرى جان بيير ستبحث عن ماما"؟ إني أشفق عليك أتدري. أجل، حين أراك تروي ترهات تملأ الفم في الصباح والظهر والمساء وعلى كل القنوات وتنتفخ بكلمات وتحريضات بائسة. حقاً أنا أشفق عليك لابد أنك تعاني كثيراً. في حين أنني أرى ما هو عكس المعاناة تماماً لدى رؤيتي لسمكة قرش، إذ أرى فيها الحرية والجمال والإنسانية والحركة لا ترهات. سمك القرش لا يبرر.. أترى.. ولا يجادل، يرغب في أن يغوص في أعماق البحر فيغوص. يرغب بأكل راكب أمواج فيفعل. إنه حاد الذهن لدرجة أنه قادر على تمييز نقطة دم في أربعة ملايين ليتر من الماء، بينما أنت تنقضّ على البراهين ذاتها ثقيلاً وغليظاً بحقدٍ دائم. إنه جميل بينما أنت قبيح.

بحث المحاور عن أنظار ضيفنا لكنّ نظره كان مأخوذاً فهنري كان يتفترس بي ككلب في موقف باص.

قال المحاور: "لن أبقى هنا لحظة بعد"

قلت: هذا يروّح عنّا.

خرج هنري من أنبهاره وقال: "سيزار لو سمحت"

- لا تقلق هنري، لن نقلق راحتك سنذهب نحن بدورنا، كلانا معاقب..

غضب هنري وقال: "كم أنتما أحمقان"

أدرك أنه بات من الصعب الانتقال لشيء آخر.

جلست على السرير في غرفتنا منهك القوى. ثملاً بالنبيذ والكلمات... اندست باز خلفي وحطت يديها على كتفي الممددتين كحبال شراع في خضم العاصفة.

قالت: لقد أثرت بي.

- إن كان علي أن انفجر عند الأصدقاء حتى أؤثر بك فأنت بذلك ترفعين الحواجز عالياً..

انحنت لتهبني مضاجعة بالجانب الوحشي، شعرت ببطنها الممدد على ظهري وأنساب شعرها المربوط على جسدي.

- فوجئت بصمتك.

- كدت أنفجر لكني آثرت ألا..

- لماذا؟

هزت كتفيها.

٦

ستكون فكرة رائعة

لمرة واحدة لم يكن لرتل سيارات الأجرة في رواسي نهاية. بدا على باز الهم سألتها عن السبب لكنها أجابت بأن كل شيء على ما يرام. عادة أتوقف عند هذا السؤال لأنني أعرف حق المعرفة أنني لن أحصل على إجابة. لكنها حبلى ونهاية الحمل خلال ثمانية أسابيع ونحن سنستقل الطائرة لذلك كررت السؤال:

- أنت واثقة من أنك على ما يرام؟

- أجل.

وصلنا إلى المنزل، حملت المتاع تاركاً المجال لباز لأن تمرّ أمامي، هي من وضعت المفتاح في القفل. دخلت واتجهت فوراً للحمام، لابد أن البطن يضغط على المثانة.

وضعت الأغراض في غرفتنا واتجهت إلى غرفة الطفل لأتأكد من أن كل شيء في مكانه فلا يساورها القلق وأنني على آخر الترتيبات لأنها قبل أن تلحق بي إلى برشلونة أمضت بضعة أيام لتولي زخرفة الغرفة عناية خاصة.. أعلم أن الأمر مهم بالنسبة لها.

سرير الشوكولا، غطى سرير الشوكولا المشهور غطاء أزرق بحري. وضعت على الصوان فانوساً سحرياً، لإحدى تلك المصابيح حلزون داخلي يدور حول حرارة المصابيح ويلقي على الجدار رسوم الستارة. جميل جداً ومريح. وقع اختيارها على نموذج مزخرف بأسماك تتعاقب في أعماق من المرجان.

ذهبت إلى غرفتنا وتمددت. رجَّ هاتفها بجواري فلم تأخذه معها إلى الحمام، استحوذت عليه. رأيت الشاشة أولاً ومباشرة رأيت اسم المرسل. النص قصير لكن الحروف كبيرة:

"ستكون فكرة رائعة"

تركت الغرفة ومشيت في الممر لأطرق باب الحمام. أجابت: "أنا أخذ الحمام. أدخل"

سحبت الباب الجرار رأيتها سمراء مغطاة بالرغوة، وبطنها بارز كبركان هادئ، كدت أتراجع.

من هو ماران؟

لم يبدُ عليها الارتباك أبداً.

قالت بكل هدوء: "رجل يعمل مع هامر شلاغ".

- هامر ومن هو؟

- هامر شلاغ أستاذ في ميامي. من اهتم بتبني نور.

- نور. نعم.

قبلت واستدرت. سحبت خلفي الباب الجرار. الستارة. زاد الأمر عن حده.

البقية أنت تعرفها. أخرجتك من المستشفى بملابسك البيضاء مع والدتك التي انهكتها عملية القيصرية. في المنزل كالرومان القدماء أخذتك بين يدي يا صغيري هكتور ورفعتك نحو السماء لتشهد أنك ابني. ووضعتك في غرفتك.

❖ ❖ ❖

ماذا جرىٰ بعد ذلك؟ كثير من الأشياء. أذكر زفافاً في آرل مع حفلٍ ليلاً في منطقة الألبيل. كان عمرك حينها ثلاثة أسابيع، حملتك علىٰ بطني كسرجٍ ووهبتك حرارة صدري. كان الناس يأتون لرؤيتي يفاجئهم كونك معي في هذا العمر وأنني متمسكٌ باصطحابك وأنك تنام هانئاً هكذا. يفوح عبق الأشجار في الليل، وتفوح نارٌ كبرىٰ كعيون الفتيات اللائي ينحين لمداعبتك. كنت أشعر بجسدك وثملٌ بجسدك الرطب يغذيه الحليب ويفوح منه عبق اللوز. كنت فخوراً بك وآمل أن تكون كذلك.قدموا منزلاً مع حديقة كبيرة.كان الطقس جميلاً وكنت تكتشف الطبيعة وتبتسم ممداً علىٰ العشب بقميص الأطفال وتخبط ساقيك. كنت محبباً في القطار وفي فندق "نورد يونس" حيث احتسينا قدح نبيذ بين مصورين "بيتر بيرد" العملاقة. كنت ترىٰ بانتباه شديد الفيلة الكبيرة والموز وبقع الدم الذي يلطخ بها بيارد صورة. كنا سعداء معك.

بالحقيقة كنت سعيداً لكن باز.. شاردة الذهن وكئيبة. أدركت أن الأمر لا يتوقف مع عدد الصور الهزيل الذي تلتقطه لك. هذا أمر أيضاً لا يمكنني أن أقوله لك. فضلاً عن عدد الصور الهزيل الذي تلتقطه لك. ذات يوم بينما كنا نغادر العاصمة سألتها: أين "كامرتك لايكا"؟ قالت: تركتها في باريس. قالت تركتها ولم تقل نسيتها.

أذكر أول مرة رأيتَ فيها البحر في شهر تشرين الأول أو أيلول في "سانت أدريس" قرب "هافر" في ذلك المكان حيث ينتهي البحر قرب رأس "هيف" والذي يسميه "آخر العالم" تنقطع النزهة البحرية فجأة عند الأنقاض. يطلُّ علينا الجرف يغصُّ بالحفر المليئة بأصداف آمونية متحجرة

وحلزونات ضخمة بأصدافٍ كلسية كنت أحملها مع والدي عندما كنت صغيراً. تعلوها رادارات ضخمة بيضاء وحمراء تدور مع الرياح. كالمعتاد نورٌ خلابٌ هنا والشمس تخترق الغيوم الزرقاء الرمادية لتنفجر أشعتها لآلاف القطع على وجه البحر الأخضر المزروع بالزبد وفي العباب تتراقص خيالات ناقلات النفط المنزلقة كحيتان ضخمة. كم كان رائعاً نظفت الريح المالحة أجسادنا. والدتك كانت هناك، تَنحِتُ ريح النورماندي شعرها وتحمل ذيول معطفها حتى عنقها المثقل بالحليب. مازلت على بطني ومنخراك في المنطقة الواصلة ما بين الرقبة والصدر، كيف تسمي تلك المنطقة التي تصل الترقوة مع عظم الصدر حيث كنت تلامس كرتي العظميتين البارزتين. كنت تحاول فتح عينيك رغم الريح لتشبع من النور المعدني النافع. يلوح من بعيد جوس- سان جوزيف لوح رصد من الباطون الحديث الذي يمكن أن يشهد وحده على عمادة مدينة / منهاتن سور مير/ تقدمت نحو البحر. يتدرج الحصى تحت خطواتي والأمواج تلعق رصيف الحجارة، جلست القرفصاء ويدي اليسرى تحت نقرتك وما زلت متعلقاً بي.

بللت يدي اليمنى بالزبد ووضعت بضع قطرات على جبينك فابتسمت بذلك الفم الصغير الذي لا يتجاوز سنتمترين.

ذهبنا ثلاثتنا لنتدفأ بشوكولا ساخنة في متحف مالدو. هبط الليل سريعاً فوق النسيج الخلاب. خلف الواجهات الكبيرة، أصبح البحر أسود كالنفط من جهة الميناء. مصباحا السور البحري الأخضر والأحمر وآلاف النقاط المميزة في المصفاة بالإضافة للميزات الملونة في ناقلات النفط الضخمة تضافرت جميعها لتدل على الحياة الصناعية. عدنا إلى السيارة.

أدركت وأنا أعلق حمالتك أننا بعيداً عن كلمات رضاعة وحفاضات لم نحرك فكنا. لم يكن الأمر جيداً. لم يكن الأمر جيداً.

كانت يا هكتور مع ذلك في أوج مجدها. من الناحية المهنية لم تقل لي شيئاً. علمت بعد بضعة أيام.

/المرأة التي لدغها الثعبان/

عادت للعمل وكانت تمضي أيامها في ذلك الاستديو الذي لم يكن يحق لي أن أضع فيه قدمي. هل تذكر متحف اللوفر؟ رويت لك زيارتنا الليلة ومحطتنا أمام هيرمافروديت النائمة. مظهر المدير وهو يذكر ما قالته إنكليزية في القرن الثامن عشر: الزوجان السعيدان الوحيدان اللذان عرفتهما!.

رويت لك ما الذي دار بينهما. حماسها وعباراتها. بعد بضعة أشهر بينما كنت أغادر افتتاح أحد المعارض التقيت بالمدير تحت الهرم وزف لي الخبر: على كل حال سنلتقي الشهر القادم في معرض باز.

كنت حقاً على مستوى عالٍ جداً من التربية لأطلب منه أن يعيد. ولكن ما إن دخلت إلى المكتب حتى اتصلت برقم باز، توقعت أن يجيب المجيب الآلي بما أنها الفتاة الأقل تواصلاً في العالم، لكني كنت مخطئاً إذ أجابت للتو.

- كيف كان الافتتاح؟

- كان رائعاً ولكن أخبريني ما قصة معرض اللوفر؟

صمتت لبرهة ثم أجابت وهي تشعر بالضيق:

- حسناً، معرضٌ في متحف اللوفر.

- باز سأطرح عليك السؤال مجدداً: هل ستعرضين في اللوفر؟

سمعت طقطقة ثم تنهيدة، أشعلت سيجارة وقالت: "نعم" كما لو كان السؤال: هل تريد كأس ماء مع قهوتك؟ وليس مع السؤال الذي طرحته؟ أنا كنت متحمساً اللوفر قلت لها: "لكن هذا رائع"

صمتت على طرف الخط. "هذا لا يجوز"

سمعت تنهيدة جديدة. زفزة دخان. بالنسبة لي لا رائحة ولا لون له.

- بلى يجوز.

- هل ستعودين هذا المساء؟

- بالطبع.

- هل نحتفل مع هكتور؟

- إن شئت.

ذهبت لأشتري كل ما نرغب به في العالم. وليمة زجاجة ماركيز دو ريسكال. ثمار البحر من بلدها الأخطبوط بالحبر وسمك الأنشوفة.

يطلق القرص أنغام أغنية بعنوان "tlot chip" ويراقص زهور الأضاليا الزاهية بلونها الأحمر الداكن التي انتقيتها لها، ويضوع عبق عشب رطب من أوراقها السميكة. كل شيء جاهز. تذوقت النبيذ ودققت القدح مع الرضاعة. لعبت على ركبتي حصانٍ وغنيت برفقة الموسيقى.

"والدتك ستعرض في متحف اللوفر! والدتك ستعرض في متحف اللوفر" هل تقدر معنى هذا يا صغيري! إنه مكاني المفضل شرعت بالرقص وأنت بين يدي وأنا أنظر بالمرآة الكبيرة على المدفأة... روعة هذا الزوج أب وابن وضعتك على الأريكة، وكنت تحرك ساقيك مع الإيقاع، وأنا أتابع بالغناء وعندما أكرر اللازمة "والدتك ستعرض في اللوفر" كنت تضحك وتضحك.

أغنية

The way I feel about you body
In the middle of the night
There's just one thing that I can do
To make me feel alright

Let's sweat, let's sweat
Let's sweat, let's sweat

مرت ساعة ولم تكن بعد هنا، نمتَ بين يدي طبعاً بعد الحكاية أذكر تماماً ما كانت الحكاية تلك الأمسية "حكاية الحلزونة ميمونة: قررت الحلزونة ميمونة أن تخوض المغامرة فهربت من حديقة رائعة مليئة بالزهور ذات الرحيق والألوان المنزلقة بين زرعٍ زمردي لتجد نفسها فوق ظهر ضفدعة ثم في علبة معلبات منزلقة على طول نهر يصب في البحر لتعيش مغامرة كاملة مع أبناء عمومتها الحلزونات البحرية. كنت تتأمل الصور بعينين مدورتين كبيرتين كصحونٍ صغيرة ويداك على الصفحات ترغب بلمس الأوراق والبتلات. نمت بدفء في فراشك ذي الحواجز. غادرت غرفتك. وانتظرت، ساعة ونصف الساعة وأنا ما زلت وحدي أفرغت زجاجة النبيذ.

حاولت الاتصال عدة مرات ليرد المجيب الآلي. قلقت، درت في الشقة، أعجز عن مشاهدة قنوات الأخبار لأكثر من عشر دقائق. نفس المآسي تتكرر ونفس المصائب تصنع ونفس الأرقام تعرض وأوروبا الغارقة نفسها لكنني كنت أحبها كما هي فباقي العالم ببساطة غير قابل للحياة.

أضاء جوالي رسالة sms أخيراً كسكين المقصلة: "لا تنتظرني".

تذكرت رسالة ماران "ستكون فكرة رائعة". وطريقة الكتابة بالذات. فقدت الموسيقى من حولي بهجتها، مررنا من الانتربول إلى سيتزن! يروق لي أن أضع هذه المراجع فبهذا ستتمكن حين تقرؤها أن تصغي لما كانت، أضفي اللحن على كلماتي. تقول كلمات الأغنية: "لا تدع دمك يبرد" فات الأوان تجمد دمي. نُفيت من عالم باز. رتبت الوليمة. بدت لي الأطياف وزجاجة النبيذ بائسة، سرى بردٌ قطبي في قلبي. انتهى بي المطاف بإطفاء النور والذهاب إلى غرفتك. غرفتك أنت حيث نعيم الحرارة، تكورت على السجادة عند أقدام سريرك ذي الحواجز، بوضعي الجنيني وعلى الجدار تتراقص خيالات أسمك القرش المتوعدة. حلمُ باز هو كابوسي. لحسن الحظ أنفاسك ودفء جسدك الصغير هنا معي. لم يكن يحق لي التراجع إذ كان علي حمايتك وكأنني كرست حياتي لذلك بل من الضروري أن أكرس نفسي لحياتك وأكافح من أجلها. أغمضت عيني وفي جسدي تسري خدرة النبيذ والألم رويداً رويداً.

اخترقت يدٌ نومي.. "سيزار.. سيزار" فتحت عيني. تعال نم معي.

إنها هنا. تبتسم لي وتداعب يدي بلطفٍ. شعرت بدفء أنفاسها على شفاهي. ثم نهضَت. استدارت. قبلتّكَ. وغادرت الغرفة.

نهضتُ بدوري. ظهري يؤلمني. قبلتُك وغادرت الغرفة.

في غرفتنا، جلست على السرير. سألت: كم الساعة؟

- وما أهمية الوقت؟ بقيت واقفاً. قلتِ إنك ستعودين وسنحتفل ثلاثتنا..

بدت متعبة جداً: بماذا سنحتفل؟

نهضت واتجهت نحو الكرسي الخشبي حيث وضعت ملابسها حلت عقدة حزام فستانها وحمالة صدرها واستدارت لتضفي كرتا نهديها كوكبين للفضاء الشهواني الذي يحل في هذه الغرفة..

- هل تعدني أننا سنغادر بعد المعرض؟

لم أجب، تظاهرت أني أغط بالنوم.

❖ ❖ ❖

كانت تعود بوقت متأخر وأنا أعود باكراً أكثر فأكثر تدفعني رغبتي في أن أراك يا هكتور وأرى طريقتك بالاحتفاء بقطعة صغيرة في الحمام وأسمع كلماتك الأولى. احتفلنا بعامك الأول، كان بوسعنا أن نكون سعداء ويلتصق أحدنا بالآخر ونكون عائلة إلا أنها لم تحد عن أفكارها:

- لستِ محقة بإقحام هكتور بالأمر.

- بلى محقة كل الحق شئت أم أبيت الأمر يطول هكتور. ننتظر منك كلمة لنطير. ولكن معه يمكننا الذهاب إلى روما وسيفيل وإيسلاند ولو رغبت برؤية أسماك القرش يمكننا الذهاب إلى اليونان ومالطا.

- كفي عن أسماك قرشك هذه.

- أنت من بدأت مع أسماك القرش.

تقول بنفسك إنه كان بوسعي أن أبذل جهداً. لكن لابد أن أكرر لك: كنتَ هنا وكانت تتهمني دائماً بأني استخدمك كشماعة أعذار. لم يكن عذراً بل سبب. سبب إضافي. سبب أكبر منا نحن الاثنين. ثم لماذا سأغادر أوروبا وأين سأجد نفسي؟ لم يكن لديها أدنى فكرة!

كانت تقول: "الأمر سيان لي، كل ما أريد هو أن أشعر بالحياة. أضع حداً لهذه الراحة والتدجين. أريد الطبيعة البكر والحياة البرية"

- الحياة البريّة؟ ماذا يعني هذا؟ غابات السفاري؟ ماذا تريدين أن تري حيوانات مفترسة؟

- أنت ممل!

صرخت وصمت أذنيها وتكورت على نفسها وبدأت تنتحب. قلت: سامحيني.

نيتي كانت سيئة. كنت أعرف ما تريد. كانت تريد الصحراء. لكن كان الموضوع بالنسبة لي غير قابل للنقاش لم يكن بالنسبة لي الذهاب للعب بقطع التركيب الموبوءة التي تحول إليها الشرق الأوسط أمراً مطروحاً ولا المخاطرة بأن يتم اختطافي في إحدى سيارات البيك آب في تومبوكتو. هل أذهب لرؤية الفوضى والعبث والتخلف؟ أمر لا يستحق العناء بالنسبة لي. كل ما هو جميل بات مهدداً. انظر إلى مالي حيث ذهبت منذ زمن طويل قبل لبنان لحضور معرض تصوير يقام كل عامين. ما إن سجلت اليونسكو أحد الجوامع القديمة كإرثٍ عالمي حتى تحول الجامع لهدف المتطرفين، باسم الله. وفي ليبيا، إلى ماذا تحولت ليبيا العظمى وصبراته؟ هل سيقفزن بدورهن؟ وباز ترغب في أن ترى ذلك بأم عينها؟

- سأذهب وحدي. أعرف أنك ستعتني بهكتور. أنت أب جيد هل تعلم؟

- في هذا الوقت الباكر. أتعلمين أنك تتسببين بألمي حقاً؟ وتجعلينني أرضخ هكذا؟

أنا من بكيت كطفلٍ صغير وهي تابعت برباطة جأش قلبها كالبازلت: "لا يمكنك فعل شيء من أجلي ولا تريد فعل شيء من أجلي".

رجّ جوالها، لم نكن نتجسس لذلك لم يكن هناك رموز للجوال وكان بوسعي أن أتحقق. عندما عبرت العاصفة وبانتظار العاصفة التالية. تمددت بقربها وسألتها: من هو ماران؟

- سبق أن قلت لك.

- إن كان هناك من يرسل لي رسائل هكذا طيلة الوقت هل ستعتبرين الأمر جيداً؟

هزّت كتفيها ما قتلني. تفرس فيَّ تمثال بوذا من الرخام الأسود بعينيه الذهبيتين من أعلى المدفأة.

حدثتك سابقاً عن مبدئي أنا وباز هناك حدود. لا لنخون بعضنا بشكلٍ أفضل. فلم يكن لنا هذا الكلام، كنا نعرف ذلك. السيناريو الخاص بنا هو أن نبقى معاً ما دام الحب يجمعنا وإن لم يعد الحال كذلك نفترق. لن نتخذ عشيقاً أو عشيقة، لا كذب ولا بحث عن... إما أننا متحابون أو نترك بعضنا وطالما ساد الحب سنحارب الكون بأسره لنحب بعضنا دائماً حتى لا يعود للحرب نفعٌ كما هو الحال اليوم.

قصتنا انكسرت. لا يمكنك أن تقول لشخصٍ ما إنك تحبه لكنك ستذهب. هذا لا يجوز بل مضحك. عندما نغادر يعني أننا لم نعد نحب، نقطة انتهى.

مر شهران على معرض اللوفر، ذهبَتْ إلى دوسيلادورف لتراقب سحب صورها في مختبر اسمه على ما أظن "لوغويجيه" أحد الأماكن الوحيدة التي نجد فيها جهازاً بشكل طبلٍ يسمح بطباعة عدد هائل بجودة عالية. لأن باز باتت تسحب حجوماً هائلة ١٨٠×٢٢٠ سم كسائر نجوم مجالها. هي أيضاً كانت نجمة. مع أن ذلك لم يغير شيئاً في حياتها. ظلت تستخدم البخاخات نفسها للغبار تاركة لطارق إدارة أعمالها وحتى أجرة الاستديو.

كانت تقول: "يجب أن تكون صوري لوحات، نتمكن من التنزه فيها. يجب أن تكون مناظر أكثر من كونها وجوهاً. يجب أن نتابع فيها كل الحكايات المروية فيها". وأي قصص كانت! حكاية انبهار الإنسان أمام الأعمال الفنية. وكل الحكايات التي تدور بين الإنسان عبر الأعمال الفنية.

العمل المفضل بالنسبة لي في متحف أورساي ممددةٌ في المعرض على فراشٍ من الورد الأبيض. وينزلق شرشفٌ بين فخذيها - *المرأة التي لدغها ثعبان* - أوغست كليسنجر ١٨٤٧. الثعبان؟ صغيرٌ يلف حول معصمها اليساري ولكن إذا ما رأينا الفتل الذي رسمته الشابة على جسدها المقوس كنهديها المكورين على صدرها كأنهما على انطلاقة وشيكة لما ساورنا الشك بوجود جسد آخر..

ذراعها الأيمن ينثني فيغطي شعرتها. رأسها الراجع للخلف وثنيات خصرها وتقلصات مؤخرتها كلها تدل على درجة عالية من الإثارة الجنسية. إنه من الرخام ولكن يراودنا انطباعٌ بأنه من الجلد والأعصاب، إنه حي إنه التمثال الأقرب لامرأة حقيقية وهذا طبيعي: فقد تم تنفيذه بعد إسقاطٍ على امرأة على قيد الحياة. لهذا يمكننا رؤية حتى الخال والثنيات الصغيرة أعلى الفخذ. كان أسمها "ابولوني سباتيه" سماها بودلير الذي جن بها

"الرئيسة". إحدى "أبعادها" كما كانت تلقب في تلك الحقبة والتي كانت تطبق كلمة "بيل أوتيرو: "تأتي الثروة أثناء النوم ولكن ليس النوم وحيداً". وضع عشيقها قشاً في منخريها لكي تتمكن من التنفس تحت الجص الذي غطى جسدها بأكمله حتى ينفذ الإسقاط.

يجتمع الزوار حول هذا التمثال. ترى هل يعرفون الأسطورة؟ الحقيقية؟ هل يطرحون كل هذه الأسئلة؟ يتجسد دائماً على صورة باز الهائلة نوعٌ من إطار الأمان وكأنها تستحي جداً من أنها يقترب أحد من الصورة.

بالنسبة لي كانت هذه الصورة الأكثر تحيراً. بل أكثر من تصوير "العالم والأصل" خصصت عدد النسخ الهائل ذاته للوحة الأيقونية في كوربي. هناك رجلٌ عجوز حول لوحة "المرأة التي لدغها ثعبان" يتقدم بمهابة بيده قبعة الجوخ وتتلألأ دمعة على وجهه الأشبه بالرق أجل دمعة. التقطت كل هذا وهي في غرفتها مع كاميراتها ذات الثلاث أرجل والدقة المتناهية.

تأسر اللحظات التي تمر كما أنها تعود للحظة التي تختارها لتضغط على زر الكاميرا. ترى ما الذكرى التي استيقظت لهذا الرجل العجوز؟ أي الصورة التي أحياها الماضي. أي حبيبة اخترق استحضارها طبقات السنين وفجرها؟ كانت ساحرة نوعاً ما إنها "إكزانا دو حبيون" كانت تقول لي ببساطة إنها في غرفة التصوير تستسلم تماماً لما تعمل. أما في الكاميرا الرقمية فإنك تمضي وقتك برؤية ما تعمل ولا تقوم بها عليك.

يمسك مراهقان بيد بعضهما بعضاً عن بعد. همست له بأذنه فابتسم. سيستسلمان للحب بعد ساعات عندما يضاجعها الغرام في غرفتها الصغيرة

ويضم إليه أعضاءها المرتخية. ترىٰ سيفكر ببحبوحة أبولوني؟ ولكن علىٰ يسار الصورة هناك شابٌ متأنق يرتدي زيّاً أسود ويعتمر قبعة كالبطيخة مزينة بورقة لعب "آس البستوني". إنه يقترب من العمل بحذر وبيده جواله فينهض حارسٌ بدين ويتكئ علىٰ كرسيه وانتصب ليوقفه ترىٰ هل سيتمكن؟ ضغطت باز علىٰ زر الكاميرا. الحكايا تُنسج الآن وفي رؤوسنا يستمر نسجها. نجحت في معجزة جعل صورها حيّة لا تنضب.

حان موعد المعرض. الذروة. الأوج. المجد. قصر ملوك فرنسا الملكية قادمة من إسبانيا. باز مع أعمالها. باز في حضن أعمالها. الخالقة بين مخلوقاتها. تختال بزيها الأسود بين البشرات البيضاء المتحجرة كالتماثيل.

تختال باز الفنانة المغمورة ما بين النخبة الثقافية في البلد، أكبر مسؤولي المتاحف والعارضين الأكثر شهرة والصناعيين وجامعي التحف والصحفيين أمثالي.

يا إلهي، هنا أنا أراهم. اتجهت نحوهم ألا أسبب لهم الألم! حفيدة dinamitero في وجه مدافع المهنة، خفت عليها خلافاً للافتتاح الطلابي في الفنون الجميلة حيث التقيت بها وكأن الحياة ليس لها سوىٰ أن تدفعنا لنفكر بالأبيض والأسود وكأنه كتب علينا أن يترافق السلبي مع إيجابياتنا.

يا بني هكتور يجب أن تتخيل انتصاراً.

انتصار باز

في قاعة كارياتيد المبهرة التي قمنا بزيارتها ليلاً، هذه الغرفة الكبيرة ذات القبة حيث راقصت لولي البلاط. بدت كما لم أرها قط مع كل خيالاتي وكأن في هذه الأمسية كل ما أحببت لابد أنها قررت أن تكسرني لآلاف القطع.

كانت باز الكلاسيكية المعاصرة.

ترتدي صندلاً من الجلد وفستاناً أسود بسيطاً مشدوداً تحت نهديها بشريط فضي كاشفاً عن عنقها وذراعيها بلون الكراميل رقبتها عارية تحت شعرها المرفوع كعالمة تفلت منه بضع خصلات. اقتصر مكياجها على بشرة لفتاةٍ من الجنوب، وعيناها السوداوتان وفي أذنيها قرطا مجوهرات "الكريبول" كما في أول يوم التقينا فيه اعتراني اضطراب شديد. أخبرتني كنت أعرف أنها تركت حقيبة كبيرة من الجلد في مكاتب مسؤول الاتصالات في متحف اللوفر. كنت أعرف أنني أراها للمرة الأخيرة.

وصل مسؤول المكان واتجها نحو بعضهم بعضاً.

وضعت النسخ على أعمدة تتوسط الأعمال فتقدّمُ هكذا انعكاساً أخاذاً، على سبيل المثال "هيرمافروديت النائم" يغفو مرة في الصورة وجُسد في معدنه على بعض خطوتين منا. في الصورة هناك زوّار يتأملون التمثال مسحورين بغرابته وهم نفسهم محط الأنظار، يتأمل التمثال والزوّار زوارٌ آخرون هم من يحضرون معرض باز ويشاهدون الصور. بعين النظر المشاهدون الذين يشاهدهم مشاهدون آخرون وخلفهم تماثيل أخرى التماثيل الحقيقية مضاعفة في الصور.

"كيف الحال سيزار"؟

إنه طارق يرتدي كالعادة ربطة عنق لوّنها ابنه. ربّت على كتفي وقال: زوجتك موهوبة. ثم انتقل في الحال نحو رجل الأعمال الذي دخل للتو يرافقه شارل راي نحات "الطفل والضفدع" ذاك النحت الذي ترك في نفسي أثراً لدرجة أني رغبت بإنجابك يا بني هكتور.

تدافعت الصور في رأسي، تدافعاً سريعاً جداً. منذ تلك اللحظة التي ظهر فيها شارل راي حتى مولدك، ومن مولدك إلى حوت العنبر للوريس، ومن حوت العنبر للوريس حتى حضن باز في فيينا ومن حضنها إلى نزهتي في فينيسا حتى "الطفل ذو الضفدع" في القفص الزجاجي تحت نور القمر نحته شارل راي الموجود هنا، تسارعت نبضات قلبي. أخبرتني باز مسبقاً. كان رائعاً ثم أسدلت الستائر.

حُتم علي أن أبقى وحدي معك يا هكتور.

حدق بي مشفقاً تمثال هرقل وهو يمسك بابنه "تيليف"، عُقدت أطراف جلد الأسد "نيميا" باستهتار حول عنقه كأكمام كنزة صوفية. يمسك الطفل بيد واحدة وبهدوء تام وهو يتحرك أمام بطنه محاولاً مداعبة الظبية التي تمد خطمها نحوه، يبدو أنه يقول لي: "لا تقلق سيزار، أعرف هذا ويمكنني تخطيه".

تم تقديم باز لشارل راي. لماذا لم أذهب؟ لم يعد لي وزن. كنت سعيداً من أجلها. ماذا بقي بعد متحف اللوفر؟ متحف ميتروبيلوتان في نيويورك؟ سألتها صحفيةٌ أمريكية: كيف ترين نفسك مقارنة مع نحاتي العصر القديم الذين يصنعون أعمالهم بأيديهم؟

كان السؤال استفزازياً بل وفيه بعضٌ من الاستحقار حتى يورط باز بالاستسلام أو بالاعتراف بأن فنها التصويري لا يمت بصلة مع ما يمارسه الفنانون الذين ينحتون الحجر.

خشيتُ أن تنزلق... أن تسلك هذا الطريق بيد أني سمعتها تجيب مرتاحة وظريفة: أرى نفسي أعلى بكثير لأن فناني القرن الثاني كانوا عاجزين عن استخدام آلة تصوير.

قهقه الجميع وكذلك الصحفية ثم شكرتها.

كان هناك كاميرات في كل مكان وفنانون مثل عادل عبد الصمد لوريس جيرود وعازف الراب بوبا قادماً من ميامي وكارل لاجيرفيلد، يشبه أكثر من أي وقتٍ مضى لاندسكنيشت[1] ذي ربطة الشعر، وصلا في الوقت نفسه. القيا التحية علي بسرعة وقبلا باز بحنان. سجل حضورٌ لسلمان رشدي ما بين "الفضائل الثلاث وساتير الراقص" نشر للتو مذكراته صفق له لدى مروره شاب ذو لحية يرتدي tee shirt كتب عليها Rock the fatwa. كان موقفاً مكهرباً وكثيفاً ولافتاً، تخلق أعمدة المكبرات غابات متحركة تحت أفاريز القصر. كان هناك شامبانيا وملذات كما قيلت عباراتٌ غايةٌ بالأهمية مثل: "لا يمكننا أن نفصل اليوم ما بين الرواية والسياسية والحميمة.. آسف لكننا لم نعد في زمن جان أوستن التي تمكنت من كتابة عملها كاملاً خلال الحروب النابليونية من دون أدنى إشارة لها. "سلمان رشدي"

1 - جنود المشاة.. مرتزقة أوروبيون جلّهم من الألمان بين نهايتي القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

"يحرض الفن المعاصر نبضات أما الفن القديم فيوقظ المشاعر" "نيكول كوجيل"

"أجد في الأيلولين جمالاً ولو ملكت أرضاً كبرى لأعمر عليها منزلاً. لعمرت جناحاً للأيولين" (كارل لاجيرونليد).

"غالباً ما ينتقدون العنف فيما اكتب ولكن بينما نتحدث تحوم طائراتٌ محملة بالصواريخ فوق العالم ويخوض ثلاثة أرباع الكوكب حرباً" "بوبا"

اخترقت باز الحشود لتنضم إلي. مدت لي كأساً لنشرب النخب معاً. وما إن شربنا النخب طبعاً سُمع بالكاد صوت الكؤوس وسط ضجيج الافتتاح. قالت: "ها قد تم الأمر ووصلت للذروة"

لم تكن تبتسم. طرحت السؤال الذي كنت أعرف جوابه مسبقاً إلا أنني ما توقفت قطٌ عن طرحه: - إذاً ستذهبين؟

- نعم.

- يالقسوة ما تفعلينه، هل تعلمين؟

هذه المرة لم أتكلم عن هكتور.

- "أنا آسفة" شربت كأس الشامبانيا بجرعة واحدة ووضعته على الأرض.

- أعتني بنفسك واعتني به. لن يطول الأمر كثيراً.

تبعتها حتى الهرم ثم نحو الدرج. كان الليل في الخارج ضارباً للزرقة. وقفت على سطح من الإسمنت يلتقط السياح صوراً أمام الهرم وهم يمدون أيديهم بتلك الطريقة التي تظهر فيها صور بناء "pei" يحطّ على

أكفهم أو ترتاح سبابتهم على قمته. نظرت إليهم باز بحزن "أترى ما عادوا بانتظارنا.. مات فني"

كانت هناك سيارة سوداء وطويلة كالسمكة تنتظر في ساحة كاروسيل.

سألتها: ماذا عن حقيبتك؟

- إنها في صندوق السيارة. تولى الشباب في المتحف ذلك.

أكد السائق. رأسه يشبه رأس الدب يصعب الوثوق به.

- قالت: إنها مجرد لحظة.

هززت برأسي فتحت باب السيارة.

دخلت إسبانيتي الكلاسكية المعاصرة في المركبة. النظرة الأخيرة. دفعت الصفيحة المعدنية وأقلعت السيارة.

لقد غادرت.

غادرت باز

لو تعلم ماذا فوتت عليها.؟

ثمانية أشهر، إنها مدة طويلة تجري فيها أحداثٌ صغيرةٌ جداً وغاية في الأهمية مثل:

- أول مرة تعرفت على نفسك في المرآة وابتسمت.

- المرة الأولى التي رميت فيها اللعبة من يدك وتبعتها مسحوراً بمسارها مكتشفاً بانفعال قوانين الجاذبية.

- المرة الأولى التي قلت فيها "ماما" لكنها لم تكن هنا.

في البدء ظلّت توافينا بأخبارها ثم تباعدت وكانت أخباراً مبهمة. رسالة عبر الإيميل أو اثنان غير معبرتين: أفكر بكما. كل شيء على ما يرام. آمل أنكما على ما يرام أيضاً. وآخر: "أشعر أنني وحيدة سأعود قريباً". لا شيء يدلني بماذا أجيب. ماذا كنت أعمل دون أن أضيف "اعتنِ بنفسك" أعلم أنها اتصلت مرات كما أخبرتني مربيتك الكولومبية، طلبت منها باز أن تبقي الأمر سراً لكن لا بد أنها شعرت بالضيق من أجلي: "والدة هكتور اتصلت".

ماذا كنت أشعر حقاً؟ بالحقد. إنه أفضل علاج لقتل الحب. قلبي ممتلئ بالحقد لأنني افتقدها جداً.

كنت في نورماندي حين رن الهاتف. فأنا غالباً ما أتردد إلى هناك. في حضن عائلتي ومعك يا هكتور. كم كنت استمتع برؤيتك تترعرع في

أحضانِ ذكريات طفولتي وأراك تكشط ركبتيك على دراجتك في الطريق المؤدية إلى المنزل وتذهب لصيد السرطان مع جدك والسماء الرمادية المعتمة في كاو تجعل من الحقول أكثر اخضراراً.

أثرت فيّ فعيناك تلمع بقلق كعيني من قبلك حين نلقي القشريات في المياه المغلية وتتوسع حدقتاك حين تصطحبك جدتك لرؤية الشراغيف في البحيرة وتجمع البيض الطازج عند المزرعة، كم كنت أستمتع بسماعك تقول: "أقطف البيض"

كنت أشعر بالسعادة وأنا ألامس يدك الصغيرة بيدي لأصطحبك لجمع الحصى البيضاء على شاطئ سانت أردس وأسمعك تلعب بألعاب القراصنة المتحركة. دائماً تنقص ذراع ذي اللحية السوداء وتفقد مثلي قطع صندوق الكنز الصغيرة. وتوبخك جدتك مثلي حين تطلق بالبندقية على زجاج الصالون وتسألني أحياناً عن الصبي ذي الشعر المائل للأبيض والذي عُلقت صورته على جدار الغرفة التي تنام فيها وكانت صورتي فأقول: "إنه أنا حين كنت صغيراً"

- كنت عجوزاً حين كنت صغيراً؟

أضحك وأحاول أن أشرح لك وأعرض لك المسار في المورثات والزمن.

- حين يكون الشعر شديد الشقار يكون مائلاً للبياض وأنا أشقر لأن جدتي شقراء، هذا لا علاقة له بالشيخوخة.

- نعم لكن جدتي عجوز ولديها حفر.

- حفر؟

- نعم في وجهها.

- آه تقصد تجاعيد؟

- هل سيصبح لديك تجاعيد أنت؟

- نعم ولكن فيما بعد.

- ومع ذلك لديك شعر أبيض هنا..

أشار إلى صدغي بأصبعه الصغير: "ماما ليس لديها".

ما إن ذكر والدته حتى تملكتني رغبةٌ بالبكاء، لم أكن أعرف أبداً أين كانت.

رويت لك حكاية بيرسيوس والفرعون من كتاب الأساطير القديمة كنت تسألني: لماذا لهذه السيدة شعر كالأفاعي. قلت لك: إن شعر الفتيات كالأفاعي وهذا يجعلهن عجيبات.

- لكن عيونهن تحولنا لأحجار؟ تعلمت للتو هذا الفعل.

- أجل يمكن لعيونهن أن تحولنا لحجارة.

وتحول قلبك لحجر.

يتمتع والداي برزانة مثالية، لم يطرحوا أي سؤال عن باز، فقط يسألونني من وقتٍ لآخر وهل أنت بخير مع ذلك؟

❖ ❖ ❖

أتى ذلك اليوم، كنا عائدين من نزهة على الأقدام بين الصخور ما بين تيلول وإيتيريتا. أخرجنا من الأرض الكلسية بقايا حلزون ومن التربة الحمراء سن سمكة قرش. صدفةٌ مضحكة؟ سنٌ جميلةٌ جداً سوداء عريضة

مدببة، إن مررناها على لب الإبهام لشعرنا بمسنناتها. كان القدماء يسمونها "لساناً حجرياً" كما أوضح والدي - لسانٌ حجرية؟- أجل لسان أفعى أو عظاءة حولتها الساحرة أو جنية الصخور لحجارة.

الغورغون؟ قلتَ مصدوماً فوراً. كنت ترتدي معطفك وتبحث بين الحصى عن قطع زجاج صغيرة مشذبة وتدعوها بالحجارة الثمينة ثم تضعها على جزيرة القراصنة التي عمّرها لك جداك من الطين منذ يومين على الشاطئ حين يمكن لقواربك المتحركة أن تقترب ومغارة للكنز وبركانٌ ألصقوا عليه الحمم التي لونتها باللون البرتقالي.

كان شكل هذه الصخور مهيباً هل انتبهت؟ هناك ثلاثة أجيال من الناس في هذا الميدان الحجري ذي المئة متر بارتفاع أبيض ومخطط بالأسود. أمامنا البحر بلونٍ أخضر غامق عنيدٌ وعبق الأشعة يفوح منه تصفعنا الرياح المالحة لكننا ما شعرنا بالبرد حيث كنا بحالة جيدة بدفء أرواحنا. سلكنا الدرب الصغير المتعرج عبر الوادي تتقد نارٌ في موقد منزلنا. كنت تلعب بالقراصنة على السجادة الكبيرة وسن سمكة القرش هو كنز ذي اللحية السوداء الجديد.

رن جوالي، عزف قيثارة. السفارة. لم أفهم. سمعت اسمي على الهاتف.

"نعم إنه أنا.. بالطبع هذا يعني لي شيء. تعرف؟ ماذا تروي؟ حدثني عن "مركز.

- اعذرني لكن أظن أنك مخطئ.

- هل أنت السيد..؟ قلت: نعم. أعطوني تفاصيل، كانت كلكماتٍ في منتصف وجهي. سألوني عن علامة فارقة. أجبّت: وشم. صليب.

انزلقت على الأرض وظهري على الجدار.

- إن المركز هو من أعطى التنبيه.

- عن أي مركز تتحدثون؟

- مركز الغوص. مركز الغوص "أبو نواس"

دام الحديث بضع لحظات أيضاً، ثم أغلقوا السماعة بعد أن سجلت رقم هاتف. نهضتُ ودخلتُ إلى الصالون حيث يفرقع اللهب. مررت يدي في شعر رَجلي الصغير وهو يتفرس في وجهي بعيني والدته. نظرت إلى والدتي. هل يمكن أن تعتني بهكتور؟

- بالطبع. ماذا جرى؟ تبدو كشبح؟

- عليَّ أن أقوم برحلةٍ طويلة.

/بلاد علاء الدين/

/الشرق الأوسط بار السوشي/

أخرجت تذكرتي وبقيت في ممر الإقلاع. ممرٌ طويلٌ من الاختناق التجاري. علّقت إعلانات بنكٍ إنكليزي أسس منذ خمسين عاماً لتمويل تجارة الأفيون، تلفح كل عبارة كهبوب نسمة:

"المستقبل مليء بالفرص"، "التبادل الجنوبي- الجنوبي سيصبح عادة لا استثناء"، "سيدخل القطن والذرة بمنافسة على الاستثمار". إن التجارة على سطح الكوكب تنمو حتى وصلت عتبة الغيوم.

بل فاقت الغيوم. قذفنا دفع المحركات لألف مترٍ للأعلى. كنا مشبعين بالنبيذ، مهزومين بالضغط، وملتصقين بالأرائك. كانت الغفوة تهدهد لي حين سحبني صوت المضيف المعسول والآلي من سهوتي مقتحماً مجاري السمع.

"سيداتي وسادتي، سأمر الآن بينكم لأعرض عليكم منتجات متجرنا، قطعٌ للجوال. عطورات من الماركات الكبرى. /Calvin Klein/ Gautier J.P/ Gucci. لابد أن أحيطكم علماً بأن هذه المنتجات أرخص من المتاجر الأخرى بـ ٢٠/ ٣٠٪، لو رغبتم حقاً بمعرفة الثمن لا تترددوا بالسؤال ويمكنكم الدفع بالكرت الأزرق. إلى اللقاء. ثم تمت إعادة العبارة باللغة الإنكليزية، لم أكن واثقاً من أن الكلمات لغوياً صحيحة ولكن ما صدمني بالرسالة هو ثقلها وعنفها، فلا تَمُتُّ للواقع بصلة مع تحفّظ المضيفات اللواتي كنَّ منذ برهة يدفعن عربة أمامهن ويعرضن بضائع بأسلوب مهذب وجذاب تقريباً. يزداد فقر أوروبا، يبدو الشاب مضطراً فهو يقبض عمولة على مبيعاته في الطائرة. من دونها، لا يمكنه أن ينتفع من المساعدة الغذائية

لزوجته السابقة وراتبه تناقص ٣٠٪ بسبب الأزمة وجهود التعاون التي طلبتها الشركة من موظفيها.

رأيتُ من كوة الطائرة السماء المتناثرة بالأبيض والأزرق. ترىٰ هل سيخترعون نظاماً إعلانياً مرئياً من الغيوم؟

استعدت "الإلياذة": علىٰ حصون طروادة، يعتمر هكتور خوذته ويتهيأ للمعركة وهو يودع أندروماك ذا الأذرع البيضاء ولابنه استياناكس الذي كان في الثانية أو الثالثة من العمر. رجته باسم حبهما وابنهما باكية ألا يذهب للمعركة ويجعل منها أرملة ومن ابنها يتيماً.

أدخل هكتور الطمأنينة لقلبها وقال كلام شرف- طروادة العزيزة كما نقول فرنسا العزيزة- ثم انحنىٰ نحو ابنه الذي بدأ بالصراخ مرعوباً من الدرع اللامعة وشعر الجواد الذي يزين خوذة والده. أطلق هكتور قهقهةً كبيرةً ونزع خوذته ثم أخذ ابنه في أحضانه وضمه إلىٰ صدره وتوجه إلىٰ الآلهة قائلاً: فلتقولوا له يوماً ما: إنه متفوقٌ علىٰ والده! بعد أن دخل اليونانيون إلىٰ المدينة، رموا الطفل من أعلىٰ أسوار طروادة.

لم تكن فكرة جيدة للنوم، أغلقت الإلياذة وأخذت الأوديسة، وطلبت فودكا أخرىٰ. تسبح الغيوم في السماء كبقايا رغوة حلاقة في مغسلة. لم نكن نرىٰ الحواف القرميدية.

القنصل الإسباني هو من كلّم السلطات الفرنسية، حيث عثروا علىٰ اسمي ورقم هاتفي بين أغراضها.

تحاكي الشاشة المحمولة علىٰ ظهر المقعد أمامي حركة الطائرة. هذا مكان الكعبة أشير للصرح المكعب الذي يتوسط المسجد الحرام في مكة

والذي يولي كل المسلمين وجوههم شطره ليقيموا الصلاة. كنت مستعداً لأضحي بكل شيء وتتباطأ حركتنا لدرجة ألا نصل أبداً. يجلس بجواري شابٌ بالثلاثينيات من العمر بلحية صغيرة يرتدي بنطال جينز وحذاء رياضياً، بدأ بالحديث، تتملكه الفرحة والحماسة. كنت أرغب بالنوم لكنني محصور ما بين الكوة وبينه وصعب علي الإفلات.

قال: أنوي الحج.

- ما زلت شاباً.

- الحج أحد أركان الإسلام طالما أني لم أقدم عليه يعني أنه ينقصني الركن الخامس للإسلام. ثم أني لا أعرف متى سأموت، أنا الآن بصحة جيدة ولدي الإمكانية للقيام به ويجب القيام به حين نملك لذلك سبيلاً.

همستُ: كل من لديه الوسيلة والعدة الكافية للذهاب لبيت الله المقدس ولم يتم الحج يموت على أنه يهودي أو مسيحي.

- توسعت حدقاته وقال: والله لديك معلومات جيدة.

- مهتم.

- من باب الاحترام إذاً.

وضع يده على قلبه وقال: اسمي إبراهيم.

حدثني عن الاستثمار بالحج حين دفع أكثر من ثلاثة آلاف يورو. لكنه قدم لي وجهة نظره. إذ إن النفط يتناقص مع مرور الأيام ما يجعل تذاكر الطيران أغلى ثمناً. كلما انتظرنا كلما اقترب الحج من الصيف وهو أصلاً امتحانٌ بسبب الازدحام عندها يصبح احتماله أكثر صعوبة مع الحر.

ليس لديه أطفال ولكن لديه الكثير من المشاريع وأهمها إتمام فريضة الحج ليمنحه الله المغفرة بعد ذلك.

كما أضاف: إن الكعبة ستهدم يوماً ما.

قلت: أجل ولكن مع نهاية العالم.

- لعل هذا قريب الأجل، من يعلم؟

- أجل هذا يأتي أسرع مما نتوقع، أنت محق.

أغمضت عيني ساعدني الكحول. كدت أقع في أحضان النوم حين أعادني صوته:

- أنا متشوق لرؤية الكعبة.؟

أثّرت فيّ النجوم المتلألئة في أحداقه. سألت: هل ستحاول لمس الحجر الأسود؟

نظر إلي بإعجاب: أنت تعرف كل شيء.

- قلت لك إنني مهتم.

- عليك أن ترافقني.

ابتسمت. مكة محرمة على غير المسلمين ويحرم عليهم وضع قدمهم على درج المدينة المقدسة. هذا الحجر المثبت على عارضة فضية أسفل المكعب الكبير المقدس. يقال إن ملاكاً حمله من الجنة وأنه كان أبيض في الأصل لكنه أسودّ من أيادي البشر الخاطئة. وقيل إنه يعود لديانةٍ قديمةٍ جداً سبقت دين محمد. ويقال إنه يوم البعث سينطق البشر ليشهد على صدق القلوب.

- ماذا تقول؟ إنه حجرٌ نيزكيٌّ؟

هزَّ رأسه

- نزل من الجنة ليدل آدم وحواء على محل معبدهم. كما أن الرسول صلى الله عليه وسلَّم قد قبَّله وهذا يكفيني.

اطّلعت كثيراً على هذه المسألة لأفهم لماذا يعود الدين عودة مدوية إلى الزمن الغابر ويحتل الصدارة دين الإسلام. توصلت لنتيجة أنه رفضاً للصور في هذا العالم حيث تحتل الصور كل شيء. الكعبة كانت خالية من الصور لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يُمثَّل بشيء ولا بصور. تذكرت باز التي كانت تلتقط صوراً جميلة وقوية.

سألني: - وأنت لِمَ أنت هنا؟

ترددت ثم أجبت: - لأعثر على زوجتي.

- هل هي مسلمة.

- حسب علمي لا.

- وماذا تفعل هنا؟

- لا أدري.

اكتفى بهذا القدر من الأسئلة من باب الأناقة.

أغمضت عيني وأقلعت آلة الذكريات، لحسن الحظ جيل صديقي المفضل سيكون باستقبالي حين تحطُّ الطائرة. غاب عن نظري منذ أن اختار الحياة في هذه الأراضي البعيدة. درسنا معاً ونهلنا من بحور. سنوات كهربائية، مدرسة الذهن ومدرسة الجسد. أحاطت بنا أجسادٌ سماوية ذات شعرٍ طويلٍ، قرأنا الكثير وداعبنا الكثير وكم حلمنا بأن نكون كتاباً. نجوم

روك أو حكماء.. جيل وسيزار. نكتةٌ وكم كنا أحمقين إذ ما ضحكنا لها. رحلتنا الأولى كانت معاً إلى الهند بعمر الثامنة عشرة. ماذا يفعل هناك؟ إنه يعمل بالبنك، مختص بالتمويل الإسلامي. الحياة غريبة، من الأفضل ألا أفكر. أنا في هذه اللحظة احتاج للنوم لئلا أشعر بشيء.

شاهدت فيلماً أخرق قبل أن أنزلق للعدم، ثملاً بالنبيذ تداعبني رؤى المحاربين يعتمرون خوذاً، وطلقات دبابة العدو، ملكاتٌ وآلهة تتملكها الغيرة.

بدأت الطائرة بالهبوط دون أن ألاحظ، ما فتحت عينيّ حتى لحظة ارتطام عجلات حافلة الطائرة بالمسار مصدراً ضجيج احتكاك مريع كدولابٍ ضخم على عاج أسنان عملاق.

أخذت حقائبي بين حشدٍ من التماثيل الحية بشراشف بيضاء وأحزمة جلدية. تأخر الوقت وجفف التكييف عيني المرهقتين بالنور الاصطناعي الصادر من إعلانات المحلات ومن النوافير الكيتشية وأشجار التمر البلاستيكية. الهواء ثقيلٌ وصاخب ومثلج. الرائحة الفائحة على بعد كيلومترات من المتاجر واخزةٌ ومقززة. أسير شارد الذهن لا ينقصني سوى أن تصدمني إحدى العربات الكهربائية التي تصرّ على الأرض الملساء وعلى متنها ثلاث نساء محجبات وملتحفات بالأسود. أذكر حين كنت في بيروت، خائفاً مما سأجد. أفكر بباز. أتمسك بالدرابزين، أتجه نحو مكتب التفتيش منزلقاً على أرض الغرانيت الأبيض الملساء كوجنة طفل، أحلم بأن يوقظوني ويعيدوني إلى أوروبا، لكن فات الأوان فأنا لا أشكل تهديداً لأمن المملكة، أومأ لي الرجل الذي يعتمر كوفية من غرفة الحراسة الشفافة فأنا لا أعنيه يمكنني الذهاب.

ها قد عبرت إلى الطرف الآخر، حنثت بوعودي. أفكر بالجسد الذي ينتظرني ومعدتي تتكور داخلي. أوف! جيل هنا، لم يتغير نفس خيال الدمية العظيمة لكنه يربط ربطة عنق حد الاختناق.

كيف حالك يا صاح؟ قال وهو يضمني بحميمة ويطبطب علي بحب. لم يتعرف على باز. أضاف: أنا آسف.

بلعت لعابي ومن فوق أكتافي تتلألأ لوحات الإعلان. تتمايل أثواب النساء والرجال كشعلات، لون السبوت شديد البياض، تلح علي الرغبة بالعودة على متن الطائرة.

"جيل، هل يزعجك أن ننسحب من هنا"؟

الهواء في الخارج دافئ وصافٍ. مزامير السيارات وأصوات الهواتف النقالة الحادة. إنه رقص الباليه نفسه كما حال كل سيارات الأجرة في العالم لكنها هنا أطول وأكبر وبزجاج مطلي. تدحرج حقيقي على الزفت.

توقف جيل أمام سيارة مختلفة، سيارة "جيب والنجر" بلون أخضر مموه وسط صفٍ من العربات السوداء. هناك سقفٌ من القماش فوق المقاعد. أدار مفتاح السيارة ومد يده إلى المذياع، صوت مألوف وتناغم مرح بصوت أغنية إنكليزية بنبرة عالية جداً، رمقني بنظرة "ديسكو ٢٠٠٠" الأغنية الضاربة حين كنا بالعشرينيات ثم تزلج بين مكاتب المحاسبة العجيبة، ترك المرآب واتجه نحو المدينة التي تبدو من هنا كمدينة فيلم Blade Runner.

Any they said that when we grew up
We'd get married and never split up
We never did it although often I thought of it

تقول كلمات الأغنية: إننا كنا نقول بأننا حين نصبح كباراً، سنتزوج ولن نفترق أبداً وما نفذنا هذا أبداً مع أنني لطالما فكرت بذلك.

يتلألأ النور هناك كصودا هائلة الحجم. يبدو أن السيارة تتأثر بالمدينة منطلقة على طول الشريط الزمني الذي لا يكف عن الامتداد تحت الجسور والأنفاق والالتواء على مستويات مختلفة.

من حولنا، تنبسط غابةٌ من الأبراج المضاءة بوميض متعدد الألوان والمنتصبة على وجه الصحراء بأشكال غريبة من شعلة حتى كبسولات معدنية هائلة. البرج الأطول عبارة عن إبرة منظار تمزق نسج الليل. تباطأت السيارة ثم استدارت يساراً ثم تباطأت مجدداً ثم أسرعت لتتجاوز سيارات الليموزين الطويلة، طقطق قماش السقف بالريح رفع جيل الصوت:

you were the first girl at school to get breasts
Martyn said that yours were the best

تقول كلمات الأغنية: كنت أول فتاة في المدرسة ظهر نهداها ومارتين يقول إنهما الأفضل

عَبَرَ طوفانٌ من الذكريات أمام عيني. أفكر بإحدى الدانماركيات شقراء كمتزلجة على الجليد، وهي تمشي على أربع تحت العارضة الخشبية في شقتها على الأرضية التي أسودّت برماد سجائرها، أتذكر غلاف كتاب "بوسشن" بطبعة الجيب وعليه رأس موله بالمسيح على خلفية حمراء. أتذكر رحلتنا إلى برشلونة حيث انتظرني النهد المكور لتلك الفتاة ذات الفم المتجهم مستندة على نافورة في الحي القوطي.. أحن لنعومة الأغطية القطنية المنجدة والرطبة

الآتية من الهند حيث كنت أتكور فيها عند جيل، أتذكر الرسم الجميل الذي صممته لي طالبةٌ بالفنون في الفترة التي استسلمت فيها للجنية الخضراء: قنينة مكتوب عليها "الروح المقدسة". اذكر الشحاذين في الحمامات العامة حيث كنت اغتسل بالصابون في "بلاس موغ". قبل أن أخرج للرقص على أنغام أغنية

The boys all loved you but I was a mess
I had to watch them trying to get you undressed

تقول كلمات الأغنية:

كل الرجال أحبوكِ وأنا صعقت حين رأيتهم يحاولون تعريتك

حياةٌ لم تكن باز تعرفها

تباطأت سيارة الجيب ثم تركت الأوتستراد وانزلقت على مسار آخر محاذية جامعاً تنتصب منارته كمنصات إطلاق صواريخ ثم دخلت في مرآب فندق تزينه حديقة. نخلاتٌ حقيقية أخيراً. يفوح عبق البحر، أوقف جيل السيارة. أصخت السمع، يعلو صوت النادي الليلي على صوت الأمواج. قال: "سنذهب لنشرب كأساً"

تقدّمنا بعض الأزواج بتنزههم بمحاذاة زبد أمواج البحر المؤدي لبناء أبيض ذي شكل هندسي تحرسه مضيفة ترتدي تايولاً، قبلها جيل وعرفني بها، يفوح منها عطرٌ جميل ما ذكرني بأنني كنت أفضّل أخذ حمامٍ لطيفٍ بعد ساعات أمضيها في الطائرة. ابتسامتها شديدة الحمرة. نادت فتاة أخرى اصطحبتنا إلى طاولةٍ تطل على بحيرة تتأرجح فوقها اليخوت. طلب جيل

"موجيتو". أخرج علبة السجائر من سترته وناولني سيجارة ثبتها بين شفتي ثم لامسها اللهيب فبث الدخان الراحة داخلي.

قال: إذاً؟ أخبرني ما الذي جرى؟

- إذاً، عثروا عليها هناك عند الشاطئ.

بالطبع سألني السؤال الذي لم يكن لدي جوابه: ماذا كانت تفعل هناك؟ هززت برأسي، خفض رأسه، يخجلني أنني لا أعرف، تتعالى الموسيقى من حولنا. موسيقى كهربائية بعزف قيثارة.

- هل تعرف أبو نواس؟

- إنه في إمارة أخرى. منطقة صغيرة جداً. اعتقد أني ما ذهبت قط أراد أن يقول شيئاً. تردد. قلت: "هيا جيل، لن يكون ما تنوي قوله أسوأ مما خطر لي منذ ثلاثة أيام..

- هي.. أقصد القول، جثتها أين هي؟

أجبت إنها ما زالت هناك احتفظوا بها في مكانٍ باردٍ. حين سمع "وضعت في مكان بارد"، عبس وقال: "آسف".. تظاهرت بالقوة: "الجثة توضع في مكان بارد"

وضع يده على يدي وقال سنذهب معاً: لا تهتم سيزار، ربما ليست هي.

لطالما خطر لي هذا، أسعدني أن غيري قالها، إلا أنني لست مقتنعاً رفعت يدي لأنادي النادل. تكور البحر. تناهت لمسامعي ضحكات الفتيات المتمددات على الأرائك البيضاء قرب طاولات منخفضة عليها أغطية شفافة. وصلت فتيات أخريات خرجن من العمل وما زلن ببزة العمل أو هناك من بدلن ملابسهن ويرتدين فستاناً صيفياً. حرير ساتان، ألوان قماش

وكسّر، قمصاناً ذات ياقات مرتفعة، شعرٌ أشقر، أحذية ذات كعب عالٍ جداً. بعضهن شديدات السمرة يرتدين ساري أو جنزات بيضاء ضيقة جداً. إنه يوم الجمعة، يبحر بعض الرجال وهم يرتدون بولو "رالف لوران" وعليه رسم الفارس ومنهم يرتدون قمصاناً مخططة ذات ياقة وأكمام بيضاء. رجالٌ جردٌ وشقر، غامقون وملتحون.

صححت فتاةٌ حمالة فستانها، بشرتها حمراء وبجانبها فتاةٌ صينية تبلل شفافها بكريم تونيك. تتلألأ الفقاعات في القارورات الزجاجية. تنبض الحياة في هذا العالم بينما أنا ذاهبٌ للموت.

يستمر العمران هناك خلف المارينا، لاح صفٌ آخر من الأبراج مرصعة بالأنوار. أنهيت قدحي.

قلت: وأنت ماذا عنك؟

- عمر لويس حسان ثمانية أعوام. رسمياً ما زلت مع والدته وغير رسمياً، الأمر أكثر تعقيداً فلا أعلم أبداً أين هي.

تعرّف على ليلى بعد فشله بامتحان درجة الأستاذ، عندها وضعه والده في طريق الاقتصاد. كان ذلك في لندن في مدرسة لندن للاقتصاد والحب الكبير. كانت ليلى جميلة جداً لكنها مكسورة.؟

- ماذا تفعل هنا؟

- تخونني.

توقف هنيهة ثم تابع: "حسناً الوضع جيدا لقد توقفت عن الشرب.. أخيراً امتنعت عنه يومياً.. في عيد الميلاد الماضي. في الأرجنتين، امتطت الحصان عارية تماماً أمام أهلي".

- ماذا تروي؟

- الحقيقة. كنا في زيارة لأصدقاء أهلي في الأرجنتين. هل تعرف أن أهلي في الأرجنتين الآن؟

- كلا، لم أكن أعرف.

ينزلق كل شيء عليه، لطالما كانت صاحباته من هذا. قال لي إنه كان يرى مضيفة نيجيرية في طيران دبي لوفتهانزا. طلب تجديد المشروب للمرة الثالثة. استكملت. يومي غداً سيكون قاسياً، لابد من التحذير. النسيان فقط هذا المساء. طلبت فطيرة قريدس.

- أنت تعمل بالبنك إذاً؟

بدا عليه الأسف: "آه.. نعم"

- مختص بالتمويل الإسلامي.

هزَّ رأسه.

- وما هو التمويل الإسلامي بالضبط؟

- التمويل وفق الشريعة.

- التسمية رائعة ولكن ما معناها عملياً؟

- أصدر صكوكاً، قروض إسلامية.

- صكوك.

- أجل، جمع كلمة صك هو "شيك" بالفرنسية هي قروض مطابقة للإسلام ففي الإسلام الربح المالي أي الفائدة حرام: لابد من إسناد تمويلك لثروة حقيقية سيارات، عمارات، معادن.. هذا لا يسمى "فائدة" بل إتجار.

- يعود لنفس الشيء؟

- حسب المبدأ لا: أنت تضمن أن دائرة الاقتصاد الرأسمالية تعكس دائرة الاقتصاد الإنتاجي. واقعياً إنها وسيلة تسويق هائلة لأن البنوك الإسلامية تعوّض لدفع قروض إسلامية على غرار البنوك الاتفاقية.

وأنت هل تعجبك الصكوك؟

- جنت ٧٠٠ مليار في ٢٠٠٨ و١١٠٠ مليار في ٢٠١١. سيتم تطويرها في فرنسا لأنها ذات أبعاد ممتازة.

ابتسمت وقلت: هذا مضحك، كلا؟

- ما هو المضحك؟

- نحن. أتذكر، منذ عشرين عاماً خلت، حين كنا في مناطق فقيرة، في الهند، لم يكن ينقصنا سوى أن تخطفنا مؤسسة هاري كريشنا بسبب حماقتك.

- آه، العاهر، أولئك الرجال الذين لديهم ذراع أو قدم على الأقل..

- كما أنك أقحمتنا في أمر..

رفع يده ليناردي النادل. دارت عجلة الذكريات. عبق المانجو في بونديشريري. وعبير الزبدة والزهور على تماثيل غانيشا في معابد ساري مينكاشي في مادوراي. المرض الذي أصابني في ظل ريش المراوح. قال جيل:

- نُحولك وميلك الدائم للتنزه عاري الصدر مع نطاق البراهمة[1] الأحمر.

1 - البراهمة: مذهب ديني في الهند.

- وماتيو الذي كان يسافر معنا.

- نعم ماتيو.

مرّت لحظات صمت، خمد حماسنا للحظة، تابع جيل بنبرة سؤال قوية: أتذكر المعهد؟

أجبت حالماً: بالطبع.

تابع: "كان علينا الذهاب بعد الهند إلى الشرق لنعيش تحت أسقف القاهرة ونتزوج شهرزاد لتعلمنا العربية.. وندخن الهوكة كما في منزلي بشارع استراباد ونكره المال لنعيش مثل المتسولين كريمي النفس ونحن نقرأ ألبير كوسيري..

- قلت وأنا أشيح بنظري نحو البحر وأمواجه المتتالية: أعرف ومع ذلك لم يكن هذا ما قمنا به حقاً. أتذكر أنك ما كنت تحلف سوى بتنابل الوادي الخصب وها أنت تعمل في البنك بنك مطابق للشريعة.

- وأنت كنت تريد أن تصبح روائي جيلك وها أنت صحفي..

- أتظن أننا خنا؟

- أجل أظن أننا خنا.

- لكن بخيانتنا نجحنا.

- نجحنا في ماذا؟

- في البقاء، ربما..

خيم عليه الحزن وعليَّ أيضاً. كنت أعرف من سيقتحم حوارنا: "ماتيو" الذي كان يدرس دييلوز Deleuze، وقفز من أحد الأبنية المدنية الجامعية. الدخان يقتل، فلسفة أيضاً.

أضاف وهو يشرب جرعة من موجيتو: كان الاسم مضحكاً كلياً، لم نقصد روحنا.. نظرت إليه مبتسماً: "هل هذا سؤال يا جيل"؟

لم يرغب بالإجابة، لم يجرؤ بالاعتراف أنه يتساءل. لم يرغب في أن يفكر بالأمر لوقت أطول. كما اتجهت مجموعةٌ من الشبان نحو طاولتنا.

جيل قدمني لهم، زملاء من البنك ومن بنكٍ آخر. تجار ووسطاء وأخصائيون بالاندماج والاستحواذ والكسب في سوق رأس المال.

أسماؤهم علي وغرازيل وإليستير وناتاليا ونيلوفار وكيلي وعبد الرحمن. إنهم من الباكستان وسينغافورا وإنكلترا وروسيا.

نسميهم المغتربين ولكن هنا وطنهم الحقيقي. الفتيات قمن بتقبيلي وصافحنني وطلبنَ كوكتيل مع أو بدون كحول وبدأن بحوارات يقطعنها بغتةً لتفقد الجوال ثم يتابعن الحديث الذي قطعنه دون إزعاج. كل شيء سريع دون اصطدام والعربة اللغوية هي الإنكليزية.

جارتي سوداء جميلةٌ جداً ترتدي بنطالاً منفوخاً بنفسجياً فاتح اللون، يبدو قماشه خفيفاً كجناح يعسوب. تنظم الديون وفجأة بدأت تصرخ وكأنني وضعت ودون سابق إنذار يدي المتجمدة ما بين الجلد الذي يغطي حرير ملابسها وقالت: "OMG my parents"

OMG: تعني يا إلهي. ثم راحت تغرق أصابعها النحيلة كأعواد الثقاب الطويلة على لوحة مفاتيح جوالها المغطى بصدفة مرصعة بالكريستال الأزرق، لاح وجه والديها وبدأت تحاورهم على السكايب بجوارنا دون حاجة لخصوصية وبلغةٍ مجهولة سألتها حين أغلقت "أين يسكنون"؟ أجابت بصوت ناعم وجذاب "توركسكايكوس" كما يجب أن تكون الحياة

في جنة الضرائب هذه في بحر الكاريبي على بعد ١٢٠٠٠ كيلو متر من موجيتو.

صار بوسعنا إلغاء المسافة. مادياً صار يمكننا الذهاب إلى كل مكان بعدة ساعات وافتراضياً يمكننا التحليق فوق أي مدينة ببضع نظرات على "غوغل إرث". ها نحن الآن نلغي الزمن فالوضع المباشر يهيمن ويحتل الصدارة لم يعد هناك ماضٍ ولا مستقبل بل حاضر أبدي هذا هو العالم الجديد.

أغوص بحالة لم تعد الثانية بل الثالثة. لم تعد الأماكن ولا الساعات حقيقية كل شيء بات مبهماً حسب التقنيات العالية. تحيط بي الأبراج. لدي شعور بأنني في كرةٍ من الثلج. إنه العالم الجديد.

❖

بشرات شابة وشاشات ذات إنارة خلفية. ما من عجائز. ما من فقراء. لا قسوة. هذا هو العالم الجديد.

❖ ❖ ❖

الوقت لا يمر بل ينزلق. كان جيل يرقص وها هو الآن عند البلاتين أصبح DJ يمتطي صهوة الموسيقا، منكباً على العمل يمسك بالسماعة ما بين أذنه وكتفه وقدم لنا كل فن الديسكو البريطاني لأعوام التسعينيات، قدم الموسيقا التي كنا نحب والتي ما عرفتها باز. سال الدمع على وجنتي والماضي يتربع وسط هذا الحاضر الأبدي. لاحظت أنه ليس هناك تجاعيد. إنه جيل نفسه الذي كنت أراقب معه الأمطار الموسمية في إحدى مزارع

الشاي في سيكيم. ذات الشخص الذي كنت أذهب معه لاصطياد السرطان في أنهار جبل كاتار قبل أن انزلق كالانقليس في الماء المنعش.

وضع أغنية tell me لمجموعة Stones Roses

(I love only me, I love only me, I've got answers to everything)

استحضرت الفتاة الإنكليزية ذات النهد الصغير التقيتها في مسبح تولوز، المدينة الوردية.

كما وضع أغنية لتراش سويد

(Maybe it's the times we've had/ the lazy days and crazes and the fads)

تذكرت منزلنا في الضاحية قرب نهرٍ مغطىً بالزبد وأنا اقرأ للكاتب الفرنسي فيليه دو ليْسل أدم، أقطع الجوارب الشبكية لفتاة فاخرة الهيئة بمقصٍ من البلاستيك.

أجل، في هذا السوشي البار في العالم الجديد، التمويل الإسلامي من البلايين ويستحضر الأشباح الأنثوية، ولكن ولا واحدة ولا واحدة تصل لكاحل باز. ما أعطتني أيّ منهن السعادة التي أعطتني إياها باز... ولا الألم.

⌒

أبو نواس

ما راودتني الكوابيس. نمت بوقتٍ متأخر على الأريكة في الصالون الواسع الذي تحولت جدرانه لمكتبة. ما زال يعتقد بحماية الكتب دائماً ومقدرتها على توسيع الأفق، ترى هل تسعده شاشة من الأبراج. كلا، لم يخن.

داعبت رائحة قهوة شهية جفني الناعسين، تتخلل الشمس عبر الخليج الواسع الذي يفتح بالضبط على هذا الأفق من الأبراج. تسيل الشمس على الواجهات تتراقص بعض ناطحات السحاب كاللهب وأخريات كأنها تفتح غطاء السماء البيضاء وأُخر مكللة بالتيجان. أبنية ملكية تنبثق من ساحةٍ من أجهزة رفعٍ تلوح اسمها متحركة كمالك الحزين زهري اللون. فهمت لماذا سميت رافعات.. وددت فتح الخليج وأعرف عطر هذه المدينة صباحاً. بحثت عبثاً عن آلية الفتي التي لا بد أنها..

"لا تفتح" استدرت وإذا بجيل بسرواله الداخلي وقميصه حافي القدمين على أرضية الرخام، يناولني فنجاناً يتصاعد منه الدخان وعلبة بارسيتامول.

- بسبب التكييف.

- النوافذ لا تفتح.

- آسف.

تناولت فنجاني وعليه رسم الأمير الحالي. بثت الرشفة الساخنة دفئها فيَّ. قال لي: لذلك لدي سيارة جيب، على الأقل أشعر بالمدينة. ألا يسبب ألماً في الرأس.

- لا بأس.

- في أي ساعة تريد أن نغادر؟

- هززت رأسي وقلت: سأذهب وحدي، جيل.

- أنت واثق من أن الأمور ستسير على ما يرام؟

- لا بد من ذلك.

كان على وشك أن يجيبني حين دخل صبيٌّ صغيرٌ إلى القاعة وهو يرتدي بيجامة ذات مربعات ويفرك عينيه من نور الشمس، شديدُ السمرة، عمره ثماني سنوات ربما. قال: "أعرفك بلويس حسان".

قبلني الصبي الصغير فذكرتني وجنتاه الساخنتان بكَ. رأيته حين كان صغيراً جداً. لعبنا بكرةٍ من الموس على عشب "انفاليد"

- هل تذكرني؟

هزَّ برأسه.

قال جيل: سأتصل بالمربية وأكون لك فيما بعد، حقاً لا تتردد.

- من الأفضل أن أذهب وحدي.

فهم الصبي كل شيء. "إذاً هل يمكننا الذهاب إلى دولفين باي، بابا"؟

ابتسمت وقلت: أجل يمكنك الذهاب إلى "دولفين باي" مع بابا.

ثم استدرت نحو جيل وقلت: "ما هو دولفين باي"؟

- مسبحٌ كبيرٌ حيث يمكن لنا السباحة مع دلافين مرباة.

أضاف الصبي: وهل يمكننا أن نرى ورشة "روتاتينج تاور" أيضاً.

قبل جيل، صاح الصبي فرحاً. تقدم والده نحو الانحناء الزجاجي ومدّ ذراعه ليقول: "ها هو هناك انظر وسط الرافعات. ذاك البرج يستهويه. كل طابق شقة ألف متر مربع مجهزة حيث يمكنك الصعود بالسيارة. ولكن هذا ليس بجديد. الجديد هو أن شقتك يمكنها الدوران على محور البرج بمعزل عن بقية الطوابق بما يشبه طاحونة. بأمر صوتي، بمجرد سماع صوت المالك يمكن أن تبدء بالحركة لتقدم للسكان منظراً بانورامياً على صمت مستمتعاً يرشف قهوته.

- هل يعجبك المكان؟

تشرق الشمس طيلة العام مع أنها تغيب باكراً. يشهد الشاطئ في المدينة نشاطاً لا تجده في أوروبا رغم أنه اصطناعي ولا نلمس العلامات والإشارات الزمنية. أشعر بأنني في قلب عالمٍ ينبض هيجاناً وحركة لعلها ليست حركة خلّاقة أو إيجابية لكنها حركة..

تعانقنا طويلاً وتمنى لي الكثير من الشجاعة. اتصل إن واجهت أي عائق وبضربة من سيارة الجيب تجدني حيث تريد. وقال إنه يلزمني أربع ساعات للوصول وطلب لي تكسي.

- ربما ليست هي، أتعرف..

- لديهم جواز سفرها. ستروي لي عن الدلافين..

تمضي سيارة Navigator Lincoln كالفقاعة على طول الأوردة الحارقة للمنطقة العمرانية. كنت محاطاً بجدار من الزجاج وإبر هائلة مغروزة في الرمل بأيادٍ بشرية، لحم أولئك العبيد القادمين من الهند والباكستان والصومال ليعطوا الحياة لهذه الأبنية المعمارية الهائلة التي تُطهى مثلهم

بدرجة حرارة أربعين تبثها شمسٌ عادية. بعض هذه الأبنية مغطى بالإعلانات، إحداها تعطي أمراً أسرى البرد في ظهري: "كلا توقف"

إنها مدينة من دون أرصفة، ونساؤها يرتدين حجاباً ويمشين على طول الطريق بل على الزفت بين غيوم من الغبار والحرارة تحت مظلة من أجل الظل. فلبينيات وإثيوبيات وسيرلنكيات يعدن للعمل في المنازل. من بعيد ينزلق قطارٌ برّاق على سكة جسر مطل على وادٍ كمزلجةٍ ثلجية نحو المحطة القادمة كصدفةٍ من الفولاذ. على الجانب اليساري، يرتفع هرمٌ مصريٌ محمي بتماثيل ذات رؤوس صقور. على الجانب الأيمن، معبد أزتيك تنحدر منه مزلقة ضخمة جاثية.

يتواجد الكل في كل مكان، لم يعد هناك تاريخ. أصبت بالدوار. غادرنا المدينة وها هي الصحراء وطريق مستقيم لا نهاية له. صادفت شاحنات وسيارات SUV مشابهاً لسيارتي.. وليموزين أخرى سوداء. الزجاج على جانبي الطريق فزاعات حديدية هائلة الحجم تمد ذراعها كآلهة هندية مقسّاة تتجاوزها حبالٌ تتعرج الفضاء الرحب. جيشٌ من الأعمدة الكهربائية بارتفاع صاعق يغيب الحارس الأخير في ضباب الحرارة. أمسكت بهاتفي وضغطت أرقام والدي. فتحت والدتي الخط: نحن في المطبخ. يحضر هكتور المعكرونة. هل ترغب في أن تكلمه؟

- قولي له إني أحبه.

أعادت: هل تود أن تكلمه؟

خشيت أن أنهار. أختنق صوتي. كلا. اعتني به وبنفسك.

- أين أنت؟

- بعيد.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- أجل. قبلاتي لكما. لا يمكنني أن أطيل بالحديث، لست وحدي. قبلاتي.

أغلقتُ السماعة. حاولت ألا أفكر بشيء تابعت بنظري مسار الخطوط الكهربائية. الرجل الذي كلمني من القنصلية أو من السفارة. لم أعد أعرف سيكون هنا خلال بضع ساعات. طلبت من السائق أن يحط موسيقى، عزف على جواله المعلق على حرف السيارة، وانطلقت أنغام عشرين كماناً في حجرة السيارة، عود ودربكة وقانون شاركوا بالعزف. موسيقا هائلة ومتموجة كالأفعى "كا" في كتاب الأدغال تنزلق على الجلد والخشب مسحورة مضاعفة بالصوت الأنثوي الرنان والدافء والحاد بعض الشيء.

للمغنية المصرية الكبيرة أم كلثوم: إِنت عمري إلي ابتدى بنورك صباحو.. يا حبيبي أد إيه من عمري قبلك راح.

ساعات وساعات وأم كلثوم تغني وصوتها كالبلسم لتغطي ألمي بألمها، وصلةٌ لا نهاية لها منومة أو ثابتة تصطحبني بعيداً جداً للجهة الأخرى من هذه الجبال المزركشة بلونها الأصفر المحمر الملّوح بالشمس تنعكس على واقي السيارة. موسيقى تخطفني وتحررني من التأثير المحبط الذي تبعثه هذه البلدات الكارثية التي نمر بها.

مدنٌ هامدة لا روح فيها خلا سيارات البيك آب التي يقودها رجالٌ يعتمرون الكوفية ويرتدون الدشداشة مزررة حتى العنق. إلى جانبهم عوض الموت، خيال أسود لا يظهر فيه سوى العينين.

أغمضت عيني. إنها مداعبةٌ مع بعض الخشونة. يفوح عبق الياسمين من جديد من ساحات الشرق المزروعة بالورد وتبغ الأركيلة. شرقٌ لم يكن عمراناً ولا تقاطعات قاسية تزين مدخل البلدات: أراضٍ من المرج الأخضر وسط الصحراء، حدائق من زهور إبرة الراعي تتوسطها إبرة هائلة تصل لارتفاع أربعة أمتار أو مصباحٌ سحري كما في ألف ليلة وليلة. تذكرت ما قلت لهكتور قبل ذهابي: أنا ذاهبٌ لبلاد علي بابا؟ فنٌّ رديء يقلقك بل يكون أحياناً مثيراً للقلق حيث يشار للبلدة بسيخين محبين من الإسمنت يتصلان وينوفان على الطريق كحاجز كارثي.

هناك بعض الجوامع جديدة تماماً بيضاء خلابة دفعتني فوراً للتفكير بما قاله لي أحد الأصدقاء وهو عالم إسلامي: هناك قسمٌ كبيرٌ من القرآن لا يمكن فهمه بمعزل عن الفرضية الجنسية. لمست الدليل أمام عيني قببٌ مدورة بكشحٍ منتفخة وحرفٍ منتصب ومآذن مستطيلة تتطاول نحو السماء. هذا صارخ.

عبرنا عدة نقاط تفتيش وفي كل مرة يأخذ العسكر جواز سفري يتفرس بي بالسيارة ثم يسمح لنا بالمرور. غاباتٌ أخرى من الأبراج وتقاطعات أخرى وإمارات أخرى. وسلطنات أخرى بأسماء طنانة: الفليتح- القتيبة- الطوق- الهماهم.. تتغير الأسماء وحسب أما ما تبقى فنفسه، ذات البحر ذي الرمل الناعم والصخور السوداء والبنية التي تميل للشقار كلما اتجهنا جنوباً لقلب الصحراء. يلوح حاجزٌ من الجبال تقترب مكعباتٌ القرية الصغيرة المترقبة أكثر فأكثر من واقي السيارة.

قال السائق: أبو نواس.

ها نحن. التقطت نفساً عميقاً ثم أمسكت هاتفي وطلبت الرقم. وقال الصوت بأذني بالفرنسية: أنا بانتظارك أعطني السائق سيسهل علي المهمة.

سمعت السائق يقول: حسناً حسناً يلا..

استدار نحوي وكأنه يتحقق أن هذا هو المكان المطلوب فقلت: يلا.

ينتظرني الرجل أمام المبنى بلون الكريمة متقشفاً، لا طوابق له لعل وظيفته مكتوبة على اللوحة البيضاء التي تطل فوق الباب، لم أتمكن من فك الرمز، بعض الحروف العربية يعلوها هلالٌ أحمر وسيفان متصالبان. تلك العادة السيئة.

رغم الحر، كان يرتدي بزة غامقة، احترمت تصرفه. يمتد سقفٌ من الخيش يظلله هو وماعزٌ تسترطب ملتصقة بجدار المبنى. هناك بابٌ أسود مغلق ما بين الرجل والماعز محاط بنافذتي شبك. فتحت باب السيارة وقلت للسائق: "انتظرني". أمسك الهواء الحارق بحلقي. سرت نحو الرجل، نحو الرعب، نحو الأمل؟ لا أعتقد. ترى هل تكون على قيد الحياة دون أن تزودني بأخبارٍ عنها؟

عرّف الرجل عن نفسه ومد لي بطاقته. خليّة الأزمة في القنصلية. قال إنه لابد أن يكلمني قبل الدخول. موت أحد الأقارب فاجعةٌ يصعب تجاوزها وخاصةً حين يقع في الغربة لكنه هنا ليمد لي يد العون. سيتم تحرير وثيقة وفاة محلية والخدمات القنصلية الفرنسية أي هو سيقوم بتحرير وثيقة وفاة أجنبية في القيود المدنية الفرنسية، لا داعي لأن أزعج نفسي بهذا. قدموا لي عشرات من الوثائق مصدقة ومطابقة للأصل ما يتيح لي القيام بالإجراءات المطلوبة حال عودتي إلى فرنسا أما بالنسبة لبصمات الفقيدة... طلبت إليه التوقف.

اقتربت نحو العيادة "الجثمان بحالةٍ جيدة" هذا ما قاله من خلفي وكأن هذا حظٌ في خضم مصيبتي. خطر لي فوكيه وتلك الأجساد المخضرة على طريق خاولاك وبعلماء النفس الذين خالوا أنني أحد الأقارب العاجز عن التعرف على الجثمان. يا لسخرية القدر..

كنت أرتعد رغم الحر، ارتعد ويسيل عرقي، كنت أشعر بعرقي يسيل على طول عامودي الفقري لكنه بارد وهذا البرد ينسل إلى عظامي. رغب الدبلوماسي في أن يسبقني ليفتح لي الباب لكنني سبقته. في الداخل، كان هناك ثلاثة عجائز يعتمرون قبعات ينتظرون على كراسي بلاستيكية. تشبه رجل أحدهما البطيخة. الرائحة واخزة. لم يعانِ. أشحت بناظري. على الجدار، هناك لوحةٌ ممزقة عليها مقطع من جسد إنسان مع الأعضاء الرئيسية، إلى جانبها ضمن إطارٍ ذهبي الزعيم المحلي بكوفية بيضاء وفي إطارٍ آخر بالأسفل تماماً سورة قرآن مخططة بحروف بيضاء على خلفية خضراء.

نهض رجلٌ قوي البنية يرتدي سترةً طبيةً من مكتبه حين رآني. يجب أن أتبعه في الممر. على مسافة قصيرة جداً هناك بابٌ عليه رسمٌ بشكل ندف من الثلج. دفع الباب، إنه ثقيل. خدشني العطر كما البرد.

جسدٌ ممدد على طاولة مغطى بشرشف، حفر الألم معدتي. هذا غير حقيقي. يعمل جهاز للرائحة ليطغى على الروائح. يا ترى؟ كيف لنا أن نصل إلى هنا؟ في هذه المستوصف البائس آخر العالم؟ قال الرجل شيئاً بالعربية. ترجم الدبلوماسي بحركة بيده وكأنه يدعوني لدخول مسرح: "تفضل". تقدمت. أمسكت أنفاسي. رفع الرجل الشرشف حتى الكتفين.

- لا مفاجأة. لا الرب ولا الآلهة ولا الصدفة إلى جانبي.

إنها هي. قطعاً هي. للأسف إنها هي.

وجهها المحجب الذي ما مسه أحد، شاحب محاط بشعرها الأسود الطويل.

وليست هي.

لا شيء سوى ظرف. فوضى. فوضى بلون العاج. ليست بشرتها. ليست بشرتها حين كان دمها يسري ويغلي تحته ويعطيها ذلك اللون الغامق كآلهة متوسطية. لم تعد هي.

وكأن الألم تبخر بلحظة لم يعد هنا لمعان كهربائي وحرقان أسيدي. فقط ليلٌ أسود في قلبي وكأن صمام أمان انسدل. ليس هناك مكانٌ سوى للغضب. الغضب في مواجهة هذه الفوضى.

سألت الدبلوماسي: هل هناك تفاصيل أوفى؟

كلا. وجدناها على الشاطئ، كما سبق وأن قلت لك.. هكذا. لمست الضيق بلهجته كرر قائلاً: هكذا، كما هي الآن..

كان يقصد القول "عارية" ولم يجرؤ. تجرأ أن يعكرني بشهادات الوفاة لكنه لم يجرؤ أن يقول "عارية"

أعاد الموظف الشرشف على الجثة.

- غارقة، من دون أي تعليق شرح؟ هل أُجري تحقيقٌ؟

ناولني الدبلوماسي ظرفاً من ورق الكرافت: "هاك التقرير، مع ترجمة بالإنكليزية. دخل الماء في رئتيها، لا يبدو على الجثمان أي علامات مثيرة للشك. غرق..

أصررت: حدثني أحدٌ ما على الهاتف عن مركز غوص...

نعم لأن "مركز ديف" هو من أخبر السلطات.

فتح الموظف الباب، موجةٌ من الهواء الحار والمغبر غطتنا.

لفظ لدى عودته أول جملة قالها منذ وصولنا: "سعيد مارين"

استدرت وكأن أحداً عضَّ كعب رجلي. قلت بالإنكليزية ماذا يعني؟ أجاب وهو يمسك بالباب: سعيد مارين.

استدرت نحو الدبلوماسي قال لي: نحن ذاهبون إلى هناك؟

كلا، بالبدء ماذا قال؟ سأله الدبلوماسي بالعربية وسمع الجواب، مقتضباً ثم ترجم لي. قال: إن بحاراً وجدها. أنا آسف أفهم ماذا يعني...

تقدمت نحو الموظف، نظرت إليه بانتباه وقلت: لا تقصد بحاراً بل اسمه ماران أليس كذلك؟

أكد الموظف.

نخلة ثلاثة أوقات

انزلقت الشمس خلف الجبال لم يعد في السماء سوى لـونٌ أحمـر غـامق. يدوي صوت المؤذن.

حي على الصلاة

حي على الصلاة

حي على الفلاح

حي على الفلاح

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله

"يعمل القنصل مع مجموعـة أنـوبيس، قـال الـدبلوماسي. إنهـم خـبراء بإعادة الجثامين لأوطانها"

أنوبيس هو إله الموت في مصر، له رأس ابن آوى. إنه تسويق غير معقد.

- افعل ما يحلو لك. طبعاً.

- طبعاً.

صحح ربطة عنقه ليشغل يديه دون شك. قال لي دون أن ينظر في عينـي رغم محاولته: "لدينا معاونة نفسية تحت تصرفك.."

- شكراً، سأكون على ما يرام.

- هلا عدت إلينا من أجل الإجراءات، قد تحتاج لقليل من الوقت.

صمت ثم كرر: "قليلاً".

يداي ترجفان. ساقاي ترجفان. قلبي يرجف لدرجة أنه سيخرج من صدري.

أطرافي تؤلمني. الصدمة آتية.

- أين الشاطئ؟

- ربع ساعة بالسيارة. على الطرف الآخر للجبل.

- هناك مركز الغوص.

أكد.

- هل هناك فندق؟

- فندق جميل. استراحة.

كان لفظ الكلمة هنا أمام المستوصف حيث تتمدد زوجتي عبثية وصادمة أكثر من كلمة عارية.

قلت: شكراً على كل شيء. هلا شرحت الطريق للسائق.

- تكرم. تفضل هذا أيضاً لك.

ناولني ظرفاً من وزارة الخارجية.

- ما هذا؟

- فيه جواز سفر ومفتاح سكنها. بقيّة أغراضها هناك. كانت تسكن قرية صغيرة للصيادين قرب الاستراحة. هناك حيث تأخذ الاستراحة مؤونتها من السمك.

وددت أن أقول له بأن يكف عن لفظ كلمة استراحة.

- أترغب في أن نضرب موعداً غداً للذهاب إلى منزلها.

هززت برأسي "أفضل الذهاب وحدي".

بعد استعار الشمس جاء الليل تضيئه بخجل بودرة النجوم. حُفر الجبل، وتملأ المصابيح كشحه والصخور تصدر صريراً تحت الدواليب، لفّ السائق على المنعطفات بصعوبة، عبرت بعض الماعز في الضوء فبدت عيونها ككرات من الزجاج الشفاف. وصلنا الممر الجبلي ثم نزلت السيارة نحو طريق متعرج والسائق يضغط المكابح أما أنا فكنت أفكر بالمعلومة التي أعطوها لي في المستوصف، أجّلت اللحظة ولكن عليّ أن أفعل. أشعلت مصباح السقف وفتحت الظرف. مفتاح مع حمالة بشكل القرش ذي المطرقة أيضاً لقد سئمت وأصابتني الرعشة بالأعماق. "ماران" خطر لي الاسم هكذا.

المراسل الغامض. مصادفةٌ تحدث لكنني لم أرَ بعدُ بوضوح. كلمني جيل سألني إن كنت أرغب بأن يلحق بي. رفضت وشكرته: "هل ستتحمل الصدمة"؟

تابعنا بالنزول حتى وصلنا سهلاً. عبرت السيارة بوابة من الحجر عبرنا بين نخلات. عشرات وعشرات من الجذوع بين الأضواء. ساد الصمت في حجرة السيارة دون أن يتطفل عليه شيء؟ طلبت من السائق أن يوقف التكييف إذ برد دمي بما فيه الكفاية. يعمل المحرك دون جهد وها نحن ننزلق برخاء على الرمل. رأيت على مرمى نظري مبنى تنيره نقاط ضوء. هنا توقف السائق.

نزلت. كان الهواء دافئاً ومريحاً كما كان مالحاً يتناهى صوت الأمواج لمسامعي. جاء رجل يرتدي دشداشة بلون أزرق سماوي لاستقبالي.

"مرحبا". أهلاً بك سيدي في مركز أبو أنس. حاسبت السائق ثم غادرت السيارة. أنا وحدي الآن مع طيف باز. لم يكن يتجاوز الموظف ٢٠ عاماً. اصطحبني لمكتب الاستقبال، هناك شبانٌ آخرون يرتدون الأزرق السماوي. بناءٌ حجري مطليٌ بالكلس كالثلج وبأثاث خشبي، مدت وسائد على الأرض الخشب بلون غامق مع مروحة كبيرة. أعطوني منشفة اسفنجية بموديل بسيط حارقة وكأس من الصلصال فيه عصير سميك لبنيٌّ معطر. قال الشاب هذا "عصير تمر إنه مطفئ للعطش ومهدئ ولذيذ.

أعطيتهم جواز سفري وقلت إنني لا أدري كم من الوقت سأبقى، فأجاب أنه لا مشكلة لأننا هنا خارج الزمن.

للاستراحة منظمتها الزمنية الخاص palm tree time، تزيد ساعة عن المدينة كما أوضح لي لكي يتطابق غياب الشمس مع وقت الكوكتيل. سنصطحبك لفيلتك الخاصة. وأتمنى لك استجماماً طيباً.

- عفواً.

- بالم تري palm tree مشهورة ببرنامج الاستجمام: شمس وغذاء صحي وهدوء وتخليص الدهون. يمكننا أن نخلصك من كل السموم لا بد أن تستكشف الساونا وترى أنك ستخرج من هنا رجلاً آخر.

رجاني أن أخرج معه خارج المبنى حيث انتظرني خليجٌ صغيرٌ مع شاب يرتدي لوناً أزرق خلف المقود. دارت السيارة الكهربائية مصدرة ضجيج المحرك. عبرتُ قرية صغيرة بشوارع رملية ومنازل تضيئها فوانيس تتراقص شعلتها في النسيم. توقفت السيارة أمام أحد المنازل. دفع الشاب باباً خشبياً سميكاً ثم باباً آخر لأجد نفسي في غرفة خلابة.

خشب. وحجر ومصابيح تنثر نوراً ساخناً. طبقٌ من التمر الطازج على مائدة معدنية، يتصاعد البخار من أبريق شاي. سريرٌ كبير عليه أغطية بيضاء وتعلوه مروحة بشفرات عريضة. وضع الصبي حقيبتي على حمالة الحقائب قبل أن يتجه إلى ستائر ثقيلة قام بفتحها. انزلق سطحٌ زجاجي على السكك وتزين الليل بلون أخضر. مسبح من الموزاييك الزمردي. قال الرجل إنه بخدمتي يكفي أن أضغط الرقم ٩ عند الحاجة، تمنى لي ليلة سعيدة وغاب في ليلٍ عربي.

كنت في الرخاء وزوجتي ترقد في غرفة باردة. عذبني شعور الذنب. احترقت معدتي وانقلبت أمعائي. ذهبت لأحضر الدواء من حقيبتي ثم فتحت زجاجة من النبيذ اللبناني من البار الصغير المختبئ خلف باب خشبي منحوت بشكل جميل. تحررت من ملابسي ودخلت الماء مع الزجاجة. احتك النبيذ على لساني وتمددت على ظهري أخيراً استرخاء حتى قضيبي استرخى هامداً على فخذي. كان الهواء ناعماً لدرجة أنها كانت أننا ما استمتعنا فيه كلانا يا باز. رسمت النجوم وجهك. كم كنت أحبك وكم أكرهك. لا أريد أن أفكر بجسدك الذي اجتاحه الماء وقتله نقص الأكسجين. بذلت جهدي لأطرد من ذهني صورة تلك الجثة التي لم تكن أنت فقط غلافك. لدينا هذا الصبي المحبب وستبقي حية به. لماذا فعلت هذا؟ ساعدني النبيذ والحبوب وبدأت الأنوار بالرقص. كدت أموت أنا أيضاً هنا. لكن يجب أن أبقى حياً، أن أبقى حياً، أن أبقى حياً، أن أبقى حياً. من أجله، من أجل أن أعرف ماذا فعلت والدته أو ما الذي حصل معها.

/الجن/

فتحت عيناي في الشمس ونهضت. ظهري مكسور ورأسي كالمربى، نمت على حافة الماء، على البلاط الحجري، نهضت فضربت قدمي زجاجة فارغة تدحرجت ووقعت في الماء. عارياً مثيراً للشفقة وخاصة وسط هذه الحديقة الرائعة حيث تنمو أشجار الرمان والليمون الفوّاحة. يواريني سياج من سعف النخل عن الأنظار. في الداخل هناك حمامٌ في الهواء الطلق، ترسم الطريق إليه حجارة رمادية على الجانب طاولة خشبية سميكة، رتبت عليها مناشفٌ بلون الرمل.

سكبت الماء على رأسي وسال على جسدي مهدئاً، خف ألمي. فتحت عيني لأرى قوس قزح في قطرات الماء التي ترسمها الشمس، السماء الزرقاء أمامي تعلو الجبل. سورٌ عسلي تضيء فيه الشمس انعكاساتٌ صهباء، سور أخضر اللون مئات النخلات محملة بثمار شهية. يبدو أن الفاكهة الأسطورية التي تناولها أصحاب أويس في الأوذيسة تلك "الفاكهة الطرية مثل العسل" والتي انتشلت كل رغبتهم بالعودة لمنازلهم ما كانت بالحقيقة سوى "التمر".. ترى هل عليّ أنا أيضاً أن أقاوم هذه المتعة الغريبة؟ تحلق عصافيرٌ في السماء الزرقاء، تتعاون كلها لخلق اللذة.

جلست على وسائد مقابل البحر، أفيئ من حر الشمس تحت سقفٍ من السعف، أرتدي قميصاً وبنطالاً ناعمين وقدماي حافيتان على بلاطٍ رطبٍ.

حمل لي شابٌ جديد يرتدي لباساً أزرق سماوياً قهوة. لعلي الأجنبي الوحيد. تحت لافتة خشبية حيث يمكننا قراءة "vitamin shoot" هناك بوفيه يقدم لك كل أنواع الفاكهة الريانة رمان وليمون ومانغو وكيوي،

فاكهة التين قشرها من ورق وردي كالقشور، هناك أيضاً التمر وضعته طوعاً جانباً.

توقفت امرأة ترتدي ثوباً أبيض كالسترة أمام طاولتي. شعرها أحمر ولامع. كادت تخرج عن إيقاع المنظر ولكنها انسجمت كلياً بتناغم مع لون الصخور.

– صباح الخير. قالت بالفرنسية بنبرة بريطانية. اسمي كيمبريلي فلمينغ مسؤولة الفندق.

حييتها مسحوراً بلون عينيها الخضراوتين وغرابة اسمها. اسم كيمبريلي كما بريندا أو شينن. أنها سلسلة ولكن غير جدية.

قالت: لقد وصلت بوقتٍ متأخر البارحة إذاً أود بكل بساطة أن أقدم نفسي. أتمنى لك إقامة طيبة.

وافقت.

– لا تتردد بأن تطلب مني إن لزمك أي شيء.

– هذا لطفٌ منك. إنك تتكلمين الفرنسية جيداً.

شكرتني. تفحصتها. ترى هل كانت تعرف باز؟ كدت أسألها لكنني عضضت على شفاهي، لم أتفوه بكلمة. عليّ توخي الحذر كقرشٍ في موجة.

سألتها أين يقع مركز الغوص؟ أجابت في القرية تبعد ثلاث دقائق بالسيارة. المواقع خلابة هنا.

– هل يمكننا الذهاب عبر الشاطئ؟ أفضل المشي.

– عبر الشاطئ. أفضل وخاصة في هذا الوقت.

بحرفية، تفحصت فطوري وقالت: لم تتذوق حليب التمر سأطلب لك واحداً.

- شكراً، لا أحب التمر.

- إنك مخطئ. إنه مليء بالفيتامين، وطريٌ كالعسل.

هل قصدت حقاً ما تقول؟ إذ غمق لون عينيها الأخضر.

قالت قبل أن تختفي: أهلاً بك.

سرت عبر المنازل، يصل طريقٌ رملي إلى خط الزبد، لا يقطع الصمت سوى صخب الأمواج وصراخ الصقور المحلقة في السماء. الجبل كالسور. هناك حماية أخرى، سعف النخيل حيث تتفجر قطع النور مبعثرة على الأوراق ذات القلقين. قريةٌ عربية كما لم نعد نجرؤ أن نتخيل، تختفي ترفاً متوارياً في تشابك أشجار البن وجواهر أخرى. جنة عدن تهيم فيها ماعزٌ وترعى. تفحصتني إحداها من أعلى درج من الصخور البنية وهي تمص فاكهة لبية. نظرتها كإنسان. خلعت نعلي وأمسكته بيدي والبحر يلمع أمامي كجلد أفعى بلون أزرق يميل للخضرة في بعض الأماكن. أسلبت جفني أمام الضوء، وأيقظتني الريح المالحة. تقدمت على الرمل المبلل والماء يلعق أصابع قدمي فترنحت بالمداعبة. يغوض الجبل على يساري في عباب البحر بانقضاضٍ عنيف يميناً يترامى الشاطئ بارتخاء يشكل قوساً مع قرية الصيادين البعيدة الغائبة في زبد البحر.

هرب سرطانٌ خوفاً من الاهتزاز الذي تصدره خطواتي، بتوارٍ مضحك وممتع رافعاً مقصاته قبل أن يغيب في الخضرة.

وصلت وأنا أمسك حمالة المفاتيح. ها هي القرية: قوارب عائدة إلى الرمال. أعمدة كهربائية تحمل السلك القيم لبيوتٍ بسيطة بيضاء وصفراء ووردية، بطابقٍ أو طابقين وأبوابها خشبية أو حديدية. وضعت سجادات

ذات نقوشٍ زهرية على الشرفات لتجف. تنبسط على الأسطح صهاريج أسطوانية كفقمات كبيرة تحت الشمس، بجانبها هوائيات بشكل قاطع مكافئ. البناء الأكثر ارتفاعاً جامعٌ صغيرٌ بنوافذ قوسية الشكل. وشرفاتٌ لطيفة بيضاء ذات قببٍ زرقاء تقف سيارة pick up أمامنا. جلست أربع فتيات صغيرات إلى جانب بعضهن البعض يرتدين عبايات مطرزة بزهورٍ ملونة مكشوفات الرأس سمراواتٍ يتطاير شعرهن الأسود الجميل مع ريح المحيط. أومأن لي حين مررت بجوارهن ثم ضحكن بعبهن جسارةً. حييت رجلاً يرتدي ثوباً أسود وكوفية حمراء وبيضاء معقودة على الطريقة هنا مرفوعة من الجوانب ومعلقة خلف الرأس. كان يصلح شبكة وبفمه سيجارة تقطع كُتلة لحيته السوداء. إلى جانبه يقشر طير نورس بقايا رأس سمكة. خرج سرطانٌ جديدٌ من صفيحة مثقوبة. لمحت في نهاية الشاطئ على بعد ١٠٠ متر حيث يعود الجرف الصخري، مبنى جوانبه مطلية بالأحمر ومحاط بخط أبيض مائل. Diver doum flag أي العلم العالمي لمراكز الغوص. هناك تراسٌ على كشح المبنى مع طاولتين، لم ألحظ ما يدل على الحياة هنا.

فتحت يدي، رأيت القرش الخشبي الصغير. كان علي أن أطلب من الدبلوماسي أن يصف لي المنزل. سأسأل في القرية.

الطرقات من الرمل والحصى، يتراكض جمعٌ من الصبية بصخب خلف كرة قديمة من الجلد. أحدهم يرتدي دشداشة واسعة عليه لا يكف عن تعديلها على كتفيه، شعره فاتح بشكل غريب توقف تفحص بي قبل أن يلتحق بالآخرين. كُتب على أحد الجدران كلمتين باللغة الانلكيزية بخطٌ أحمر: Life over (الحياة انتهت). وصلت إلى منزلٍ أمامه كرسيان من البلاستيك وثلاثة رجال مع عجوزين وشاب يدخن "الشيشه". فاحت

رائحةٌ من الداخل حملت لمنخزي روائح السمك المقلي وزيت النخيل والتبغ. دخلت. ما بين القهوة والبقالة يقف المعلم بوجهٍ لَوّحتهُ الشمس يعتمر "كومة" وهي قلنسوة دائرية مطرزة يلبسها الرجال تحت الكوفية. لملمت بضع كلمات عربية. التقطتها ما بين بيروت ودمشق. "السلام عليكم".

طلبتُ فنجان قهوة، ظن حسن منه أن يحدد لي: "قهوة عربية".

خرجت وجلست على كرسي من البلاستيك، وصل المشروب بكأس زجاج durlex، وضع الرجل القهوة على طاولة صغيرة معاكسة "شكراً"

تفرس بوجهي وقال: أمريكي.

هززت برأسي "فرنساوي". قبل وكأنه اطمأن. قلت له إنني أبحث عن الأجنبية التي كانت تسكن هنا. هزّ رأسه "الفتاة". قلت بالعربية: البنت الأجنبية؟ وأشرت بشكلٍ مضحك لشلالٍ غزير من الشعر.

هزّ رأسه وعاد للداخل.

وضعت المفتاح على الطاولة. قلت في سري إنني غبي. نهض أحد الجالسين بجواري، الأصغر ممن يدخنون النارجيلة واقترب مني. لم يكن يرتدي دشداشة بل يعقد على خصره قماشاً مخططاً ويرتدي تيشيرت مثقوباً. مكشوف الرأس، تتلألأ كريستالات الملح في لحيته القصيرة وفي شعره.

- هاي! قال لي وهو يجلس بجواري.

- هل تتكلم الإنكليزية؟

- نعم أنا هندي.

- قلت: Namaste

أضاء وجهه. ابتسم. أسنانه ناصعة البياض. قال إنه قادم من الجنوب. من كوشان في كيرالا. هو مسلم وكان عليه أن يبحِر لكسب المال اللازم

لدفع مهر ابنته. غادر على متن قارب شراعي وبقي هنا حيث يكسب جيداً بالصيد ها قد مر عامٌ. سنةٌ أخرىٰ ويعود.

- كم عمر ابنتك؟

- اثنا عشر عاماً.

اتجه نظري إلىٰ حمالة المفاتيح التي حدق بها بانتباه.

"هل أتيت من أجل الإسبانية"؟

قفز قلبي من قفص العظام وافقته وسألت للفور: كيف تعرف أنها إسبانية؟

- كانت تتردد إلىٰ هنا في بعض الأحيان لتأكل وتشرب قهوة، وتشتري بعض الحاجيات في أحد الأيام كنا نشاهد مباراة فهنا يوجد تلفاز، كانت بين ريال مدريد وبارشا. بقيت فتحدثنا وهكذا عرفت أنها إسبانية. كنت أحبها.

أشعر بالأرتياح بالحديث عنها.

- أبحث عن منزلها.

نظر إلىٰ حمالة المفاتيح وبدا عليه الحذر، نظر حوله، صمت العجوزان وكأنهما كان يصغيان إلينا.

- لا يروق لهما أنني أكلمك.

- لماذا؟

- بسبب الفندق فهو يشتري السمك من هنا، ماذا لو تم إغلاقه..

- ولماذا يغلق؟

- بسبب موت الإسبانية.

ارتعدت لدىٰ سماعي عبارته الحادة القاطعة، لكنني تابعت:

- وهل يمتون بصلة لموتها؟

هزَّ كتفيه. "لا أدري. هل أنت من الشرطة"؟

- كلا أنا مجرد صديق.

-سأدلك علىٰ منزلها، ولكن سنلتقي عند الشاطئ لا أريد أن يروني. أشار بذقنه للعجائز الذين يدخنون الهوكا.

- لماذا؟

- يخافون من العين.

- ما هي "العين"؟

- العين السيئة.

استحوذ بردٌ شديد علىٰ أطرافي فجأة وثقلت. نظر إليّ بإلحاح وكأنه يقرأ بوجهي شيئاً أساسياً. شربت قطرة قهوة لأحافظ علىٰ هدوئي. قدم يده علىٰ الطاولة الصغيرة ثم وضعها علىٰ حمالة المفاتيح الخشبية.

- قرش.

- ماذا قلت؟

- قلت قرش. يوجد الكثير منها هنا. هناك بالضبط أمامك.. كما يمكنك العثور علىٰ الكثير منها في البحر.

قلّد حركة أنه يرتدي قناعاً. أرغمت نفسي لأعيده للحديث: "لماذا تتحدث عن العين السيئة".؟

- لأنها توفيت ولكن لم يكن البحر من دفعها إلىٰ الشاطئ، تكلم الناس عن الجن..

لم أكد ألمس بحديثه ما يشدني كأنه يضحك على عقلي. الجن أعرف ماهذا: إنه الجن الذي يخرج من المصباح في ألف ليلة وليلة.

- دلني على منزلها.

هزّ رأسه وأخرج علبة سجائر محصورة في مئزره ما بين الرباط وبطنه. أخذت واحدة بدوري وهو أيضاً ثم قرب شعلة ولاعته من فمي ثم ولع سيجارته. أحرق الدخان حلقي. زرع عينيه السوداوتين في عيني وقال: "أنا لا أمازحك. العين السيئة، الجن. هذا حقاً ما يقولون.."

ارتفع صوت بالقرب منا. جملةٌ موجزة بالعربية بلهجة عنيفة. إنه أحد العجائز، خاطبه بالعربية فقال لي: سأعود إليهم. اذهب أنت سألاقيك عند الشاطئ.

وضعت بعض القطع النقدية على الطولة ونهضت.

البحر جزرٌ، والأطفال يلعبون على الرمل المبلل، جلست مجموعةٌ من النسوة في الظل على التراب قرب شبكات صيد ممدودة تحت الشمس وهنَّ يغمرن الأطفال بنظراتهن.

تتهادى ثلاثة قوارب ذات محركات على الأمواج في عرض البحر. لحق بي شاب القهوة إنه لاعب قوي البنية. جلس بقربي.

- اسمي راكيم وأنت؟

- سيزار.

- هل أنت مسيحي؟

أجبت بنعم فهنا أن تكون بلا ديانة أمرٌ لا يعقل؟

مد لي سيجارة تابعت حديثنا بعد أن أشعل لي السيجارة: "قلت لي إنه لم يكن البحر الذي وضعها على الشاطئ.

- كلا لأن الغريق لا يكون له ذاك الرأس، رأس الغريق عادةٌ منفتح أما هي فلم تكن هذه حالها، كانت جميلة الحمدلله..

- رأيتها؟

- كلا ولكن هناك من رآها.

- من.

- آخرون..

ألقى بناظريه على البحر المتلألئ كحرير ثمين. وضاع فيه. هناك بالأفق بجهة اليمين، نعم مركز الغوص. أحدٌ ما يجلس على الشرفة، ترى هل ماران؟

- الناس في المركز هم من رؤوها؟

- نعم، بما أنها أجنبية، هم من أخبروا.

- هل كانت تعرفهم جيداً. الناس هناك؟

- الكل يعرف بعضه بعضاً هنا. حتى ولو لم يحب الناس بعضهم لكنهم يتعارفون. وأنا أيضاً أعرفهم.

- لا تحبهم.

- كلا.

- لا يجوز رؤية أعماق البحر هذا غير جيد. لو كان الأمر حسناً لوهبنا الله زعانف.. مثله! مشيراً لحمالة المفاتيح التي أمسكها بيدي.

- هل تحب سمك القرش؟

- كلا ففي قريتي في الهند يخرجون من النهر ويلتهمون الناس.

أشرت لمركز الغوص.

- وأولئك في المركز، لابد أنهم يعشقون سمك القرش، أليس كذلك؟

- أجل، هناك واحد بشكل خاص. إنه مجنون.

- مجنون؟

- أقصد مهووس.

ترددت بين الضيق- لم أفهم- هذا ما يقولونه؟

- ومن هم؟

- القدماء في القرية؟

- نفس أولئك الذين يتحدثون عن الجن؟

وافق.

- وهي توفيت بسبب الجن؟

- كلا توفيت في البحر لكن الجن هو من حملها إلى القرية. جنٌّ من رماها هنا، ليدب الخوف في القرية. إنها خائنة، مثلك مسيحية - وكيف عرفت؟

- كان الصليب على بشرة جلدها.

بلعت ريقي، أحاول احتمال ألمي وغضبي أيضاً لفكرة أن جسدها عرض للعيان. جسدها أسرار جسدها، اخترقتني للحظة خيالات قاسية انتهاكٌ تعلقتُ بالتقرير الذي أرسله لي الدبلوماسي: "غياب الآفات الرضية والعنف الجنسي".

- رأيتها؟

- قلت لك كلا.

عاد ناظره للبحر. ما هو الجن بالضبط راكيم؟

بقي ناظراه معلقين بالبحر وقال: "وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ".

- ماذا يعني هذا؟

- خلق الجن من ماغما النار.

- هذا من القرآن.

- أجل، الجن هم مخلوقات الله مثل الملائكة والبشر. خلق الملائكة من النور والناس من طين والجن من نار.

- هل هم أشرار؟

- لهم رغبتهم الخاصة، قد يكونون طيبين أو سيئين. إبليس جن. إنه جنٌ سيئ.

- إبليس؟

- أي الشيطان.

كدت أوقفه هنا، هذا أكثر مما أطيق لكنه الوحيد الذي يكلمني عنها.

- وهل تؤمن بالجن.

- كل الناس يؤمنون بالجن.. يؤمنون بالجن كما يؤمنون بأن جلد الأفعى يحمي من العين.

فجأة نهض وصحح مئزره، شدّ على يدي واضعاً يده على قلبه.

- آمل أنك ستجد الجواب..

نهضت بدوري. بقيت النقطة الأخيرة.

ما اسم المجنون؟

تسمر، تردد بالإجابة ثم أفلت اسماً: ماران.

- لماذا تقول إنه مجنون؟

- لأنه يتكلم مع السمك.

كدت أنفجر ضاحكاً. "هو الجن"؟

- كلا! إنه إنسان. إننا لا نرى الجن. هناك قبيلةٌ من الجن يعيشون في البحر! المريض، يقول كبار السن إنهم يتحدثون مع "المريض" أيضاً.

لم أعد أفهم شيئاً. حان وقت وضع حدٍ لهذا الحديث الذي يزداد غموضاً.

سألت: "أين منزلها؟"

استدار. مقابلنا قريةٌ محاطة بخط أشجار النخيل الأخضر يعلوها السور البني المذهب للجبل ثم السماء الزرقاء تماماً. مرت أمامنا امرأة، توقفت يتطاير حجابها الأسود بريح البحر الذي ينفتح بثناياه. نظرت إلينا للحظات ثم اختفت.

"هناك. المنزل الأبيض"

إنه منزلٌ بسيط جداً يشبه بقية المنازل. الشيء الوحيد الضخم المثير للاهتمام هما قوسان في وسط قبة بطول إنسان ويضم مساحة ظليلة بآخره باب خشبي مطليٌ باللون الأزرق تعلوه ثلاثة قضبان معدنية تتقاطع لترسم شكلاً معيناً ونجوماً. على اليمين نافذةٌ صغيرة محمية بشبك ألصقت عيني بها ولكن منعني نسيجٌ ذو أزهار من الرؤية. البابُ موصدٌ بقفل ذهبي نقش عليه Goldcity المفتاح من القفل سأعرف أخيراً.

المركز

المفتاح لا يدخل. أعدت القفل إنه لا يعمل. هل أخطأت المنزل؟ هل قاموا بتغيير القفل؟ سمعت وقع خطى خلفي. استدرت وقلبي يخفق إنه الصبي الصغير الذي التقيت به بالقرية، ذاك الذي يرتدي دشداشة طفطافة، اتجه لباب المنزل المجاور نظر إليّ بحيرة وقال "كيفك"؟ ذكرياتي القديمة في لبنان. هل أنت بخير؟ لم يجب ولم يبتسم. وقف على رؤوس أصابعه ليمسك بمزلاج باب منزله "انتظر". وضعت يدي في جيبي وحركت القرش الخشبي بطرف المفتاح توقف الصبي. اقتربت ببطء. "الفتاة الأجنبية. هل كانت تسكن هنا؟ هذا منزلها؟

أكد الصغير.

لم أعد أفهم شيئاً. جلست للحظة في الظل. من هنا يمكنني رؤية المركز. ما زلت لا ألمح أحداً على الشرفة. قررت الذهاب لهناك.

أحرقت الشمس أوراق النخلة في العريشة، لكن المبنى القائم على مصطبة من الإسمنت بحال جيدة. على يمين الباب، لوحة خشبية نقش عليها "diving@abunuwas" بشكل خريطة محددة بنقاط مختلفة يعلوها علمٌ صغيرٌ أحمر اللون محاط بلون أبيض. افترض أنها تدل على أماكن غوص مختلفة. اكتشفت أننا في شبه جزيرة شاطئها مخطط بعشرات الخلجان. هناك لوحة أصغر من الفلين ببعض الصور ذات الألوان الغائبة. عليها صورة أشخاص مع أقنعة وزجاجات يسبحون بين سلاحف ضخمة كالخراف ضمن ديكور من المرجان يجعل الجنائني في فيرساي شاحب

اللون.علقت عليها ورقة فيها جدول يشير لليوم والطقس بعلامة واحدة: شمس مبتسمة. علق قلم بطرف حبل، دعوة للتسجيل. اقتربت نحو الباب كدت أكتب "نحو الوفاة". خفق قلبي بشدة، الشبك مدفوع نحو الجدار. هل من أحد؟ أنا أمام باب زجاجي مرصع بلصاقات تمثل قليلاً أو كثيراً، نفس الشعارات: دلفين. قرش. أو غواص يصدر فقاعات تحت كرة أرضية، سمكة لاحمة محاطة بدائرة كتب فيها الرسالة التالية: "فلتغص الآن واعمل لاحقاً". دوائر أخرىٰ فيها نقوش: "padi, cmas, scuba".

دفعت الباب لأجد نفسي وسط جلد بشري معلق، هذا الانطباع الذي أوحته لي ملابس الغوص الطرية والفارغة والمتراخية. تحدق بي أقنعة علىٰ طاولات عرض، سوائل مختلفة في زجاجات عليها علامة Abyss naut هناك بابٌ معاكس ومغلق في نهاية الغرفة ومكتبٌ مع كرسي. فارغة. كما وجدت باباً دواراً حديدياً عليه بطاقات بريدية، رسم علىٰ إحداها سمكة مارين بيضاء منقطة بالأسود تفتح فمها لقريدس شفافٌ ليعمل كفرشاة أسنان كهربائية. علىٰ بطاقة أخرىٰ رسم للمنطقة من السماء: شبه جزيرة جبلية شديدة الجفاف تغوص في البحر، من الجانب الأيمن يعبر هذا الوادي الصغير كالعضو الجنسي وتكون شجرة النخيل كالشعرانية المغطية.

"Good morning"

قفزت. ظهر فجأة رجل بدين بالخمسين من العمر. بشرته حمراء. عيناه شديدتا الزرقة، حليق الشعر يضع قبضتيه علىٰ وركه ويرتدي تيشيرت أسود رسم عليه ما أوقفني فوراً: تمثيل لمراحل تطور الإنسان: قرد ينهض رويداً رويداً علىٰ خمس صور ليصبح إنساناً إلا أنه هناك صورة إضافية تمثل الإنسان المنتصب ثم الإنسان المعاصر يلبس أفقياً زعانف ويصدر فقاعات

ماء ليصبح بالنهاية غواصاً وهو الميدان الأخير للتطور الإنساني حسب مفهوم التيشيرت وبالطبع حسب مفهوم مخاطبي.

سألني: ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

بالإنكليزية ولكن بنبرة مشجع مانشستر يونايتد. ترىٰ هل هو ماران.؟

- أُريد معلومات حول الغوص..

انفجر الشاب ضاحكاً وقال: "حقاً؟ ألم تأت إلى هنا للتزلج"؟

هذه الابتسامة الغبية، هل هو سعيدٌ بنفسه. يصعب جداً التفكير إن كان هناك ميتة على الشاطئ نسيتها بسهولة، يا لك من قذر.

قلت: أنت مضحكٌ جداً.

تغيرت ملامح وجهه في الحال.

- آسف يا صاح. أنا دانييل.

أجابني على سؤالي. مد لي يده. ثم تابع يقول: ما مستواك بالغوص؟

- ما مارسته أبداً.

- إذاً تعميدٌ هو؟

اختلجني القلق أمام عظمة الكلمة. فتح دفتراً كبيراً وأمسك قلماً ثم تفحص تقويماً.

هذا سريعٌ بالنسبة لي. أشعر بأنني مضحك. لا أنوي غمر رأسي تحت الماء. أقصد حقاً ما أقول تحت الماء. عندما كنت صغيراً كنت أضع قناع الغوص مع الأنبوب، ولكن أن أتنفس تحت الماء مرتدياً جلداً آخر رخواً.. أشحت نظري عن زي الغوص تفوح منه رائحة النيوبرين. هذا المكان الكريه. سحقاً ما الذي أتى بكِ إلى هنا يا باز؟

حاولت كسب الوقت. أجبته بأنني لا أعرف وأنني أريد معلومات دقيقة، ولا بد أن أفهم كيف تجري الأمور بالضبط.

- نخرج في الصباح ونعود بعد الظهيرة نغوص مرتين ونستريح ما بين المرتين.

- هل أنت وحدك هنا؟ أجاب

- لحسن الحظ كلا. هناك شابان برفقتي.

- أين هم؟

تراجعت عن قولي، ترىٰ هل لأنني لمحت الشك.

- أنا قلقٌ قليلاً. أظن أنه أمرٌ عادي بالنسبة للمرة الأولى أليس كذلك؟

- كما في كل مرة أولى. الشباب في البحر الآن. هل أنت في الفندق؟

أكدت

- سيأتون بك إلى هنا غداً الساعة ٨.٣٠ إذاً ستبدأ غداً؟

فهمت من نبرة صوته أني أثرت حنقه.

- هل يتكلمون الإنكليزية؟

سؤال غبي، فأنا أعرف الجواب ولكن لن أتمكن من طرح السؤال بشكل مباشر إن كان أحدهم فرنسياً. أريد أن أطلق يدي وأبتعد عن الشبهات بأن أبدو مغفلاً وأظن أني توصلت لذلك بشكل جيد.

- من الأفضل أن يتحدثوا بالإنكليزية. أود أن يفهم الزبائن التعليمات فالغوص أمر جدي، آمل أنك تعي ذلك فالحادث هنا سريع الوقوع.

قال ذلك دون أن يفكر، ما خطف لـون وجهـي؟ حـان دوره هـو الآن ليتراجع عن أقواله. تابع: يتكلمون الإنكليزيـة والعربيـة وأحـدهما يـتكلم الفرنسية. أنت فرنسي أليس كذلك؟

وافقت.

- هذا جيد يبدو لي.. لدي مدرب فرنسي. هل أضعك معه؟

أحرق السؤال لساني، لم استطع أن أقاوم: - "ما اسمه"؟

- "ماران"

حل الغـضب في قلبـي، تماسـكت لـئلا أطـرح الأسـئلة التـي تتـسارع لشفاهي: هـل تذكرت إسبانية اسمها باز؟ هـل كانت تغـوص معكـم؟ هـل أنت الذي أطلق الإنذار حين علمـت أن هنـاك جـسداً عاريـاً أمـام منـازل الصيادين؟

قطع سلسلة أفكاري قائلاً: حسناً، ماذا إذاً نعم أم لا من أجل الغد؟

هل أطلق الخيار؟ كلا.

لابد أن أنزل البحر لأفهم: - "نعم"

- إذاً وقع هنا.

مد لي ورقة لأكتب عليهـا إننـي أتنـازل عـن أي تحقيـق في حـال وقـوع حادث.

/رمان/

سبحت وسبحت في مياه الخليج، لأغتسل من كل ذلك التعب. لم أكد أقوىٰ علىٰ جرعات الألم والغموض هذه. تذكرت المفتاح المقفل. ما هو الشيء الذي ما تمكنت أن أعطيه لها حتىٰ جاءت تبحث عنه هنا؟ ما هو الشيء الذي لا قته بدربها وعرقلها نهائياً؟ ماران؟ سبحت كروال حركت عضلاتي في البحر العربي وأنا أفكر مرتعشاً بكل ما يوجد تحت بطني العاري وبما سأرىٰ غداً في أعماق البحر، في هذا العالم الأزرق الضارب للخضرة واللزج الذي يرعبني كما قتل باز.

سبحت ساعة حتىٰ لا يعمل عقلي إلا بأفكار غير مؤذية. ارتميت علىٰ الشاطئ تاركاً الموج يلعقني. أغلقت عيني بالشمس محاولاً ألا أفكر بالجن والعين السيئة. ما آمنت قط بهذا.

اتصلت بوالدي. اقترحا أن يعطياك الهاتف لتكلمني، رفضت، خشيت أن أنهار، قالوا لي إنك كثيراً ما تلعب بجزيرتك من الجبصين وحممها البرتقالية. وأنك وضعت فيها هيكلاً عظمياً يصبح فسفورياً في الليل مصدراً النور الذي خزنه خلال النهار، وأنك كنت ترسم أزهاراً.

أتأقلم مع جنة عدن، أتناول فاكهة العشق وأرىٰ القوارب المنزلقة من بعيد. كنت في المجلس وهو غرفة الضيوف الخارجية في منزلي العربي بعد أن أخذت حماماً ولبست ملابس نظيفة وتهيأت للمعركة.

هذا ما قلته في سري حين طلب مني دانيل السمين أن أتبعه في المستودع حيث جربت رداء الغوص من النيوبرين، جلدي الثاني الذي استأجرته. ثم

سترة التثبيت بأنابيبها ومعقماتها وجيوبها المعدة لوضع الأسطوانة ومشابكها البطنية، ما أعطاني شعوراً بأن أجرب حظي في الكوماندوس البحري.

عدت للسكن الأساسي، لاحظت وجود ورقة عليها بضع كلمات تحت بابي:

السيدة كيمبرلي فلمينغ مديرة مركز أبو نواس شجرة النخيل، لها الشرف والسعادة باستقبالك على حفل كوكتيل مساءً في بار الجن.

كانت تنتظرني في البار جالسةً على كرسي عالٍ، ترتدي فستاناً أخضر يكشف عن أعلى نهديها وفخذيها السمراوين. وجه آخر للإدارة. أرغب حقاً بقدح بل باثنين لكنني لا أرغب بالكلام، لا بد أن أرغم نفسي وأحافظ على تركيزي.

لمحتني لكنها لم تقف، اكتفت بأن تبعد شفتيها عن كأس الكوكتيل وتوجه ناظريها نحوي. جلست قربها. قالت لي "مساء الخير" ومدت لي يدها بأظافر ذات طلاء أحمر ثم أشارت للشاب ذي الوجه المدور الواقف خلف البار، يرتدي كبقية الموظفين بزة بلون لازوردي.

- سندباد، محضر الكوكتيل.

- ألا نقول صبي البار؟

قالت المديرة:

- كلا، ستجر علينا شكوى الجمعيات النسائية فكلمة صبي البار مذكرة كثيراً.

- الساقية؟

- الساقية هي من تسحب المكاييل لا تناسب على ما يبدو. بالنسبة لي الأمر سيان، إذ أمضيت طفولتي في إيرلندا...

- كيمبيرلي ليس اسماً إيرلندياً.

- بالضبط، والدتي من نورفولك. يمكنك أن تقول: كيم. حسناً.

- حسناً. على كل حال نحن هنا بعيدين عن نورفولك. سندباد وبار الجن... لا يمكنك أن تقوم بنصف الأشياء في ألف ليلة وليلة..

ابتسمت.

- المملكة العربية سعيدة... ماذا تريد، ماذا ترغب في أن تشرب؟ اختصاص سندباد؟

- وما هو؟

- ما أشرب. مارتيني بالتمر. مارتيني أبيض وفودكا مع الشامبانيا وعصير ليمون أخضر من حديقتنا بالإضافة لتمر طازج تم قطفه من آلاف النخلات المتراقصة تحت ناظريك. ثم أشارت لبستان النخيل وتابعت: "تسحق الفاكهة بعناية بهاون سندباد ثم تمزج كل المكونات بمضرب لا بملعقة"

أضحكني الإيحاء.

أضافت بقليل من الحيرة: نحاول أن نستمتع ما بوسعنا.

- تنقص التسلية؟

- قالت وهي ترفع الكأس إلى شفتيها: انظر من حولك.

الفندق خاوٍ تقريباً خلا زوجين يمضيان شهر العسل أمامهما قدحٌ من الشمبانيا، وعائلة عربية، الأبوان والأبناء مع الجليسة الفلبينية.

تابعت تقول: "ماذا إذاً، مارتيني بالتمر؟

- لا، لا أريد بالتمر.

- إنك مخطئ. هذا بلد التمر: أمر السلطان بزراعة ملايين أشجار النخيل، يريد الاكتفاء الذاتي لشعبه. في الساونا، يقترحون دعكاً بعجينة التمر لابد أن تجربه.

- ربما، لدي الكثير للدعك..

ضحكت. يا لها من صحبةٍ ممتعة ولكن حس الضحك لا يفارقها.

- فلنذهب للمارتيني، هلا اقترحتِ شيئاً آخر بمكوناته؟

خاطبت سندباد بجملة قصيرة بالانكليزية. اقترح هو: " Pomegrante, sir "

ترجمت لي: - رمان. ممتاز للبروستات.

لم أعلق: أنت تتكلمين الفرنسية بشكل جيد حقا.

- خريجة مدرسة الفنادق في لوزان. الدقة السويسرية.

قالت وكأنها تسخر من نفسها، ثم استدارت نحو صانع الكوكتيل وأشارت لكأسها، قائلة: "سندباد، لو سمحت" كالمواء، إنه فريد كلياً في هذا النور برتقالي اللون حيث يراودني شعور بأني ميت.

فتح سندباد علبة خشبية صغيرة وجميلة مقسمة لأجزاء يحتوي كل منها على حبة تمر، اختار ثلاث حبات بعد أن تفحصها مليا ثم شطرها لنصفين. تشبه سكينه سيفاً أحدب، ثمرةٌ لبية تتأرجح ما بين اللون الأصفر والبني،

خليطٌ من العسل والكراميل. مدت جارتي يدها إلى دفة التقطيع وأخذت نصفاً ثم وضعته بين شفتيها.

- قال الرسول (ص) من يبدأ يومه بتناول سبع تمرات لا ينال منه لا السم ولا الحسد.

- وماذا قال عن المارتيني؟

قالت عاقدة حاجبيها:

- لا تجادل بالدين. مع أن هذه الأرض قاومته.. أضافت: شكراً سندباد. كتأكيد لاستلامها كأس المارتيني الآخر.

قطع سندباد الرمانة، ذات القشر اللامع، تلوح تحته الحبات الأرجوانية وسال عصيرٌ بلون الياقوت الأحمر. "انظر كم هذا جميل"

رفعت عيني لأرى رمانة أخرى، لكنها كونية، يسيل دمها الأحمر على كشح البحر. أمسكت كيم بكأسها ولامست يدي سهواً. ارتعشت.

قالت: الفندق خاوٍ.

- هذا يحزنك؟

هزت رأسها: كلا. لا يأتِ أحدٌ أبداً. من ذا الذي يخطر له المجيء إلى هنا؟ حقاً، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ قرأت بيانات التسجيل. أنت رجل أعمال؟

- قرأتي بياناتي؟

- أقرأ بيانات كل النزلاء.

ابتسم سندباد وهو يحرك مضربه ثم سكب خليط الكحول والفاكهة في هرم زجاجي واسع ورفيع جداً وسحبه نحوي.

- ما هو عملك؟

- التمويل الإسلامي. أضفت لأكون في مأمن: "أصدر صكوكاً، هل يعني هذا لك شيئاً؟

عبست بما يعني "كلا ولا أرغب حقاً بأن تروي لي". رفعت قدحها: "بصحة عملك، إذاً".

تضارب القدحان ثم لامس قدحها شفتيها اللبيتين وكذلك فعلت: المشروب كان مراً وحلواً بآنٍ واحد. شهي. قلت في سري للمرة الثانية لا بد أنها التقت باز.

- هل تقرئين كل بيانات النزلاء..؟

وافقت.

- ما أكثر ما لفتك؟

بدأ الرجال بالزي الأزرق من حولنا بإضاءة المشاعل ليتعرج نورها في النسمات الدافئة. بدا البار كمسرح مراسم. لم أعد أرى عينيها. أسمع طقطقة أساورها منزلقة على ذراعها، رشفت من كأسها.

- جاءنا شخص منذ عدة أشهر. فنانة. غيرت حياتنا.

فخم صوتها ويئس بآن واحد ودمي بدأ يغلي بشدة.

- فنانة؟ مصورة؟

- استدارت نحوي مندهشة: لماذا قلت إنها مصورة؟

- لا أدري، ربما جمال الغروب أوحى إلي..

- و كأن الأمر لا يعنيك.

بدت عليها الخيبة. قلت: - كلا، بالعكس تماماً. ألم تكن مصورة.

- كلا! بل لعله الأكثر بعداً عنها. كانت تكره الصور. ألحت عدة مرات ونحن على متن القارب ذاهبين للغوص بألا يتم تصويرها وكأنها تود الاختباء، لدرجة أنني قلت في سري، أؤكد لك أنني جادة بأنها مختبئة أو هاربة شيء من هذا القبيل.

- هاربة؟

كان علي بذل جهد واضح لأضبط نفسي. رشفت بنصف الكوكتيل.

- يبدو لك الأمر مضحكاً ولكنني اعترف بأنه خطر لي، لا لأنها كانت ترفض أن تتصور وكأنها لا تريد أن يتعرف عليها أحد بل لم تكن تحمل معها أي صورة. مع أن الأماكن التي نذهب إليها رائعة وتستحق أن تبقى ذكرى كما يقال".

كلمة ذكريات غصت في قلبي. ماذا لو كان العكس ما رغبت به؟ اغتسالٌ كبيرٌ في النسيان... من التصوير؟ لم أعد أفهم. ترى هل نتحدث عن نفس الشخص؟

من أي بلد؟

- كانت إسبانية.

- قلت إنها فنانة؟

- أجل رسامة.

هل أخطأت؟ مررت يدها على غرتها ثم وضعتها تحت ذقنها. مرفقها يتكئ على البار وهي تنظر إلي. ثم سألتني: "ماذا يجري"؟

- لا شيء أبداً.

- لا تبدو على ما يرام.

- هذا بسبب الكحول أو التعب.. قالت وهي تنزلق عن كرسيها:

- سأتركك.

وضعت يدي على ذراعها وثبتها على البار. فاجأها تصرفي، تشنجت عضلات ساعدها. قلت بكل هدوء:

- أرجوكِ. أنا متعب قليلاً، ستسير الأمور على ما يرام. أرجوكِ.

درست الوضع، لا بد أنها تشعر بالوحدة مثلي لأنها قررت الجلوس بالنهاية. اقترحت: "قدحاً آخر؟"

- بكل سرور.

خاض سندباد رحلة نحو زجاجة المارتيني. تصدح موسيقى عربية هادئة في الليل، غناءٌ حزينٌ يقطعه صفير الطقطيقة - صوت يشبه فحيح الأفعى مع أجراس.

- هل رحلت؟

صمتت للحظة طويلةٌ، ثم أجابت بصوتٍ يرهقه إعياءٌ شديد: لو شئنا أن نقول...

- ماذا تعنين؟

- لقد توفيت.

مثلت دور المدهوش: كيف؟

- وجدوها على الشاطئ صباحاً.. لم يلحق الأذى جسدها، كان الحادث غرقاً، مجرد غرق. لم يتم تحريك تحقيق حقيقي، لا حاجة. يبدو أن ذلك ناسب الجميع.

- لماذا؟

- لأنها امرأة وأجنبية وهنا الناس... كيف أقول؟ غير متحضرين. وهذا أفضل "للاستراحة" فليس في ذلك دعاية رائعة.

- هذا مخزٍ.

خرجت الكلمة وحدها، عيل صبري ففقدت السيطرة على لساني. لحسن الحظ لم تنطق بأي كلمة غير لائقة. بل قالت: أنت محق، أنا نفسي وددت أن أعرف.

أدارت نحوي عينيها الجميلتين الفاتحتين لأرى بريقهما ما بين لهب المصابيح المتراقص.

- غارقة.... هل كنت تغوصين معها؟

هزت برأسها.

- أجل، كانت تهوى الغوص وانكبت عليه منذ وصولها. لا بد من القول إنه المكان المثالي للغوص. لا أفهم كيف حدث ذلك. كانت تضج بالحياة.. ولكن عفواً، لا أريد إزعاجك بهذه القصة. يقال إن هذا غير لائق... لا أعرف لماذا أكلمك عنها.

- تحدثيني عنها لأنها على ما يبدو كانت تعني لك الكثير.

ابتسمت: "هلا أتيت معي"

نزلت عن كرسيها العالي وتقوست لتصحح فستانها ثم سحبت المفتاح على البار لتتدلى حمالة زجاجية بشكل بخور، اتجهت نحو المبنى الرئيسي. ألقت التحية على الموظف الذي يطهو السمك برائحة الفلفل والزعفران. اشتم رائحة الشاطئ الآخر للمحيط.

- هل كل شيء على ما يرام جمال؟

- أجل، سيدتي كل شيء على ما يرام.

- طابت ليلتك.

لم تعد الآن تلك الفتاة الكئيبة التي كانت أمامي منذ لحظة بل ربة العمل التي تسيطر على عالم من الرجال. اقتفيت خطاها آملاً بألا أضع نفسي بموقف يجر علي الخسائر. اجتزنا عدة قاعات مزركشة بأقواس وعقود نرى من خلالها نور النجوم. توقفت أمام باب عليه لافتة بحروف عربية، أمسكت المفتاح ولفته في القفل، أدخلتني في غرفةٍ مظلمة وأغلقت الباب خلفنا. أسمع أنفاسها في السواد والحرارة. لكن ذلك لم يدم سوى للحظات. انبثق النور خافتاً ملطفاً بمصابيح نحاسية مخرمة.

هناك مكتبٌ أمامي يعلوه شبكٌ أبيضُ كبيرٌ معه رسمٌ خلابٌ باللون الأزرق، خطوطه عريضة لكن متقنة: امرأة ممددة بالمقلوب، عارية وشعرها مبعثر حول رأسها وساقاها متباعدتان تتكئ على الأرض بقدميها ويداها تحت جسدها وكأنها تحاول حل حبال غير مرئية تقيدها ومن تحتها خيالٌ أسود واسعٌ.

- هي من رسمته؟

- أجل، هي.

أجبت:

- يا لها من لوحة رائعة.

هزت برأسها وقالت: ليس هذا فحسب، أمعن النظر.

اقتربت لأرى حبالاً فوق اللوحة بلون أزرق كهربائي يتبع الرسم ويغطي قسماً منه. عملٌ يتطلب الكثير من الصبر دون جدال، يكمل الرسم منبثقاً بعفوية منه.

- هذا تطريز...

- أجل، منفذ على كاليكوت، رسمٌ بالإبرة...

هناك كلمة مطرزة من الجانب الأيمن. AZUL. رأت أنني لمحت الكلمة: هذا يعني "أزرق" بالإسبانية.

اكتفيت بقول: هذا رائع. هل اشتريتِ اللوحة منها؟

- أهدتني إياها.

أصابتني الدهشة لا لأنني أعرف أن باز لم تكن كريمة بل أبعد من ذلك، فهذا دلني فجأة على التقارب الشديد بينهما. روت لي: كانت تتردد بين الفينة والأخرى على الفندق ونثرثر قليلاً. عرضت عليها غرفة لكنها كانت تؤثر بيتها الصغير هناك في القرية. بالواقع، ورشتها حيث اقتصر على ركنٍ للنوم والطهو. لم يكن بحوزة تلك الفتاة شيء..."

لاشيء؟ واضح أن كيمبيرلي تجهل حياة باز وخاصة في النهاية بعد معرض اللوفر. أنا من كنت أقول في سري: سأكون قريباً رجلاً مصوناً...

تابعت: "كنت أتردد لرؤيتها فتتوقف عن الرسم لدى وصولي ما كان يزعجني. من أجل عملها ومن أجلي. قلت لها ذات يوم إنني أحبذ جداً أن

تتركني أراها ترسم وإنني لن آتي بأي ضجة. لم تقل شيئاً وأغلقت الباب. كان النور يملأ الغرفة عبر قطع الكاليكوت البيضاء التي مدتها أمام النافذة لتعميها، كما أن هذا النسيج يخفف الحرارة. شرعت بالرسم بحركاتٍ كبيرةٍ وبطيئة وجميلة. كان اللون الأزرق يحتل بياض الشبكة بشكلٍ طبيعي. لا شيء سوى اللون الأزرق. كما كنت أحب كيف كانت تقولها بالإسبانية: azul.

شرعت تلفظها بالإسبانية بطريقةٍ خرقاء ولكن بحماسةٍ انبثقت منها الكلمة كشيء جميل وغريب: assoul.

عيناها تلمعان ووصفت لي الغرفة: مليئة بأواني التلوين وريش وقناني مليئة بمواد شفافة مذيبة أو غير مذيبة، لم أعد أعلم، مواد تنشر بالورشة رائحة واخزة ومهيمنة. "كنت أحب رؤيتها جاثية أمام شبكتها، تعج بالطاقة والسكينة. ترددت عدة مرات. لم تكن تقل شيئاً. كانت فتاةً جميلةً جداً ومميزة. أحياناً، كانت تخلع ملابسها....

توقفت كيم حين شعرت أنها تحدثت كثيراً. باز ترسم عارية أمام كيمبرلي. السمراء والصهباء. ترى هل أخطأت بالسيناريو؟ وددت أن أتأكد مما فهمت: كانت ترسم عارية؟

- أحياناً... أنا حمقاء لأنني رويت لك كل هذا..

توقفت قليلاً ثم أضافت وعيناها تسبحان في الفراغ: كنت أحبها جداً، دولور...

امتقع وجهي وقلت: دولور؟

- ماذا دهاك أنت شاحبٌ تماماً؟

- لاشيء، لاشيء... هذا الاسم يذكرني بشخصٍ ما..

حدقت بي وكأنها بدأت تفهم. لا يمكنها أن تعرف: أنا رجل أعمال. بدأ الحر يشتد في الغرفة. تقدمت نحوي: "يقال حقاً إن هذا لا يجوز..." أكاد أشتم رائحة أنفاسها المعطرة بالتمر والمارتيني. تشنجت وتراجعت للخلف.

قالت فجأة وهي تتجنبني لتمسك بقبضة الباب: "هيا بنا. سأغوص غداً صباحاً وعليَّ أن استيقظ باكراً"

نبرتها حاسمة. فتحت الباب وتركتني أمرُّ وأغلقت خلفي بالمفتاح. قلت: "وأنا أيضاً سأغوص". - إذاً، سنلتقي غداً. نم جيداً. سعدت بمعرفتك. ومدت لي يدها بشكلٍ رسميٍ قبل أن تختفي خلف القنطرة، حقاً مديرة.

دولور؟ اتجهت نحو غرفتي فاقد الحيلة. النجوم تتلألأ وماعزٌ تثغو والكحول يسبح في دمي ويتأرجح كل شيء. ليست واحدة أخرى لقد رأيت الجثة، ومع ذلك باز أخرى ولدت فجأة وانكبت على الرسم والتطريز بحركاتٍ إنسانية بامتياز بعيداً عن التكنولوجيا وصناعة الصور التي كانت علامة صناعتها بالتحديد والمركبة التي جعلتها تتصدر كواكب السوق. أعدت التفكير بما علمت للتو: رفضها للصور ولأخذ الصور أو حتى لتصور. كيف قالت كيم سابقاً؟ فتاةٌ "هاربة"؟ "فارة"؟ وهذا الاسم "دولور" الذي اتخذته. تغير الاسم هو ما قتلني. إننا نغير الاسم حين نرغب بنسيان ما كنا عليه. وأي اسم مثقلٍ بالمعنى! دولور أي "الأم" هو مشتقٌ كسائر الأسماء الإسبانية - بيلار، روميدوس - من مريم العذراء،

"سيدة الآلام السبعة" والتي نذكرها رافعين أعيننا إلى السماء وينغرز في قلوبنا سبعة سيوف راسمة على الصدر الجاف محروم الابن هالةً مرعبة أخرى. لطالما تحدثت باز عن العذراء وتساءلت عن تلك "البكارة" لامرأةٍ حبلى وكانت تقول: "تخيل أن الديانة المسيحية لم تنطلق سوى من عذر تذرعت به امرأة لزوجٍ مخدوع؟" ما اقترفت شيئاً يوسف إنه الرب! أنا حاملٌ من الرب هكذا قال لي الملاك، أقسم لك!. فالكذبات الأكبر هي الأكثر فعالية.

وها هي الآن تسمي نفسها دولور في حين أنها هجرت ابنها وفي حين أن لا الرب ولا البشر أخذوه منها.

استشطت غضباً.

قضيت تلك الليلة وأنا أتقلب بين الشراشف. سربلني التكيف بثوبٍ من الجليد. نهضت وأوقفته واستيقظت سابحاً. راودني منامٌ أن باز ترسم عارية وجاثية ومن خلف ظهرها في فوضى من أواني التلوين الأزرق الكهربائي والريش المبعثرة على غطاءٍ من البلاستيك الذي يغطي الأرض وملطخ ببقع بنفس اللون الأزرق، بقع تتحرك وتتمايل كثعابين على البلاستيك ثم تجتمع لتشكل سواقي من دمٍ أزرق. استدارت باز ووجهها كان وجه كيم وهي تنفجر ضاحكةً وتقول: "اسمي دولور!". ثم يحل وجه العذراء محل وجهها ليسقط منها طفلٌ على الأرض وتنقسم رمانة لقسمين ويسيل عصيرها واللون الأحمر ينفجر.

ماران

استيقظت مذعوراً تلتصق الشراشف بي كالأكفان. أخرجت ساقاي من الشبك النسيجي، ثم انتهى بي المطاف بأن اهترأت بالنوم. كم من الوقت؟ ثقب عقلي اتصال الاستيقاظ. وهل سيتوجب علي اختراق أحشاء البحر؟ نهضت وهرعت للحمام لأفرغ أحشائي أيضاً.

"أنت متعب!"

تبدو كيم سعيدة لا أثر لضيق الأمس. أجبت: "إنه القلق فهذه المرة الأولى"

- إنه تعميد إذاً؟ أحب هذا!

تنتظرني كيم وراء الخليج وشعرها الأحمر مربوط ذيل حصان وترتدي بنطالاً قصيراً من القطن الأحمر وكنزة بلون أزرق بحري وعليها اسم الفندق. بيدها قناع وحمالة مفاتيح صغيرة بشكل مبخرة. جلست بقربها.

- ماذا يوجد فيها؟

- قالت: سمك.

رأت شكلي وانفجرت ضاحكة: أنا أمزح. هذا مسك. أحب العطر ثم إن مفعوله رائع لدوار البحر. التفت نحو السائق وقالت بالانكليزية: "هلا ذهبنا يا سليمان. – حسناً سيدتي"

ابتسم لها الرجل الذي يرتدي قميصاً ثم ضغط على الدواسة. لا يمكنني إلا أن أعجب من الطريقة التي تحكم فيها مجموعة الرجال. ملكة

شابة مع خدمها. خدم يحبونها. انطلقت المركبة دون ضجيج على الدرب الرملي. يتلألأ البحر في الأسفل وكأن جناً وضع، تلك الليلة، محل كل حبة رمل ياقوتة، بتناسق كلي مع الجامع الخلاب كعلبة مجوهرات. وصلنا إلى القرية. انحيت نحوها: أين كانت تسكن الإسبانية؟

أجابت من دون كلام، أشارت بإصبعها للمنزل ذي الأقواس. إنه إذاً بالضبط المنزل الذي وجدته مقفلاً، لعل القفل تغير.

بات مركز الغوص على مرمى النظر. يعمل رجالٌ بنشاط على الرصيف البحري حيث يتهادى قاربٌ مدبب الأطراف. يحملون زجاجات الهواء وعلب زرقاء. لا بد أن ماران من بينهم. توقفت السيارة. نزلت كيم. كتبت أربعة أحرف باللون الأبيض على بنطالها الأحمر القصير: DIVE. أخذت نفساً عميقاً.

قالت كيم بنبرة انتصار وهي تدخل لمكتبها: "ما الأخبار داني؟". ثم غابت بين يدي الرجل الضخم الذي تعرفت عليه أمس. ألقى التحية بعد أن حررها: ألست متوتراً؟"

قلت: ستجري الأمور على ما يرام.

- ماران في القارب يمكنك الانضمام إليه وتحقق من معداتك. كيم الأوكسجين جاهز"

ابتسمت.

لففت حول المبنى، بدا النور مبهراً. وصلت الجسر، ما بين الألواح الخشبية والبحر الأزرق السماوي. هناك في المدى تفرش نجمات السماء بتلاتها اللزجة. وصلت للقارب المجهز بمحركين ضخمين باستطاعة ٢٢٥

حصاناً – هذا ما كتب بالأعلى كالعلامة "EVINRUDE" اسم اليعسوب في برنامج أطفال "برنارد وبيانكا" بلون أبيض بشكلٍ طولاني مغطى بقماش ينشر ظلاً ضرورياً يُفَيّء تحته صفين من المقاعد، فيما بينها حوالي خمس عشرة أسطوانة أوكسجين مدببة بلون فضي مرتبة بشكل أفقي، ينحني فوقها رجلان من المنطقة يرتديان قمصاناً وكوفية على الرأس، وبيدهما جهاز أصفر اللون يشبه مقياس ضغط. ألصقوه على طرف الزجاجات وأفرغوا الهواء ليصدر صوتاً كطنجرة الضغط حيث ينفجر البخار. ليس ماران هنا. اقتربت فاستدارا. سألت: "مرحبا أبحث عن ماران"

أشار أحدهما نحوي، خلفي. استدرت وشحب لوني. بطلٌ جديدٌ من كوابيسي. شعره أشعث وقصير جداً ولحيته لم يحلقها منذ أسبوع. إنه في ريعان الشباب لكنه يبدو رياضياً من خلال بنطاله القصير والتيشيرت الأبيض حيث كتبت الماركة MARES بالخط العريض بالإضافة لهذه العبارة البسيطة: JUST ADD WATER، بالطبع لَوّحته الشمس فهو يقضي حياته في الماء. حول رقبته كوفية بمربعات سوداء وبيضاء بهتت بالشمس. مد لي يده وابتسم كاشفاً عن أسنان بيضاء وخاصة تلك العينان الزرقاوتان بلونٍ أزرق غامق، لون لا وجود له في أي مكان لونٌ أزرق بنفسجي. قال: "لا بد أنك سيزار؟"

أكدت والتوتر يبلغ قمته في انبهاري بمقابلة العدو أخيراً.

قال بكل بساطة: "أنا ماران". ربت على كتفي وأضاف: "ستجري الأمور على ما يرام". صوته فتيٌ لكنه رزين وجذاب. أدركت للتو لماذا نُسيت. لماذا نُسينا.

ها نحن على متن القارب، ستة غواصين منهم أنا والزوجان اللذان يمضيان شهر العسل في الفندق ورجلان مسنّان أحدهما نحيل والآخر بدين. تحققت كيم من معداتها. أخرجت من صندوق أزرق سترة تشبه السترة التي جربتها أمس ثم ثبتتها بقوة بزجاجتها كما أخرجت أخطبوطاً من البلاستيك والمعدن، تنتهي مجساته الأربعة بميناء مع عقارب ورؤوس من السيلكون، ثبتته على الأسطوانة ثم أنزلت المجسات في السترة. عملٌ دقيقٌ وفعّال. كنت أنظر إليها بإعجاب. جلست بقربي. أظافر أقدامها الجميلة مطلية بلون أحمر مثل أصابع يديها التي تعزف على فخذيها العاريين. الإثارة محسوسة على متن القارب والأدرنالين يملأ العقول.

قال ماران: "هل تفقد الجميع المعدات؟" ثم قام بتقديم المعلم الآخر إبراهيم الذي يشبه مقاتلاً باكستانياً وعند الدفة "القبطان محمود" الذي يشبه ياسر عرفات بكوفيته الحمراء والبيضاء. لوّح لنا بيده ثم حطها على قلبه، دوّر المفتاح في لوحة القيادة فزأر الوحشان ذوا المروحية. ينتظر القبطان حل الحبال التي تثبت القارب بالجسر ثم سحب مقبض القيادة نحوه. انطلق القارب في فورة الزبد. ابتعدت القرية، يصغر منزل باز والأسرار الموزونة وكانت المئذنة آخر ما غاب. لم يبقَ سوى جو معدني والجبل البني والمياه الزرقاء.

ضاعت كيم في تأمل الصخور. جدار حقيقي بحوالي مئات الأمتار بالارتفاع يتكسر في الماء بقطع ضخمة مجهزة بثلوم وكهوف ومغارات. خطرت لي مغارة كاليبسو. نهضت كيم واتجهت لآخر القارب حيث يرسم ماران بقلم تخطيط على لوح "فيلدا" على ركبتيه. انحنت لتهمس في أذنه. ارتسمت في رأسي شاشة من الشخصيات الثلاث، باز وماران وكيم

وشبكة من الأسهم: من يحب من؟ من أَحبَّ من؟ من خـان مـن؟ نهـضت المديرة وأمسكت بسلم معدني يؤدي لجسرٍ عالٍ.

دخل القارب في خليج. تزداد الجروف الصخرية انحداراً بعد أن لونتها الشمس بلون رمادي. النور مبهـر يعكـسه فـولاذ زجاجـات الأوكـسجين المنتصبة وسط القارب. انحيـت عـلى القـارب فـراودني شـعور بـأنني أرى الأعماق. تتحرك أشـكال في الموجـات ولاح المرجـان ثـم انبثقـت الألـوان وأصبح الماء أخضر اللون.

أوقف الربان المحركات وألقى المرساة. ساد الصمت ثـم أعلـن مـاران عن اجتماع تحت أشعة الشمس. تسلق السلم وتبعته.

وجدت كيم على السطح جالسة ويداها حـول أقـدامها المثنيـة. خلفهـا تخفق الأعلام في الرياح: بيت الغواصين الأحمـر مـع ميلانـه أبـيض اللـون وآخر أسود مع جمجمة تعلو رفشاً مثلثاً يتصالب مع عصا معقوفـة. جلـس ماران بزيه وأحاط به الغواصون. قال: "نقطة أشباح البحر" وهـو يعـرض اللوح الذي كان يكتب عليه منذ قليل، نجد رسماً تخطيطياً لما تحت القارب: الرصيف الصخري ومنصات مختلفة ليأتي فجأة انحدارٌ نحو الأعماق. تـابع يقول: "نقطة أشباح البحر، سميت هكذا لما ترون فيها". أخرج من جيـب بنطاله القصير شيئاً صغيراً. لعبة طفـل. سـمكة صـغيرة ومـسطحة، مثلثـة الشكل ينتهي أحد طرفيها بذيل والطرف الآخر بقرنين. قال: "ثلم أشـباح البحر هنا، هو من أجمل المناظر التي يمكـن أن نراهـا". وبـدأ يحـرك لعبتـه حركات بطيئة كطفلٍ يستمتع بطائرته الصغيرة، ضـحك الجميـع. تحركـت مجدداً أقدام كيم ذاتَ طلاء الأظافر الأحمـر. تعـالى التـشويق. تـابع مـاران باللغة الانكليزية: "هنا محطة تنظيف. لعلكم تعرفـون المبـدأ: تـأتي أشـباح

البحر إلى هنا لتنتزع الطفيليات التي جمعتها خلال هجرتها الطويلة حيث تتواجد هنا أنواع من السمك تقتات على هذه الطفيليات. نموذج رائع لتعايش الحيوانات لنا أن نتعلم منه. لمراقبة "سيارة النظافة" في الأعماق (ضحك الجميع مجدداً) علينا القيام بشيء واحد فقط وهو أن ننزل خمسة عشر متراً بهدوء ونتمسك بالرصيف الصخري وننتظر مرورها. نشاهد دون أن نؤتي بأي حركة ولا نحرك زعانفنا فقط للتنفس، ونراقب جسدها. كما يمكننا أن نرى، موائد المرجان رائعة الجمال وكذلك الأسماك الملاك وبعض أفاعي البحر بالطبع ونمعن النظر في اللون الأزرق لنرى ما هو أكبر. ستغوصون مع إبراهيم وأنا سأبدأ مع شخصٍ ما". استدار نحوي وابتسم وكذلك كيم ابتسمت لي. قال: "هل هناك أي سؤال؟ كلا؟ إذاً فلننزل ونرتدِ ثياب الغوص". ذكرني بقائد مفرزة المغاوير الفتى أو المرشد الروحي مع طائفته. يحبون أن يكونوا تحت مراقبته وحمايته.

أنزلت كيم بنطالها القصير على فخذيها وخلعت قميصها ووضعته في الرف الذي تناولت منه رداءها وجلست. شقت أرجلها طريقها في غمد الرداء المطاطي. غطى الكاوشوك الأسود ربلتيها وفخذيها ووركها وكليتيها. ثم مدت يدها في الجلد الاصطناعي فوصل حتى ثدييها. "هلا ساعدتني؟" واستدارت نحوي ويحيط بظهرها خيطان ثوب السباحة. سحبتُ السّحاب من كليتها حتى عنقها. ملأ ضوع المسك منخري. من حولنا، البحر ساكن. كأن القارب يحط فوقها كورقة. من يسبح في الأسفل؟ أصبت بدوار وتعالت خفقات قلبي. عقدت كيم على معصمها ساعة يد سوداء. بصقت في قناعها ومسحت الزجاج بسبابتها. انحنت على الماء وغسلته ثم وضعته جانباً وجلست لترتدي زعانفها. رفع رجلٌ من

الطاقم السترة الضخمة التي عُلقت فيها زجاجتها. ارتطم المعدن بحاجز القارب. لبستها كيم كحقيبة ظهر ونهضت. قالت لي بابتسامة براقة: "لا تقلق، ستحب ذلك". كان لون عينيها أكثر اخضرارا وأكثر حزماً من أي وقت مضى". التحقت بالغواصين المجتمعين وقال العملاق إبراهيم وقناعه على عينيه. يوجد لوح في الخلف، تقدم ورفع ساقه ذات الزعنفة في الفراغ وترك نفسه ليسقط ويختفي في الزبد. رمت كيم والبقية أنفسهم أيضاً ليثقبوا وجه الماء بصخبٍ قويٍ ثم ارتفعوا على السطح كسدادات من فلين. يشكلون حلقة ويضعون الآن أنبوب الأوكسجين في أفواههم. يبدون كحشراتٍ ضخمةٍ بهذه الأقنعة. أشار لهم إبراهيم بحركة باليد، حرف "O" بإبهامه وسبابته، فردوا عليه بنفس الحركة ثم التقطوا أنبوباً من ستراتهم ورفعوه فوق رؤوسهم وغابوا في عرض البحر. بضع فقاعات اخترقت وجه الماء وهذا كل شيء.

"حان دورنا نحن الاثنين"

قفزت، إنه ماران أمامي يستنشق فرحة الحياة والسيطرة على النفس. حقاً شاب. خمسة وعشرون عاماً لا أكثر.

"هيا إلى السطح".

يمتد من حولنا بساط البحر دون نهاية دافئاً بالشمس. تابع قائلاً بنبرةٍ رزينة: "اليوم يومٌ عظيمٌ سيشهد مجيئك للعالم للمرة الثانية"

كان يتكلم بجديةٍ لدرجة أنني أدركت أنه لا يجوز أن أضحك. تابع: "أعرف أن المقارنة تبدو لك غير متكافئة ولكن سترى ذلك هناك في

الأسفل". مرت عدة لحظات. لم أعد أرغب بالضحك بعد أن سمعت كلمة "هناك بالأسفل"

"إنه التنفس الثاني الأهم في حياتك. كانت المرة الأولى يوم مولدك حين انطلقت بقسوة من الحياة المائية للهواء. كان هناك نداء مباغت للهواء في رئتيك اللتين كانتا مغلقتين وملتصقتين وتمددتا تحت وطأة التنفس، ما آلمك فصرخت. كل الرضع يعيشون هذا وحين لا يعيشونه يموتون. تأخذ عيناه لون الشرايين البنفسجي تحت الشمس. هنا، ستقوم بالعكس: ستنتقل من الحياة بالهواء إلى الحياة المائية، ستضغط رئتيك بالهواء، وكلما نزلت تقلصت سماكتها حتى تصبح دقيقة كورقة. ستضغط كل الأعضاء بالهواء وستقوم بشيء غير طبيعي بالمطلق: التنفس تحت الماء. سيمر الأوكسجين رغم الضغط ورغم دقة رئتيك المسحوقة به ليروي جسدك. ستجد ذلك غريباً مؤلماً لكن جميل. لن تصرخ لأنك ستحبه". توقف للحظة قصيرة وتابع: "ستحبه في حال فقط نفذت ما سأقول الآن"

كنت بقمة التركيز والانتباه، يميل جزء مني لما يكفي من الآراء ليعجب بالطريقة التي يجعلني فيها تحت سيطرته كلياً.

"الآن، الأدوات. أسطوانة الأوكسجين. لديك اثنا عشر لتراً من الهواء بضغط مائتي بار. هذا هو التأمين على حياتك. كلما تنفست بسرعة، كلما استهلكت من الأوكسجين وكلما أفرغت زجاجتك. وبالتالي كلما توترت وخبطت كالأبله وآتيت بحركات وأفرغت الأوكسجين أسرع. من هنا تأتي أهمية أن تبقى هادئاً مهما رأيت تحت الماء. حتى لو أرعبك"

ابتلعت ريقي.

"سأكون بالقرب منك تماماً وسآتي بإشارات لأساعدك على التعرف على الأشكال التي ستكتشفها تحت الماء قبل أن تتمكن حقاً من التحقق منها. اليوم مجال الرؤية لدينا عشرة أمتار لا أكثر. ولكن هذا جيد جداً. هذا بالنسبة لثلم أشباح البحر: فتح يديه وكأنه يمسك بكتاب وصالب بينهما حتى التقى الإبهامان ثم بدأ بتحريكهما كجناحين". وهذا..: أغلق قبضة يده ووضعها على رأسه. "هذا للإشارة لسمك القرش"

- هل يمكننا رؤيتهم؟

هز برأسه: "أسماك قرش الرصيف البحري ذات الرؤوس السوداء أو أسماك قرش رمادية ولو حالفنا الحظ لرأينا مخلوقات بحرية وخاصة القرش ذي المطرقة.

أغمضت عيني وكنا في صلب الموضوع.

- "لا تقلق ليست بخطيرة أبداً، فأسماك القرش لا تفترس الإنسان بل العكس تماماً ما يحدث"

للحظة، خلت أنني سمعت باز تتكلم. ذات الجمل.

- ستختبر ذلك بنفسك إذا ما اتجهت جنوب البلاد وزرت الأسواق ستجد أكواماً من القرش ذي المطرقة مصطفة أو ربما فقط الزعانف. أحياناً لا تعود لنفس القرش حيث يقصون الزعنفة والظهرية والبطنية للقرش الحي ويدعونه بسلام. طبعاً لن يتمكن من الحراك مجدداً وبالتالي لن يتغذى فيقضي فاغر الفم على الرمال. ما يعطيني رغبة بالقتل.

ارتسمت القسوة في أحداقه ثم عاد إلي.

- أقول لك بصراحة لا تقلق. قد تقترب أسماك القرش الأكثر فضولاً وتدور حولك ولكنها لن تهاجمك.. حتى ولو عضتك فهذا من باب الصدفة البحتة لأن اللحم البشري لا يروق لأسماك القرش ولهذا السبب لا تأكل الإنسان.

- إنها تتذوقه فحسب أعرف. ولكن هذا يكفي لتقطع ساقه أو ذراعه...

- أجل ولكن أؤكد لك أن هذا لن يحدث. أكرر: الإنسان هو مفترس القرش وهو من يهدد هذا المخلوق العجيب بالانقراض من عالم الحيوان والقرش حيوان لا يحتاج حتى للتطور.

- ماذا يعني؟

- ولد القرش كاملاً فهو ذاكرة الكوكب...

توقف يبدو أنه فكر للحظة ثم قال: - هل تعلم أنه يمكننا تبنّيه؟

عدّلت وضعيتي وقد نال الضيق مني: - تبنّي سمكة قرش؟

حدق بي بإمعان وقال: سأروي لك فيما بعد. دعنا نجهز أنفسنا الآن".

تناول خرطوماً من البلاستيك وقال: "المهم يا سيزار هو هذا. يسمى "منظم الضغط" وهو أول أنبوب يعلق على سترتك ووحدة التنفس التي تسمح لك بنفخه قبل القفز من القارب فيما لو توقفت سيكون بمثابة عوامة. أما الآخر مع الإطار فهو مقياس العمق وضغط الهواء، يدل على كمية الهواء المتبقي في أسطوانتك. تجد ما بين الاثنين الآخرين صماماً. الأسود تضعه في فمك والآخر الأصفر هو الخرطوم وهو الصمام الاحتياطي وهو الذي يمد شريكك بالأوكسجين في حال نقصانه.

- بما أن لدينا مقياس للأوكسجين يمكننا الصعود قبل نقصانه أليس كذلك؟

- نصعد حين تشير الإبرة لـ ٥٠ بار ولكن تحت الماء كل شيء ممكن. قد يحدث تسريب بالهواء، أو... "توقف" هذا لن يحدث.

- إنها المرة الثانية التي تكرر فيها "هذا لن يحدث" لعلك بحاجة لأن تقتنع بالأمر؟

بدا أكثر جدية: "كلا ولكن أُفضل أن أحذرك فتحت الماء لا يمكننا التواصل إلا بالحركات، علينا أن نقول الكثير حتى نختصر المحادثات. الخرطوم لونه أصفر حتى نتمكن من تميزه تحت الماء، إنه يساعد في حالة الرعب. عليك أن تراقب دائماً شريكك يقول الأمريكان buddy، أنا سأكون شريكك في هذا التعميد. لا تقلق سأساعدك لتجهز نفسك. هيا نذهب"

- ماذا عن الآخرين؟

- الآخرين سيبقون تحت الماء لوقتٍ أطول، ساعة. إذاً الوقت اللازم لنذهب نحن ثم نعود معاً جميعاً.

- ساعة مع اثني عشر ليتراً؟

رش وجهه بدوش معلق آخر السفينة ومرر يده على عنقه وكأنه يبحث عن شيءٍ ما. لمحت ندبة طويلة أعلى كليته اليمنى. رياضي: انحنيت شعرت أنني بدين مع أن وزني ثمانية وستين كيلو، شعورٌ يدعمه النيوبرين[1] الذي

1 - اسم يطلق على صنف من المطاط الاصطناعي الناتج عن عملية بلمرة لمركب كلوروبرين.

يأسر جسدي. أشار إلي ماران بالانضمام إليه فسرت كالبطة إلى آخر القارب. بطة مثقلة بحزام الرصاص الذي لا بد منه لمقاومة دافعة أرخميدس. تشكل البخار على حواجز قناعي وثقلٌ هائل على كتفي وهو ثقل السترة وأسطوانة الهواء. انتعل ماران الزعانف بحركة رشيقة وأمسك بسترته كأنها ريشة ثم ارتداها دون أن يفلت قناعه من يده. قال: "ضع منظم الضغط في فمك". تنفست فسمعت أنفاسي كما لو أنني رجل فضاء. كان قوياً ومنتظماً وسريعاً بعض الشيء. قال لي: "هدئ من روعك". ثم بإبهامه وسبابته رسم حرف "O" كما فعل الآخرون للتو وهذه الإشارة تعني أن كل شيء على ما يرام. يشبه حركة المسيح في رسم الموزاييك على جبل أتوس وهذا ليس بعجيب فهذه عمادتي والعمادة عند الأرثوذكس لا تتم بثلاث قطرات فقط على الجبين وإنما بالتغطيس الكامل أي كامل الجسد. الماء هادئ بشكلٍ مريب، رأيت مجدداً خيالات تنزلق تحت السطح المتعرج.

اقترب ماران مني وأمسك بأنبوب على سترتي وضغط على زر، راودني ذات الانطباع حين يقيس الطبيب ضغطي، بدأ الهواء يضغطني.

"نفخت سترتك حتى تتمكن من الصعود مباشرة ما إن نرتمي في الماء. من المهم جداً أن نطفو. ثم ما إن تفرغ هذا الهواء حتى تبدأ بالنزول." توقف وحدق بي وقال: "أعطني قناعك"

خلعته فأخذه ومرره تحت الدوش وأعاده لي: "لم يعد هناك بخار ضعه"

كم هناك من تجهيزات. ثوبٌ من السيلكون تعلق على وجهي كمجس. أمسكني ماران من يدي لنتقدم نحو الفراغ. صار الماء مرآة مبهرة تحت

أنامل الشمس لم يعد أزرق أو أخضر أو بنفسجياً بل معدنياً. "مد ساقك واترك نفسك" أمسك بيدي. مددت ساقي مثله. أسمع أنفاسي قوية جداً. مغنطنا الفراغ وهوينا.

أنثقب وجه الماء. يحيط بي الفَوَران ويتخلل الماء البارد عبر بدلة الغوص، نزلت ثم توقف النزول وصعدت حتى السطح دون جهد وطفوت، لم تعد الأسطوانة تزن شيئاً. نزع ماران منظم الضغط من فمه وقال: "هل أنت على ما يرام؟" أشرت له بحركة المسيح. تابع: "حسناً إذاً ضع المنظم فوق رأسك واضغط الزر الأصفر ليخرج الهواء من سترتك. ثم ازفر ليخرج الهواء من رئتيك وهكذا ستنزل وحدك. حين نصبح تحت الماء، إن شعرت بألم بأذنيك فسد أنفك وانفخ بهدوء وهكذا تعيد التوازن ما بين ضغط الماء وضغط أذنيك. فلنذهب". بلل قناعه وثبته على وجهه وكذلك فعلت. أفعل ما يقول لي وأقوم بما يفعل. إنه أمامي كالمرآة. كبس الزر الأصفر فكبست بدوري الزر الأصفر. فرغت رئتي ودخلت في السائل مغمضاً عيني.

ردة فعل بلهاء.

تحت الماء

ردة فعل بلهاء.

ولكنها ممتازة من الناحية المسرحية.

عندما فتحت عيني مجدداً اكتشفت عالماً سأصفه جاهداً ألا أكون سخيفاً. جميعنا رأى الحياة تحت الماء في الكتب والأفلام بينما هنا تكون أنت جزءاً من هذا الكتاب أو الفيلم. خلال لحظات، عبرت من سطح البحر المقفر وعذوبة وحدة لونه إلى عالم يعج بالحياة والحركة والمفاجآت، إلى جغرافية سفسطائية تبدو نتاج أفكار معماري تحت تأثير جرعة جديدة من المخدرات دفعته ليظن أن كل شيء ممكن. ويمكن صنعه..

ترتفع تحت أقدامي مدينة حقيقية من الصخور والمرجان مزروعة بأبراج تتحدى قانون الجاذبية حاملة شرفات ضخمة تبدو معلقة ومشغولة كالدانتيل الأزرق والأخضر والأصفر. مراوح هائلة بلون أحمر فاقع تتموج مضيئة في التيار الغير مرئي. شمعداناتٌ صلبةٌ ومتينةٌ بلونٍ بنفسجي فاتح تتطاول غصونها لتتفتح بتشعباتٍ لا نهاية لها بأطرافها ورديات خلابة.

كنت أسمع أنفاسي. شيءٌ مقلقٌ وغير طبيعي ومزعج ومتقطع. كلما أعرته اهتماماً ازداد تقطعه.

حركت ساقاي كمن يرغب بالتعلق بقضبان سلمٍ غير موجود. ضغط ماران على نبض يدي ورسم حرف v بإبهامه والوسطى وأشار بالإصبعين لقناعه لأرى عينيه غامقة اللون ولطيفة خلف الحاجز الزجاجي. حاولت أن أهدئ من روعي وأكف عن التخبط.

ما زلت أسمع أنفاسي بانتظامٍ أكثر. نزلنا بشكلٍ تدريجي على طول الرصيف. قببٌ ضخمة وردية اللون تشبه الحلمات مخططة بدوائر معقدة تبدو كرؤوس عمالقة يعلوها رأسٌ آخر تتملكه الجرأة ليبني كاتدرائية بأسهم حادة وشرفات متداخلة مزينة برسوم بشكل السباتي. معابد قوطية في الأعماق حيث ثنائيات الصدفة بشفاه كالأمواج بلون أزرق ضارب للبنفسجي تبدو كالمحار. كما أنه اسمها. لأي ديانة؟ تجتمع الأسماك الملائكة، تخرج المواربيه[1] النسكية من مغارتها وتمد خطمها المريع لتقبل إلهاً غير مرئي.تبدو أسماك ميرو الوحيدة ذات الشفاه والمخططة بالذهب جاهزة لعقد مجمع انتخابات. فيالق من أسماك المهرج تتذوق عذوبة زهرة الشقار المحببة التي تقدم لها حضناً بديعاً مفروشاً بمجساتٍ دقيقة كأنامل العذراء.

أسمع أنفاسي. إنها أكثر انتظاماً. لابد السبب أنني نسيت، لأنني نسيت نفسي. الضغط على عضلاتي وعلى سائر جسدي ممتعٌ حقاً، شعرت أن قوةً تجمعني وتضع نهايةً لألمي ولبعثرتي.

فتحت عيني. يعج المكان من كل حدبٍ وصوب، تنفجر الأشكال والألوان. ثم يبدو أن المعماري مخدر، جن الإله: مخلوقات بأشكال شاذة وألوان جنونية. أحياناً يحمل حيوانٌ واحدٌ كل الألوان، شفاهٌ زرقاءٌ وعينٌ برتقاليةٌ ووجناتٌ خضراء وبطنٌ أسود منقطٌ بنقط بيضاء كبيرة. تشبه بعض الأسماك الناي طويلة وشفافة وواهنة وأخرى تشبه قُرب رشيقة مكسوة

---

1 - الموراييه الاسم العلمي :هي فصيلة من الأسماك تتبع رتبة الأنقليسيات من طائفة الأسماك العظمية.

بالشوك. البعض يذهبون لحفلٍ متبرجين ظريفين، شفاه منتفخة ملونة بالوردي وأهداب ناعسة مخضبة باللون البنفسجي. يذهب آخرون في رحلة صيد كتلك الضواري الثلاثة بالزعانف، مخططين باللون البني والأبيض وتبدو حراشفها الممدودة كالريش التي تزين شعر كبيرِ قبيلة الهنود. نزلنا أكثر حتى لامست زعانفنا الرمل. جثا ماران وددت أن أفعل مثله لكنني لم أستطع، ارتفعت فأمسك بي وأشار لي، أعتقد أنني فهمت بأن أفرغ رئتي فنفذت. نزلت مجدداً وتمكنت من الجثو. شعرت بصرير الرمل تحت ركبتي المحزمة بالنيوبرين. انحنيت أمام هذا المشهد. كنا في الصف الأمامي. مر بقربنا بهدوء شيطان بحر رماديٌ مرصعٌ ببازلاء بنفسجية ذو ذيلٍ طويلٍ ينتهي بسهم وتتماوج أجنحتها. نزع ماران الأنبوب من فمه ورفع رأسه وزفر بلطف فتصاعدت فقاعات الهواء نحو السماء. تبدو الأمواج من الأسفل كالغيوم المتحركة تتخللها أشعة الشمس البهية كسماء نورمندية تبشر بالغيث.

إنني مبهور ومأسور ومهزوم.

أسمع أنفاسي مستقرة تماماً.

أشار لي ماران بإبهامه يجب الصعود. لغة صامتة وسلسة ومتناغمة. أثق به ووضعت حياتي بين يديه. حركة خوف، أفلتُ منه وأشق السطح فتنفجر رئتي كما قال. ولكن لماذا عساي أفلت منه؟ إنه يمسك بذراعي وأنا هادئ. في الأعلى تجتمع أشكالٌ بشريةٌ أذرعهم متصالبة على صدورهم كما لو أن الجاذبية معدومة. جالسين متربعين في الماء يصعدون وينزلون دون أن يدركوا على طول خط غير مرئي.

أراني أصابعه الثلاثة ممدودة ثم أشار إلى حاسوب الغوص المثبت على معصمه. ثلاث دقائق؟ انضممنا للمجموعة. ابتعد الغواصون الآخرون، زاهدون غريبون بزي النيوبرن معلقين في هذا الأزرق اللانهائي. نزل حبلٌ من السماء المائية، أوصل ماران يدي للحبل، أمسكت به ثم وضع يده فوق يدي ليتحقق من الإمساك. هاأنذا وسط المجموعة فغمروني بنظراتهم من خلف زجاج أقنعتهم. عائلةٌ عطوفةٌ. جعلت الزعانف أرجلهم طويلة بشكلٍ مفرط فلا هم رجالٌ ولا ضفادع. شعرت بضغطٍ على ذراعي. أدرت رأسي، تحط عليّ عينان شديدتا الخضرة، إذ يمكننا رؤية اللون جيداً والقناع كمكبر. غمزتني بإحدى العينين فاجتاحتني حرارةٌ لطيفةٌ. يتمايل شعرها الذي صار أحمر اللون كشرائط من حرير حول جسدها الطويل والنحيل. يا للهدوء واللذة، أقر بأنني لم أعد أفكر بباز. جسدي مضغوط بشكلٍ لذيذ. اخترقت الشمس الستارة المائية وغسلتنا بأشعتها عبر سقفٍ من الأمواج على بعد ثلاثة أمتار فوق رأسي، يلتهب قرصها الذهبي. أشار لي ماران، يمكنني ترك الحبل وبدء الصعود، حملني الضغط كفلينة. بالكاد مرت بضع ثوان حتى عبرت الجدار المائي.

تتناول شطراً من البرتقال ويسيل عصيره على حافتي شفتيها. تداعب الشمس بشراتنا. تمددتُ دون حراك خائر القوى وسعيداً على سطح القارب المتهادي.

قالت: "رأيتك، لقد أحسنت التصرف" ابتسمت للسماء الزرقاء.

"تريدين القول أحسن جداً". إنه صوت ماران، يجلس مقابلنا وبيده فنجان شاي يتصاعد منه البخار. يتأملني بعينيه البنفسجيتين الضاريتين.

كرر: "بل جيد جداً جداً". وظل يرمقني بتلك النظرة الغريبة. يبدو واثقاً من نفسه جداً. ليس مغروراً لا بل واثق من نفسه ومن جسده ومن عقله. واثق من أنه لن يحدث شيء إلا كما خطط له. يبتسم كمن أنجز شيئاً بالغ الأهمية. بلى هو شيءٌ بالغ الأهمية أن أشعر كما أنا الآن وإلا؟ لدي انطباع بأن نافذةً جديدةً فُتحت في دماغي. ابتسم لكيم. ترى ما طبيعة العلاقة التي تربط بينهما؟ هل هما عاشقان؟ وباز أين هي من كل هذا؟ عادت باز بغتة للعبة؟ واثقٌ أن لا شيء يحدث إلا كما خطط له؟ وماذا عن باز إذاً؟

أمسك بيسراه بيمنى كيم وبيمناه أمسك يدي. استسلمت متحيراً. إننا نشكل سلسلة. قال بنبرةٍ حماسية ووقورة بآنٍ واحد: "إنك تشكل الآن جزءاً من مجموعتنا"

تكدرت قليلاً وانزعجت أيضاً من الحركة لدرجة أنني سحبت يدي. لحظة بسيطة ثم ارتسم التجهم على وجهه.

- مجموعتنا؟

- مجموعة الغواصين؟ مجموعة الناس الذين يذهبون تحت سطح الماء. هل فوجئت بالكلمة؟

اشتد لون عينيه البنفسجيتين، سكبت الماء على حماسته. رمقتني كيم أيضاً وكأنها تنتظر البقية بشغف.

- لنقل إن الكلمة قوية.

- قال وهو ينظر إلي: ككلمة "التعميد"

- بالضبط.

- وهذه الكلمة صدمتك؟

- كانت مجرد صورة، أليس كذلك؟

- صورة؟ لو شئت، هي صورة..

بدا الضيق بنبرة صوته. وضع يده على رقبته مجدداً وقال: "المعـذرة" ثـم نهض واتجه نحو السلم المؤدي إلى الجسر.

- يبدو أنني أزعجته.

هزت كتفيها وقالت: ماران متشبث قليلاً بما يخص عالم أعماق البحار.

- وأنتِ؟

- لست بعيدة عن تفكيره. لم أقم بالغوص أبداً قبل مجيئي إلى هنـا ومنـذ ذلك الوقت وأنا آتي كل يـوم. صرت ألاحـظ أنـني بحاجتـه وأن جـسدي يطالب به. لن أقول لك إنه مخدر فهذا مضحك ولكن بالعمق أظن أن هناك تشابهاً فجهازي بحاجة لجرعة الأدرنالين هذه. كما أن ما نراه أحياناً يرجف الأعصاب حقاً...

روت لي اليـوم الـذي رأت فيـه للمـرة الأولى وهـي متمـسكة بـصخرة الأشكال السوداء الكبيرة تتجـه نحوهـا كطـائرات قـصف صـامتة. كيـف اختبأت خلف بساط من زهر الشقار فرأت أشباح البحر عـن قـرب، عـلى بعد أربعة أمتار: "يدورون ويحومـون فوقـك، بقـرونهما. هـل تعـرف أنهـا تسمى شياطين البحر؟ ولكن يجب ألا نلمسها لأنها تتـشرّب رائحـة البـشر فيتركها بالتالي رفاقها، لذلك نكتفي برؤيتها تـدور بحبـور، تفـتح أفواههـا للعوالق...

"منظرٌ، يا عزيزي، يعوضـك عـن كـل مـا تبقـىٰ والآلام التـي نحياهـا والحمقىٰ الذين نلاقيهم وقبح العالم. جمالٌ لا نقيض لـه، أنـت فقـط هنـا، تشكل جزءاً من الكل، تبقىٰ في مكانك ولا تضيف إليه شيئاً حسبك أنـك تتنفس وتكون في نفس الماء ونفس تاريخ هؤلاء الوحوش الرائعين..

إذاً أترىٰ حين قال لك ماران مجموعة أظن أنني أفهمه بعمق، أظن أنني أرغب في أن أفكر مثله بل في أن أتكلم مثله حتىٰ..."

أشحت ناظري نحو الأفق. البحر مترامي الأطراف يلمع كترسٍ من الفضة، تنقض عليه الشمس كمفترسٍ جائع. أصبحت أسوار الشاطئ تشبه التوست الأسمر أكثر من أي وقت مضىٰ. إنها الساعة العاشرة.

غزا وجه باز عقلي. أحقد علىٰ نفسي لأنني أشعر أني علىٰ ما يرام. تمطت كيم كالهرة حانية رأسها للخلف فداعب شعرها الأحمر كيفلر[1] السطح الحارق. سألت:

- لماذا يشعر المرء بهذا الهدوء بعد الغوص؟

- جراء جرعة الحرية والجمال التي يحقنها في الدماغ. كما أن الآزوت الذي يجتاح دمك يسري تعباً ممتعاً.

- الآزوت؟

- تحتوي زجاجة الأوكسجين علىٰ نيتروجين يمتصه جسدك.

ما تمكنت من تمييز أحد الصبية جيداً إذ بهرني نور الشمس، أتىٰ حاملاً طبقاً.

---

1 - **ألياف كيفلر** (Kevlar) هي علامة تجارية لألياف اصطناعية من البارا أراميد، قوية وخفيفة، وتشبه ألياف الأراميد الأخرىٰ مثل نومكس وتكنورا.

- هل تريد تمرة؟

- بالطبع كلا.

كررت وهي تمسك إحدىٰ الثمار البنية بيدها ذات الأظافر المطلية باللون الأحمر:

- بالطبع كلا؟ ولمَ تقول ذلك؟ إنك تبالغ نوعاً ما..

- لا أحبها.

استحوذت علىٰ ثمرة أخرىٰ من الطبق وقربتها من شفتي:

- لا تكن أحمق، تذوقها إنها فاكهة المكان..

فتحت فمي فازلقت الثمرة البنية بين شفتي ثم ابتسمت وشعرها يتطاير. حقدت علىٰ نفسي. ثمانية أشهر ها قد مرت ثمانية أشهر. أغمضت عيني مشمئزاً من نفسي، مشمئزاً من الحياة لأنها تدفع دائماً إلىٰ الموت.

شارف النهار علىٰ النهاية، ربطوا القارب بحافة الجرف الصخري. رسم الرصيف البحري بقعاً أرجوانيةً في المياه الزرقاء. قدموا لنا وجبة خفيفة، فاكهة وأرزاً. تحدث ماران مع كيم والغواصين الآخرين. يدور الموضوع حول ربان اسمه واتسون. اعتبر الغواص العجوز أنه ابتعد كثيراً فثارت حفيظة ماران. انحنيت نحو كيم وسألتها: "من هو واتسون"؟

- ناشط في حماية المحيطات. منشق عن منظمة السلام الأخضر. يقوم بحملات ضد صيد الحيتان وأسماك القرش. في كوستاريكا، حديثاً، هاجم بالكلاب سفينة صيد تقوم بقطع زعانف أسماك القرش في متنزه طبيعي. اشتكىٰ الرجال فتدخلت الحكومة وهو مطارد ومطلوب للإنتربول.

- الانتربول، دفعة واحدة؟

- أجل. هذا أمرٌ جديٌ، لقد كسر حقاً عمل أشخاص مقتدرين. هل تعرف بكم يباع كيلو زعانف أسماك القرش؟

- سرك في بئر.

ابتسمت وقالت:

- خمسمئة دولار في حين يشترونه بثمانين أو مئة من الصيادين. مؤخراً، في الصين وصل مبيع زعنفة القرش الحوتي لعشرة آلاف دولار في المزاد العلني. لا نصل لهوامش كهذه إلا مع المخدرات.

- وواتسون مختبئ؟

- مختبئ. إنه يلعب جهارة على شاطئ القراصنة. وقواربه تبحر تحت العلم الأسود. ذاك..

مدت ذقنها باتجاه العلم الذي يرفرف في رياح السعودية العربية.

- وهل ماران جزءٌ منهم؟

- أجل. إنه يخصص ٥٠ ٪ من أرباح المركز لمنظمة واتسون: راعي البحار.

تابع ماران بالشرح للغواص الآخر: ولكن الرجال الذين هاجمهم واتسون يصطادون بالخيوط الطويلة! بالخيوط الطويلة، في متنزه طبيعي!

فسرت لي كيم معنى الخيوط الطويلة: خيط طويل يبلغ طوله عدة كيلومترات وتثبت صنارة كل ثلاثة أمتار.

تابع ماران: - تخيل أنك تقوم بذلك في الغابة الأمازونية وتلقي من طائرة هيلكوبتر مئات الخيوط فتمسك بقردة وسناجب وببغاوات، فلا يميز شيئاً بطريقه. إنها مجزرة! يكفي تسجيل صياح الحيوانات حتى يصرخ كل العالم بوجه الفضيحة. لكن هنا تكمن المشكلة مع الحيوانات البحرية، إنها لا تصرخ فلا يهتمون لها! تخيل أنهم يلقون بخيوطهم العاهرة في حين أن ما يعنيهم الزعانف فقط! وماذا عن السلاحف والدلافين والعصافير التي تعلق بالصنارات؟

قال الغواص العجوز: حسناً ماران ولكن العنف لا يحل المشكلة.

- العنف؟ وماذا فعل؟ أغرق محركهم بمدفع مائي. كانوا في محمية بحرية، سحقاً!

الغوص الآخر

فتحت عيني وجدت ماران واقفاً وبيده لوح الكتابة. نهضت. يجلس الغواصون حوله وهم يحضرون أنفسهم. لفظ كلمة "قرش" فسرت رعشة إثارة في القارب، قروش برؤوس بيضاء وقروش برؤوس سوداء". كالعادة فلتبقوا أعينكم على البحر الأزرق لعلنا نرى ذا المطرقة. تتعالى قرقعة أحزمة الأثقال والأسطوانات التي تتصادم. طلبت مني كيم مجدداً بسحب السحاب على طول عمودها الفقري. قالت بصوت عذب: "شكراً". أشعر أنني شخصٌ آخر في مكانٍ آخر. وكأن شيئاً ما حدث ولم يكن بالحسبان. هذا المكان كان من المفترض أن يكون لباز والخطأ خطئي. انتعلوا الزعانف ووضعوا الأقنعة على وجوههم والأنابيب في أفواههم واختفوا في العباب.

الآن أنا وحيد مع ماران وأفراد الطاقم.

- هل نجهز أنفسنا أم نبقى هنا؟

سألني واقفاً ويداه متصالبتان فوق صدره العاري. رفعت حواجبي: ولم تقول هذا؟

- لا أدري، يبدو أنك تتعامل كأبله..

- بسبب قصة الجمعية؟

- نعم. ربما لا ترغب بالغوص مع أبله..

أجبت وأنا أخرج بدلتي من الكيس الأزرق:

- إلا لمعرفة إلى أين ستصل بنا بلاهته؟

ابتسم وطلب من رجال الطاقم القريبين أن يركبوا المنظم على أسطوانة الأوكسجين الطازجة.

تتملكني رغبة عارمة بالعودة للأعماق حيث أجد نفسي مع باز.

إنه أكثر فخامة، عالمٌ مخطط بالألوان تجوبه وتتجاوزه وتزرعه وتنقره وتستعمره غيومٌ من الحيوانات الصامتة. أقول حيوانات لأنني أيقنت أن هذا العالم هنا هو ضعف العالم الآخر وانعكاسه تماماً. هنا أيضاً أسراب العصافير والدوري والببغاء وقطعان البقر التي يحرك خطمها بهدوء قطع المرجان. كما هناك الحشرات المختبئة بين الأوراق والأفاعي في تجاويف الصخور.

فكرت بكَ أمام هذا المشهد وقلت في سري إنك كنت لتحب أن تبحث معي عن التشابهات. كنت أتأمل المرجان ومراوحه الحمراء الكبيرة التي تتموج مع النسيم – كان يجدر بي القول التيار– والتي تدعى الغورغون. أذكر أنه سبق أن رويت لك هذه الأسطورة وبيرسيوس الذي هزم غورغون ميدوسا وتخلص من رأسها بوضعه على فراشٍ من الطحالب في أعماق البحر. و لكن بالرغم من موتها، ظلت تحول كل ما يمر أمام ناظريها لحجر وهكذا تحولت الأشنيات لمرجان ولونه الأحمر يعود للدم الفار من عنق ميدوسا المقطوع..

كل شيء كان على ما يرام. كنت أشعر بأنني أراقب أنفاسي بشكلٍ أفضل ثم سارت الأمور بشكلٍ أسوأ. لاحظت شكلاً، شكلاً كاملاً وبارداً، صاروخاً رمادياً. يضرب الماء بذيله كالدفة ليتمكن من تغيير وجهته في

الحال. ما صدمني للتو بعد الجنيح المميز هو تلك العين الفارغة. كان يـدور من حولنا، يبدو أنه يصطاد بعصبية. بعد مترين حسب التقدير بدأت ألوح، كنت أتنفس بشكلٍ سيئ وشعرت بأنني سأمتص كل الأوكسجين وأقـضي هنا. دفعت قدمي وبدأت بالصعود. أمسك ماران بذراعي وشـدني بعنـف وأرغمني على أن أنظـر بعينيـه وكانتـا غـامقتين وقـاهرتين. رسـم بإبهامـه وسبابته حرف "o" التي تدعوني للهـدوء بحـزم. يمكننـي أن أرى خلـف خيال سمكة قرش تمر وترسم دائرة حولنا. لم أرد أن أرى ولكن كان الأمـر أقوى مني.

اختفى الحيوان، ترى هل سيعود مع بقية أبناء جنسه؟

تـسلقت الـسلم بالـسرعة التـي كانـت باسـتطاعتي تعيقنـي أسـطوانة الأوكسجين التي بدت وكأنها تـزن طنـاً محـاولاً ألا أنزلـق عـلى الـدرجات المعدنية. حررني رجال الطاقم من الحمل وعجلت بنزع القناع ثـم اقتلعـت نفسي من البدل المطاطي الذي وقع على الكيفلر كإهابٍ هائل ميت. وافـاني ماران وقد أبقى على القسم السفلي من البدل فبدت ذراعا النيوبرين كتـويج زهرة تفتّح منه صدره المرصع.

قال: - لم يكن عليك أن تصاب بالذعر.

- كانت سمكة قرش.

- القرش لا يؤذي، من الحماقة أن تخاف منها.

- اعذرني ولكن يجب أن تفهم.

أجاب بغيظٍ:

- ماذا علي أن أفهم؟ ستحدثني عن أسنان البحر؟

- كلا، ولكن هناك حوادث أحياناً..

- هناك حوادث عندما يثيره الناس، لو احترم الإنسان المملكة التي يطؤها لما حدث شيء أبداً..

شردت عيناه للحظة وكأن الشك ساوره باللحظة التي كان يلفظ الجملة.

- هل تريد فنجان شاي؟

قبلت. وصل المشروب وناولني إياه دون أن ينبس ببنت شفة. بللت شفتي في الماء المعطر الحارق. غيّر سلوكه تماماً لم تعد له صلة بذاك الصبي الذي رحب بي بالجمعية.

صعد الآخرون بعد ثلاثين دقيقة تقريباً عاد الآخرون يقطر الماء منهم وعاد القارب للتحرك خلفاً. كنت أتأمل واقفاً الامتداد السائل على مد النظر. معطف كبير وثقيل ومتموج بلونٍ أزرق غامق ما عدا على حواف الرصيف البحري ذي الأزهار المائية والمزين باللون التركواز ووميض أصفر وأخضر. لكن ما يهيمن هو هذا اللون الأزرق الغامق، ذاك الأزرق البحري الذي نجده في اللوحة التي أرتني إياها كيم. باز - عذاب مثل العذاب الذي يتصاعد داخلي. قادت مبادئي العمياء للحطام. ألم يكن علي أن أكون معها هناك وأن أصغي إليها أكثر وأتفهم حاجتها للحياة الوحشية كما كانت تقول للانتعاش، ماذا أعرف عن الحرمان؟ بدل أن أرمي كل شيء، عوض أن أتركها تهلك في عبادة الزعانف بين نخلات آخر... لكن

ترىٰ هل كانت ترغب فقط بأن أكون هنا؟ هل ما زالت تحبني؟ يبدو أن الإنسان ينضب في عين الآخر كما ينضب منجم الذهب. إن لم نعد نجد الذهب في الآخر تركناه في حين كان يتوجب علينا فقط الحفر أبعد قليلاً والتنقيب عن منجمٍ آخر. ترىٰ هل كنت بالنسبة لها منجماً لتتركه؟ هل حقاً هو... نظرت إليه في مقدمة القارب مع الربان وعمامته حول رقبته، لورانس العرب بالأسطوانات يرشف الشاي بالنعناع، معلم بالنيوبرين موهوب وذو سمرةٍ محببة. لاحظت كلماتهم بالعربية، تلك اللغة التي نسمع فيها حركة حصىٰ الصحراء، مجنون... لقد فتح لها أبواباً جديدة كما حصل معي. أشعر بالضياع. لدي رغبة بأن أنسىٰ بدوري، فالجمال الخلاب هنا يحملنا علىٰ النسيان. ترىٰ هل يمكنني أن أحقد عليها بأن نستنا؟ أنا لا يجدر بي فعل ذلك.

سألت كيم: "هل جرت الأمور علىٰ ما يرام؟"

كانت قد بدلت ملابسها في حجرة القارب وارتدت بنطالها القصير كتب عليه DIVE وبدلت زي السباحة العلوي بكنزة خضراء تبرز نهدين بشكل تفاحة، لعل اللون الأخضر هو ما جعلني أفكر بالتفاح. وضعت علىٰ وجهها نظارات شمسية بعدسات ضخمة كفنانة في شينشيتا[1]، ذات جناحي فراشة سوداوين. شعرها مرفوع فوق نقرتها بعقاصة تتلألأ تحت الشمس المائلة للغياب. هذه الفتاة جميلة، هذه الفتاة ظريفة بل عاطفية. ماذا لو عرفت. ماذا لو عرفت ماذا أفعل هنا.

---

1 - شينشيتا إيطالية: (*Cinecittà*)، وهي أتت من الكلمتين *شينما*(cinema) و*شيتا*(città) وتعني مجتمعة: (مدينة السينما). هي أكبر ستوديو أفلام في روما، إيطاليا.

أجبتُ: "جيد جداً".

وضعت يدها على كتفي. يا للنعومة. جلست بقربي.

- قيل لي كلا..

- لقد رأينا قرشاً.

- خفت؟

- ألا تخافين أنت؟

نظرت إلى البحر الذي يشبه طبق خزف فارسياً ضخماً. قالت:

- كلا، لا أخاف.

- لأنكِ معتادة..

- كلا.... توقفت عن إكمال جملتها، ترددت وكأنها تبحث عن شيء ثم تابعت بهدوء.

- لم أعد أخاف لأنني رأيته. رأيته ماذا يفعل معها.

- من؟ وماذا يفعل؟

- ماران.. ما يفعل مع القروش..

- وماذا يفعل؟

- يداعبها ويجعلها تنام.

- آمل أنه مجرد كلام..

- سترى. ولكن لكي يريك، عليك ألا تخاف أبداً وألا تتفوه بشيء ضد القروش.

- وإلا لالتهمتني نيئاً؟

- لا تسخر.

- إنني لا أسخر ولكن تبدين جدية في كل ما تقولين.

- اذهب وقل لقسيس إنك لا تؤمن بديانته..

- هذا غالباً ما يحدث مع القس.

- ربما ولكن هو لا يحتمل هذا. لا يبدو ذلك لأنه ليس متحمساً لمعتقد فلا يظهر شيئاً ولكنه سيصنفك..

- من بين الخونة؟

- من بين أولئك الذين لا يعرفون كم يخسرون ببقائهم على السطح.

فكرت أن أقول لها إنه "كان لزوجتي طفل قرش" لأساير غرابتهم. لكن بعد أن رأيت الجمعية والتعميد والرجل القادر على تنويم القروش عرفت أنهم هبل. ما المانع؟ بدأت الأمور تتضح. باز كانت عرضة للانتهاز مسبقاً وتعبت من كل شيء فوقعت بين مخالبهم..

- هل أرى ذلك للشابة الإسبانية؟

- لماذا تتحدث عنها؟

- أنت من حدثتني عنها. هل أراها ذلك؟

- أظن نعم.

- كانا عاشقين؟

خرجت العبارة بعفوية وكان ذلك أفضل.

- وهل يهمك إلى هذه الدرجة؟

فكرت، قد احتاج لكيم ولا أريد أن ترتعب، تذكرت ما قالت لي في أول حوارٍ لنا عن سمعة الفندق..

- كلا، لا يعنيني. ولكن بالواقع..

- لم يأتِ أحدٌ على ذكر ذلك..

اقتربت مني وفتحت يدها حيث تغفو على راحة كفها شجرة صغيرة وجافة بيضاء كالثلج ومعدنية بهيكلها ونباتية بهيئتها: كانت مع ذلك عبارة عن حيوان: قطعة من المرجان.

"أحضرتها من أجلك". في العصور الوسطى، كان الناس يبقونها معهم لتحميهم من السحر.

- أتظنين أنني بحاجة لتعويذة؟

- من يدري؟

انتهى النهار بملحمة شمسية فالقطع الحمراء رصعت السماء ومال العباب للون البنفسجي. وصل القارب للرصيف ورتب رجال الطاقم الأسطوانات على الممر الخشبي. يعلو الداو[1] في عرض البحر على إيقاع أنفاس البحر. اقترحت كيم أن نشرب كأساً في الفندق: - أنا من أدعوكما. أجاب ماران وهو ينحني ليمسك بكيس المعدات: لدي ما أفعله.

قلت: من أجل الاحتفال بعمادتي؟

استدار.

---

1 - الداو، هو اسم عام لعدد من السفن الشراعية ذات شراع واحد أو أكثر تستخدم في منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي.

تتكسر الأمواج على الشاطئ لتتلعق قطعُ الزبد الرمال. يعيد الحاجز الجبلي الذي يحيط بنا صدى هديرها أو بالأحرى نسماتها. كغضبٍ دائمٍ أو على الأقل كاستعراض للقوة. تقول المياه أنا هنا من يأمر، بل كادت تلتهم الشمس على مهل. كنا في البار حين داعب آخر شعاع شمس شبكيتنا نشرب نخب عمادتي. كانا يشربان شراب التمر وتبدو عليهما السعادة. لم يكن يرغب ماران بشرب الكحول في البدء لكن كيم ألحت، للكحول أثرٌ جيدٌ عليه. رفعت كيم رأسها: "ماران يجب أن تُري سيزار ماذا تفعل مع أسماك القرش.." وكأنها عضته، هاج لا بل شحب لونه أيضاً..

لم تجرؤ كيم على الإلحاح أنا بلى.

- ولماذا، هل حدث حادثٌ؟

وجه لي نظرة كالصاروخ: "ما من حوادث أبداً".

كان للجملة وقعٌ كالساطور. أشاحت كيم بناظريها وحانت اللحظة الحاسمة. قلت: "بالطبع هناك حوادثٌ مع أسماك القرش. حُكي عن ذلك في جزيرة لارينيون الصيف المنصرم حيث هاجمت أسماك القرش راكبي الأمواج. ثم في كاليفورنيا، الأسبوع الماضي، راكب أمواج..."

تفرس بي بغضب وقال: "هل سمعت ردة فعل راكب الأمواج؟ قال بالضبط: "في كل مرة تركب الأمواج فأنت تدخل بيوتهم" للأسف لا يعكس الإعلام ذلك فمردود بيع الخوف أفضل"

استدار نحو كيم وقال: "شكراً على القدح. سأعود إلى منزلي.

ما زال الوقت باكراً جداً، لم ننتهِ بعد. أتبعت: لا تأخذ حديثي على محمل السوء ماران فأنا لا أعرف شيئاً عن أسماك القرش. سبق أن ذكرت لي هذا الصباح أنه يمكننا تبنّي سمكة قرش... تبنّي بكل معنى الكلمة؟

بدا أنه هدأ من روعه: "أجل هذا صحيح فلنقل ذلك، يبدو ذلك غريباً ولكنه صحيح تماماً. ربما يعنيك الأمر؟

– لعل ذلك سيساعدني ليتناقص خوفي، أليس كذلك؟

– هذا أحد الأهداف.

– والأهداف الأخرىٰ؟

– إحياء العلاقة ما بين الإنسان وسمك القرش. سيبدو لك الأمر ساذجاً بعض الشيء أو مجرد ادعاء ولكن في بعض الثقافات لا يعتبر القرش عدواً يجب إبادته بل إلهاً. في جزر التونغا يعتبر آلهة. وعند الفيجين لا بد أن تقبل خطم القرش لتصبح رجلاً لأنه سيعطيك بعضاً من قدراته..

استرخىٰ فجربت حظي لمرة أخرىٰ: "أرغب حقاً في أن تريني ما تفعل مع أسماك القرش"

هز رأسه قائلاً: "مستحيل لن أفعل ذلك مجدداً"

رشفت رشفة كحول. خرجت الجملة بعفوية "بسبب الموت؟"

انتفض وتقوس حاجباه بألم: عمّ تتحدث؟

– عن الغريبة التي كانت تعيش هنا وغرقت..

قال وهو يمرر يده مرة أخرىٰ حول رقبته وكأنه يبحث مجدداً عن شيء ما لم يعد موجوداً: "لا أدري عمّ تحدثني...". فوجئت بتدخل كيم: إنه يكلمك عن دولور –عذاب–

فاستدار نحوها وقال: "وبماذا يعنيني الأمر؟"

هزت رأسها بسأم بدا لي احتقاراً كشخصٍ لم يعد يريد أن يضيف شيئاً لأنه سيلاقي تمرداً يثير اشمئزازه. أخرجت علبة من اللؤلؤ رسم عليها

خطوط مكسورة وأخذت منها سيجارة وتصاعد نفسٌ طويلٌ غائمٌ في الليل. قال ماران: "سأذهب لدي ما أقوم به". نهض وأخذ مفاتيحه عن المنضدة ولعجلته الشديدة انقلب كأسه وما جرى فيها بعد بدا غريباً إذ كنا نراقب ثلاثتنا ببطء انسكاب السائل على المنضدة الرخامية ويعبرها حتى الطرف الآخر حيث يقطع سندباد قطع ليمون صغيرة على اللوح الخشبي. رفع صانع العصير حاجبيه وقال: "لا مشكلة ماران" كم بدا لي ضعيفاً.

قلت لماران: "لا بد أن نتحدث.

- ليس لدي ما أقول. أنا هنا من أجلك لو شئت الغوص وهذا كل شيء. غداً ننطلق الساعة الثامنة والنصف.

ثم اختفى ولم يتكرم بإلقاء التحية على كيم.

تتأمل البحر وعبر احتراق سيجارتها الطويلة، سالت دمعة على وجنتها.

- ألستِ على ما يرام؟

- لا شيء، مجرد اقتحام لكآبة صحراوية..." سكتت هنيهة ومسحت عينها بحركة من السبابة ثم تابعت: "كلا، لست على ما يرام. ظننت أنه سيقول لك ولكنه ينكر."

- هل هو المسؤول عن موتها؟

لم تزل تشح بناظريها عني: بالطبع.

تسارعت نبضات قلبي، أخيراً حصلت على الإجابة التي كنت أبحث عنها. أحدٌ ما على وشك أن يقول لي نعم الرجل الذي دارت حوله شكوكي دون أن أتأكد من أنه هو المسؤول عن موت زوجتي. وصلت لهدفي، كم كان فظيعاً.

- ماذا فعل؟

- بالضبط. لا أعرف ولكن ما أعرفه أنهما كانا معاً تلك الليلة لأنني كنت قد رأيت دولور، كنت قد ذهبت لأحتسي الشاي عندها وتركتها قبل هبوط الليل. ظهر ماران فجأة، قالت: "سأعود" وفي صباح اليوم التالي وجدناها.

- ولكن كيف لك أن تكوني واثقة جداً من أنه المسؤول؟

أغرقت يدها في الجيب الصغير المخيط على مقدمة فستانها وناولتني شيئاً. قطعة مجوهرات معلقة بطرف سلسلة.

- ما هذا؟

- ألاحظت الحركة الآلية التي يقوم بها ماران طيلة الوقت، وكأنه يبحث عن شيء ما حول رقبته، أرأيت؟ حسناً، هذا ما يبحث عنه.

تفحصت الجوهرة، نقطة حليب شفافة.

- إنها تعني له الكثير فهي هدية من والده الذي أحضرها له من أعماق المحيط عندما كان ماران صغيراً.

- ولماذا تعطيني إياها؟

- وجدتها في بيت دولور، أنا من غيرت القفل، وددت أن احتفظ بعالمها. توخيت الحذر من الشرطة.

وضعت الجوهرة على المنضدة، كنت على أعصابي والعتمة تسود من حولي، لم تكن عتمة الليل فحسب.

- ولم لم تقولي لي سابقاً؟

- لأنك لم تسألني أولاً وثانياً لأنني لم أكن أعرف مـن تكـون. في البـدء صدقت بحماقة قصة رجل الأعمال بإجازة. فيما بعـد، أزعجنـي شيءٌ مـا، لم أعد أعرف ما هو بالضبط أظن أنه كان في مكتبي عنـدما أريتـك اللوحـة، حصلت على اسمك وأجريت بحثاً. دقيقة واحدة على غوغل. لم يعد هنـاك من غموض ممكن مع الإنترنت، رأيـت صـورك مـع دولـور. كنـتما زوجـاً جميلاً. في إحدى الصور كنتما أمام طفل هائل الحجـم مـن الرخـام يمـسك بضفدعة..

- إنه "الطفل ذو الضفدعة"

- تعرفت على فينيسيا.

- كانت فينيسيا.

مرت لحظة قبل أن تكمل: "مهـما يكـن. أعـرف الآن أن اسـمها بـاز لا دولوز وأنها كانت مصورة مـشهورة. لمـاذا تركـت التـصوير؟ لمـاذا غـيرت اسمها؟

رأت أنني لا أجيب، فاقد الحيلة:

- لا تعرف، مهما يكن السبب كما أن الأمر لا يعنيني.

أمسكت بيدي وحطت السلسلة في راحتي وأغلقتها.

- مع هذه لن يتمكن من القول إن لا علاقة له..

- ولماذا تفعلين هذا؟ ظننت أنه صديقك. أنـت تعلمـين أنـك تورطينـه بالقول إنه حقاً المسؤول عن وفاتها. تعرفين أنني لن أتركه وشأنه وأن الأمر قد يذهب بعيداً...

- هزت برأسها: أشعر بالغيرة، أتريد ذلك...

ثلم مرارة حفر وجهها. - تغارين منها؟

- منها؟ ولكن كلا. منه لأنه أخذها مني..

أشعلت سيجارة أخرى، تصاعد الدخان حد النجوم. لم أعد أفهم شيئاً. ما يجري في هذه الأصقاع يفوق مقدرتي. أزلقت المفتاح على المنضدة "إنه يفتح القفل الجديد، إنه لك".

وحين شكرتها أجابت: أنا لا أقوم بذلك من أجلك. أرغب بأن أعرف ما الذي جرى ولماذا خطفوها منا؟

انهت العصير برشفة وأخذت علبتها المرصعة باللؤلؤ وغابت في الليل الذي يتصارع مع أضواء الزيت على حافتي الدرب الذي سلكته لتصل لوحدتها أو لأحد رجالها ذوي الزي الأزرق.

الغرفة

يسبح الكحول في دمي. رفعت عيني لسماءٍ مرشوشة بالنجوم. هذه النجوم تعلم وهذا البحر أيضاً الذي نسمع هدير نسماته ونشم عبقه الفواح. هذا البحر الثقيل كبطن امرأة حامل حيث تتخبط آلاف القروش في لجّة الأعماق اللزجة. ماذا سأكتشف خلف هذا الباب، تحت النجوم العربية بمجموعة الدب الأكبر التي لا يمكننا رؤيتها في أوروبا؟ هل سأتعرف على باز أم لم يعد هناك سوى دولور؟

يتردد الأذان في الليل فيطغى على همهمة الأمواج. رجلٌ يتحدث ليطبق سلطة الله على الطبيعة المتوحشة. أذان المؤذن حزين، أنينٌ طويلٌ مترعٌ بالخشونة:

«يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً».

وصلت إلى القرية وصندلي بيدي. تلوح خيالات هائنة لرجال جالسين على الرمل يعتمرون العمائم ويدخنون الهوكا. تلمع النقطة الحمراء في بيت الغليون على الماء كضوء صغير. تناهت لمسامعي تنهيدات وهمهمات المدخنين فلم يطغَ عليها بعد صخب تكسر الأمواج. ثقبت رنة إلكترونية فقاعة السكينة. هاتف جوال، الزوجة العريقة الزائلة، بعض الأطفال متأخرون يخوضون في الزبد وتدخل كلب. عند عتبة منزلهم تناديهم والدتهم تتشح حجاباً يتطاير مع النسمات: "زيم! ريمة!" الطقس فاترٌ لطيف كالرمل تحت أخمص قدمي. كنت أرغب في أن أتجول مع باز في ليلةٍ كهذه. عدت أدراجي، أنزلق تحت الأقواس. تعالت صرخة امرأة حادة،

انتفضت، تلتها بضعة الأنغام الموسيقية المسرحية. لم يكن سوى صوت التلفاز، خيال، قصة جريمة وانتقام برفقة نساء مكحلات الأجفان؟

يفتح المفتاح القفل. فُتح الباب، أخيراً سأعرف.

كشف لي نور القمر عن قاطع كهربائي، ضغطت عليه. أزيز نيون، رجف ثم استقر نوره. فتحت عيني مصعوقاً، إنها بالضبط كوصف كيم عدا أني أراها بأم عيني التي اغرورقت بالدموع. إنها مجرد غرفة كبيرة بمنتهى البساطة، مبلطة. من أفضل الورش في العالم، لو كنت هنا لأحببتها يا هكتور وتكون فخوراً بوالدتك. لقد بنت هنا شيئاً ما وعاشت كما رغبت بأن تعيش.

مُد غطاءٌ على الأرضية، تحت ضوء النيون مثنيٌ كالبحر وعليه دلوان ممتلئان بسائل تغط فيه فرشاتان كبيرتان. تنكاتٌ مقسومة لنصفين وملطخة بالدهان الأزرق وزجاجات من زيت التيربنتين وخرقٌ ببقعٍ زرقاء وسوداء لكن الأزرق هو اللون المهيمن. وُضع على طاولة صغيرة مغطاة بشرشفٍ أبيض مقص وبكرات خيوط زرقاء بالإضافة لشبكة تطريز للنسج. أريكةٌ مع وسادة لتتمدد حين لا يأتي الفن أو لم يعد يأتي. تمتد على الجدران خيوطٌ عُلّق عليها قماشٌ بملاقط غسيل. عدا ذلك فهو العوز، لا شيء آخر في الغرفة سوى أدوات الرسام وسخانة غاز مع قدر ورفٌ صغيرٌ مع قدحين مزينين بالآرابيسك كتلك التي نجدها في أي سوق شرقي، بالإضافة لعلبة سباكيتي ورب الطماطم.

على الرسوم وجدت المرأة الزرقاء التي أهدت لوحتها لكيم ولكن بوضعياتٍ لا حصر لها ودائماً شعرها منسدل وجسدها مقلوب مرتخٍ

والنهدان نقطة، حلمتان زرقاوان والعانة زرقاء أيضاً مخططة بخطوط كبيرة. بيد أن العينين بالكاد رُسمت على الوجه، تنظر إلى المشاهد والشعر الأزرق يُخبئ جزءاً منها. دائماً هناك عدم توازن مع البقعة المرسومة تحت الجسد كظل. اتكأتُ على الجدار وتأملت الرسوم الأخرى الأكبر والممتدة تحت إطارات مطرزة سابقاً، تأملتها واحدة واحدة. على ظهر اللوحات هناك حروف، حاولت فك الرموز: أزرق١، أزرق٢، أزرق٣، أزرق٤... وهكذا دواليك. لا شيء سوى أزرق.

هذا ليس صحيحاً، أكذب من باب الإهمال. ما يوجد في هذه الغرفة حقاً لن يعرفه أبداً، سأخفي لأنه شديد الإيلام، الجملتان اللتان فككت رموزهما على اللوحة، مثلاً: "لن أقول إنني لم أكن أحبك سأقول إنني غير قادرة على الحب"

وعلى الجدار هناك شيءٌ آخر أيضاً، صورة.

لكن الصورة لم تكن لا لك ولا لي.

صورة سمكة قرش، القرش ذو المطرقة. نور ابنها الذي تبنته.

ابنها الآخر. ابنها. وماذا عن هكتور؟ ونحن؟ ذرفت الدموع. أشعر بأنني حزينٌ جداً ومثقل القلب واخترقتني رغبةٌ عارمة بالموت أمام ماضينا الذي تحول إلى عدم. لا أثر لنا. تدخل الغضب فساعدني على التماسك. تابعت الاستكشاف وصدري مثقل.

هناك باب على الجهة اليسارية، فتحته لأجد غرفة ثانية صغيرة. هناك سريرٌ عليه شرشفٌ ملتوٍ وعند حافة السرير حقيبة، انحيت وجررتها نحوي، تعرفت على أحد فساتينها ذي الحمالات بلون أخضر كاللوز، أذكر أنها ارتدته حين دعانا طارق إلى العشاء، عندها وصلنا متأخرين، قالت حينها لأنني كنت بحاجة لممارسة الحب. كما عثرت على مرآتها الصغيرة التي حفر على قبضتها امرأة متدثرة كالقدماء التي أعجبتني كثيراً حين كنت بائع التحف العجوز في بريانو. يراودنا انطباع بأنها غادرت منذ برهة وأنها ستعود خلال لحظات. أمسكت ثوبها بين يدي وشددته إلى وجهي وشممت عطرها الحاضر رغم غياب الجسد.

وضعت يدي على الجدار لئلا أقع بالمقلوب. رأسي يدور من وقع الألم كدوخة يكاد يُقتلع. أشعر أنني أختنق بالدخان داخل الغرفة. تنتابني رغبةٌ بالغثيان لأنني لن أراكِ مجدداً يا باز، غفا جسدك في البرد. خطر لي أب العائلة في غرفة فندقٍ في خاو لاك الذي تم إخلاؤه بسبب تسونامي، تذكرت ضجيج الحقيبة التي يسحبها خلفه بين الركام ويمسك ابنه بيده. يا اسم الله، يا ابني هكتور. اجتاحنا تسونامي دون أمواج لكنه دمرني مثله. انزلقت على الجدار وجلست على الأرض وغمرت رأسي بالقماش على ركبتي. أتنفسكِ، أتنفس آخر القطرات الملموسة على جسدك وعن العالم التي خلقته من حولك. بكيت وبكيت بدموعٍ حارقة ذرفتها في فستانك، ثملت ألماً واخترقتني التنهيدات كخناجر وأوسعتني ضرباً وأجهزت علي.

قلت لنفسي لأواسي نفسي، لئلا ألوم نفسي إنها جاءت إلى هنا لتبحث عن شيء ما قدرنا أن نقدمه لها يا هكتور. الأزرق والبحر والانتعاش. ربما إلهام الجن؟

بحثت في الحقيبة ويدي بين القماش الذي غطى انحناءات جسدها، وجدت أخيراً ما أبحث عنه: صورة، صورة لنا نحن الثلاثة. تمسك بيدك يا هكتور زجاجتك المدورة، كان عمرك ربما سنتين، كنت أحملك في أحضاني ووالدتك إلى جانبي تضع نظاراتها السوداء على جبينها وترتدي فستاناً جميلاً، كالعادة لبشرتها تلك السمرة المحببة مثل بشرتك. لم تكن تبتسم، كنت تحدق بالهدف بتلك الكرتين السوداوين بجديةٍ تامة وترتدي سروالاً من الجينز. كم كنت شهياً للقرط كالبندقة التي لشعرك لونها ودفئها. ووالدتك تبتسم والفرحة تشع من وجهي من الفم حتى العينين. أنا فخورٌ أن لي ولداً وزوجة أقوى من الموت.

كذبت مرة أخرى. كذبت على ابني، كذبت لصالحه. هذه الصورة التي أصف لم تكن موجودة. لم تكن هناك صورة تمثلنا نحن الثلاثة معاً، لا شيء يخصنا هنا، خاوية. في أيامي اللطيفة أقول في سري إنه ما من صور. إن لم يكن من شيءٍ يذكرها بنا فهذا يعني أنها كانت ستعود لا محالة. غادرت ثمانية أشهر وهذا كثير وقليل بآن واحد. لم تكن بحاجة لصورة لأننا في قلبها ولأنها تستعد للعودة. لا حاجة للذكريات لأننا هنا معها. في الأيام السيئة لم أتمكن من إقناع نفسي فتلتهم الدموع وجهي. ياللحرقة!

أدخلت يدي في جيبي وأخرجت منها القلادة. رفعت رأسي وإذا برجلٍ يحدق بي واقفاً عند العتبة، رقيم، أغلقت قبضتي على الجوهرة. سألني بصوتٍ ضعيفٍ جداً إن كنت على ما يرام. نهضت ومررت يدي على عيني لأبعد الماء المالح.

قال بنبرة تأكيد: "ستراه الآن".

- من؟

- المجنون الأشقر الذي يكلم الجن.

- لا أؤمن بالجن.

- كل الناس يؤمنون بالجن. أنت تبكي.. كانت زوجتك الإسبانية؟

ابتسمت رغم كل هذا الألم فالتفكير جعلني سعيداً.

- أجل كانت زوجتي.

- انتبه لنفسك.

اختفى وكأنه لم يكن هنا. هذه البلد تدعو للجنون، يجب الإيمان بالجن دون شك.

الليلة الأطول

عبرت الشاطئ حتى وصلت مركز الغوص وبيدي أمسك قلادة ماران. العلم الأحمر والأبيض لا يتحرك. عند طرف الرصيف، بالكاد يتهادى القارب. يفلت النور من المنزل المجاور الذي يشبه مكعباً من الإسمنت فيه حفرتان للنافذتين تعترضهما الستائر برسم أشجار النخيل. ذهبت لأقرع الباب فلمحت على مقبض الباب شيئاً معلقاً، سلطت ضوء جوالي. شيءٌ يشبه قطعة قماش جافة. كلا بل قاسية وكأنها حرشفة صغيرة، جلد أفعى. تذكرت ما قال لي رقيم عن العين السيئة.

قرعت الباب، سمعت صوت ماران: "صبراًا" فتح الباب بعد خمس دقائقٍ وهو يرتدي تيشرت كتب عليه بالانكليزية: " I only breathe nitrox". حزم خصره بقطعة قماش من المدرس. تبعثر وجهه عندما رآني وقال: "ليس لدي ما أقوله". ودفع الباب لكنني أعقته بقدمي وقلت: "أنا بلى"

دفعت مصراع الباب. حسبي لحظة لأكنس الغرفة بنظرة لقلة ما فيها. مجرد تلفاز وأريكة مغطاة بقماشٍ يشبه ذاك القماش الذي نجده في كل العالم العربي، في صالات الأعراس وفي خيم البدو الرحل: أزرق وأحمر برسم زهور، وردية. الطاولة هي بكرة كبل من الخشب وعليها إبريق شاي يتصاعد منه البخار ومجلة للغوص عنوانها هو اسم أحد المخلوقات "أخطبوط" وأهم مقالاتها بعنوان "كنوز وحطام" بالإضافة لكتاب عن اليوغا لشوامي فيشنودوفانادا وعلى الغلاف صورةٌ لرجلٍ أسمر يرتدي "سليب أسود" ويأخذ وضعية جلوس اليوغا. أسند على الجدار زعنفة

أحادية وهي تستخدم لرياضة الغوص بوقف التنفس. يغفو غليونه الأسود والأبيض في كرة كقطةٍ على الأريكة بالقرب من الحاسوب المحمول. هناك رفٌّ عليه بضعة كتب. المجلدات الثلاثة لألف ليلة وليلة بنسخة صغيرة وكتاب حول طرائق الغوص. عَلّق على الجدار إعلاناً لمجوعة راعي البحر وصور أطفال شقر. تعرفت على صورته منذ خمسة عشر عاماً خلت، نفس الثقة الصافية في نظرته والابتسامة المشرقة ما بين الأطفال الأفارقة الذين يتوسطهم. كُتب على الزاوية: "بسام الكبير، ١٩٩٧". في صورة أخرى هناك رجلٌ وامرأة يلوحان عن متن عوامة كم كانا زوجين جميلين كما كانوا في السبعينيات أقصد بتلك اللامبالاة. المرأة شقراء وشعرها ملفوف مثل فرح فوزت. كاد الرجل أن يكون روبير ريدفورد لولا ذاك الشعر الفضي. التقطت الكثير من الصور من ضفة المياه أو من المياه. هذا يرش الماء وذاك يلعب مع الدلافين. لا أثر لباز. هناك فراغات بيضاء بين الصور وتم نزع بعض منها. لكن هذا لا يعني شيئاً ولم أحمّل ذاك أهمية؟ على كل حال لدي دليلي وسألوح له به أمام عينه.

السلسلة مع الجوهرة.

جحظت عيناه وارتعشت عضلات ساعده. يبدو مزعزعاً ومثيراً للشفقة.

- أهذه لك؟

- كلا؟

لم يعد يرتجف وارتخى وجهه. راودتني للحظة فكرة أن أمسك بإبريق الشاي وأرش ما فيه على وجهه. قلت: "أنا هنا من أجلها، كما حزرت. من أجل دولور أو بالأحرى باز هذا هو اسمها.

اختلطت معالم وجهه مجدداً.

"كنت أعيش معها ولدينا طفل. ستخبرني بما حصل وإلا سأذهب إلى الشرطة مع هذه السلسلة".

استدرك نفسه ونظر إلي بازدراء كطفلٍ عنيد. اكتشف أنه مجرد طفل ليسبب لي الألم.

"وماذا سيجر علي ذلك؟ لقد قال رجال الشرطة إنها توفيت غرقاً".

استشطت غضباً ونظرت بطرف عيني لإبريق الشاي: "يمكنني الذهاب إلى القنصلية وأقول إن لديّ شكوكاً. وسأتهمك وها أنا أقول لك إنني عازمٌ على فعل المستحيل.

- ليس لديّ ما ألام عليه.

- لا يبدو ذلك.

- هل يبدو عليّ القلق؟

وضعت السلسلة أمام وجهه: "وجدت هذه السلسلة في بيتها وهناك عدة أشخاص ليشهدوا بأنها لك.

- وعلام يدل ذلك؟

- فقط أن علاقتها بك تكفي لكي تَزورَها أو لتعطيها هذه السلسلة الله أعلم. هذا يثبت أنها لم تكن مجرد زبونة في المركز ما يزرع الشكوك وقد يظنون أنك من أقدم على قتلها.

- لا بد أنك تهذي..

لفظ العبارة دون غضب بل مع لمسة حزن.. لكن ذلك لم يستدر عطفي ولا لحظة.

- "أتدري ماران، أنا لا أعرفك ولكنني كنت أعرفها هي وكنت أحبها، لذلك أنا مستعد لأهذي ولوقتٍ طويل، ولأرسلك للجحيم ليس لديك فكرة عنه. سيُفتحُ تحقيقٌ وسنقول وداعاً لك ولمركزك حتى لو لم ينتج منه ما يذكر، أنا سأحضر لك دعاية لن تقف بعدها..

جلس على الأريكة وخبأ وجهه بين يديه. انهار الطفل. قال: "أنا لم أفعل لها مكروهاً.

- كف عن الجبن. إنني على استعداد لأسمع كل شيء عدا هذا النوع من الحماقات "لم أفعل لها مكروهاً"، لقد توفيت، أيها العاهر.

رفع رأسه وباتت عيناها قاسيتين ولامعتين: "أنا لست بجبان، لا أسمح لك بقول هذا. هيا اذهب واحضر رجال الشرطة، أنا بانتظارهم!"

عليّ أن أتمالك نفسي وخاصةً ألا أعارضه. أريد أن أعرف لماذا خسرت باز.

انحنيت نحوه وقلت: "هذا ليس قصدي، ماران ولن أذهب إلى الشرطة إلا إذا اضطررت. أريد فقط أن أعرف. لدي طفلٌ صغيرٌ ينتظر في البيت ويتوجب عليّ أن أشرح له حين يصبح عمره مناسباً، ما الذي حصل مع والدته، لذلك اروِ لي.."

ارتجف حين قلت "طفلاً صغيراً" واغرورقت عيناه. تابع: "لا يمكننا رواية حادثة.

- إذاً أرني.

مددت له الجوهرة، أخذها وعقدها حول عنقه. شعرت أن اللؤلؤة الصغيرة قد تغير لونها حين لامست جلده. نهض ومرر يده في شعره، رمى

بنظرته المثقلة على الجدار حيث تضحك كل صوره وهو طفل، قال: "حسناً"

أمسك بجواله وقال بضع كلمات بالعربية، بعد ثلاث دقائق، قُرع الباب. إنه إبراهيم الشاب الذي يذكرني بمقاتل باكستاني. تبادلوا بضع كلمات تمكنت من تمييز: قرش وهيا" اختفى إبراهيم. قال ماران: "اتبعني". أغلق الباب واتجه نحو المستودع حيث يضع الأدوات. أصدر النيون أزيزاً وأسبل نوره الأبيض على صفوف البدلات المعلقة بارتخاء على العَلّاقة. أخرج ثلاثة صناديق من البلاستيك ووضع في كلٍ منها بدلة غوص وقناعاً ومثبتاً والزعانف والأنبوب ومصباحي جيب". سآخذ الصناديق، أضِئ لنا، سنذهب إلى القارب".

أصدر الممر صريراً تحت أقدامنا، وضع ماران حمله على الجسر وتبعه إبراهيم يدفع شيطاناً مع ثلاث علب من الألمنيوم. بعدة حركات سريعة، وضع الأنابيب في مكانها بشكل عمودي وفك حبل القارب ثم شغّل المحرك. لم يكن هناك هديرٌ ولا فوران زبد البحر، ساد الهدوء وكأنه طيف وانزلق الزورق على الماء باتجاه العوامات التي تغلق الخليج الصغير. لم يدفع ماران المحركات حتى تجاوزناها.

تطاير وشاح العمامة الأسود والأبيض مع ريح العباب. يضرب بدن السفينة الماء كل لحظة ليتداخل ضجيجها مع خرير المراوح الحاد.

ما إن مرت خمس عشرة دقيقة حتى رأيت ثلم رصيف المرجان. صار الحاجز الحيواني فوسفورياً. تدافعت الأمواج ما بين موائد المرجان المتشعب وضاعت منحسرة على أذرعها المتشعبة. يرسم الزبد أشكالاً حلزونية طريفة،

سكايلا وكاربيدس، تباطأ القارب، انتعل إبراهيم الزعانف ورمى نفسه من مقدمة السفينة، رأيته يرفع حبلاً بيده في هالة مصباحه ويتمسك بعوامة تطفو على الأمواج مثقلة بجسمٍ ميت لا بد أنه بلاط من الإسمنت، ربط فيها الحبل ثم غاص مجدداً واتجه نحونا. كنت أرى نور مصباحه يتنقل ولاح مجدداً عند مؤخرة السفينة قرب العوامة الأخرى. أخيراً عاد إلى متن القارب، أطفأ ماران المحرك فتناهى لمسامعي صوت الحبال الممتدة تطقطق. ثم ساد الصمت ليبقى صوت تكسر الأمواج تحت ضياءٍ أبيض ينثره القمر وعرض البحر الذي كنت تحت رحمته لو رغب في التخلّص مني. قال: "فلنلبس"

خلع وشاح عمامته وقميصه، بات عارياً كدودة ثم دخل في بدلة الغوص وبرزت عضلاته. فكرت بباز، لم تكن كفتي هي الراجحة.

كانت البدلة باردة شعرت بأنني أدخل في نعشٍ على قياسي. ثبت ماران الأنابيب على المثبت بينما أخرج إبراهيم مصابيح أخرى وناولني أحدها فارتجفت يدي. لاحظ ماران فأعقب للتو: "هناك شيء غاية بالأهمية، لا يجب أن تخاف فنبضات القلب ترسل حقلاً كهربائياً تستقبله أسماك القرش فحساسيتها الكهربائية هي الأعلى بين المخلوقات البحرية.

أغرقني التفكير بأسماك القرش في هذا الليل بضيقٍ شديد. تأملت الماء أسود اللون، كابوس. كم من الأشكال بلونٍ أخضر ضاربٍ للزرقة تتصارع في الداخل؟ باز قامت بذلك ثم قضت مصرعها من الجنون تكرار الخطأ عينه.

شرح لي أننا سننزل ستة أو ثمانية أمتار فقط وأن علي أن أجثو في الأعماق كما فعلت يوم عمادتي وأن أتنفس بهدوء دون تفكير. هناك صخور يمكنني

التمسك بها إن اضطر الأمر ولكن علي أن انتبه أين أضع يدي. قال إن الأمر سيكون مؤثراً لأننا لن نرى الشيء الكثير لذلك أنزلنا المصابيح، وأن الوقت هو وقت الصيد فلا عجب لو رأيت الأسماك وقد أصابها مسٌ من الجنون. أضاف إنه طلب من إبراهيم أن يبقى حولي ويساعدني على الهبوط على الأرض وأنه سيساندني فلن يحدث لي مكروه. كان بحوزة إبراهيم مصباح قوي سيسلط الضوء باتجاهه لا عليه "وإلا فلن يأتوا".

يتملكني الخوف كرداء إجباري، وازداد تأثيره عشرة أضعاف بسبب البدل المطاطي. لا بد أن الحرارة تزيد على خمس وعشرين درجة لكنني أرتجف. تقدم ماران نحوي: "هلا عدنا". هززت رأسي "أريد أن أعرف هل كانت خائفة هي؟"

- كلا لم تكن تخاف. صمت لبرهة ثم أعقب: ربما كان يجب.

بصق في قناعه هذا ما أثبته المصباح. ساعدني إبراهيم على ارتداء السترة المثقلة بالأسطوانة ثم اتجهنا والزعانف بأقدامنا إلى القسم الخلفي من القارب. كان الليل خلاباً، كمعطف أسود فيه آلاف ثقوب إبرة يتخللها النور. امتداد الماء كان بالمقابل مرعباً، دفقٌ أسود يعج بالحياة.

إبراهيم مدججٌ بالعتاد، مد لماران شيئاً يشبه كيس لعبة الغولف مزود بحزام فعلقه على كتفه قبل وخطا خطوة نحو الفراغ والمصباح ملتصقٌ به. ثَقَبَ جسده وجه الماء بملامسة نورانية قبل أن يظهر مجدداً للتو تقريباً. أومأ إبراهيم لي ليقول إنه حان دوري. نفخ سترتي المثبتة وناولني مصباحي ثم قال: "يلا". وضعت الأنبوب في فمي وقفزت.

شعرت أني وقعت في بئر مظلمة، الماء من حولي لكنه غير مرئي. ليلٌ سائلٌ يسيل داخلي من فتحات البدل المطاطي، ماءٌ متجمدٌ. قام المثبت بوظيفته ورفعني. سألني ماران: "هل أنت على ما يرام؟"

اكتفيت بأن أهز رأسي، انضم إلينا في غيمةٍ من الرذاذ. بدا نور مصباحه المسلط نحو الأعماق كقمرٍ ضخم مستلقٍ على الرمال كأخيه الآخر، العالم الآخر للمرة الثانية.

طفونا كثلاث عوامات في عرض البحر على حدود الرصيف البحري. آمل أن يكون القارب مربوطاً بشكل جيد.

- هل أنت جاهز؟ ستفرغ الهواء من سترتك وسنهبط بالتدريج. انتبه أثناء عبور أذنيك وفكر بالتوازن. أنت وإبراهيم ستبقيان بعيداً تراقباني.

وضع النافخة فوق رأسه وضغط زر التفريغ وغاب في عباب البحر.

ثباتٌ قوي

هبطنا.

كنا نهبط ببطءٍ في الحساء الأسود المخطط بهالات مصابيحنا. هدأ تنفسي من تلقاء نفسه لا بد أن الفضل في ذلك للعتمة التي حاولت استيعابها بعقلي بدل النوم. كان إبراهيم يمسكني من ذراعي وكنت أشعر بالثقة. أخيراً سأعرف وسأذهب للقاء باز ولأصل لهدفي تحتم الضرورة القصوى علي ألا أخاف. كنت أسمع أنفاسي بقوة أكبر من أثناء غوصي اليومي. الشهيق طويل وكثيف بل وعنيف بعض الشيء وكأنني أنفخ في قشة طويلة. للأوكسجين الداخل إلى فمي ضجيجٌ وكأنه قادم من البعيد أما الزفير فكان أكثر سهولة وانفتاحاً ويشكل فقاعات كان بوسعي أن أسمعها تخرج بصخب كمجلى يتم افراغه، تنثقب عشرات الفقاعات عند سطح الماء. يذكرني ضجيج التنفس برجل الفضاء الذي يخرج من مركبته الفضائية ليمشي على سطح القمر أو بعجوز ممدد على سريره في المستشفى وما يعلقه بالحياة هو أنبوب الأوكسجين. كنت بنفس المكان. حبلٌ مجوف يضخ ساقيةً من الهواء يهبني الحياة، لو تم قطعه لقطعت حياتي.

كلما هبطنا، كان علي التفكير بأن أضغط على أنفي وأنفخ لأحافظ على توازن الضغط الذي يعدم أذناي. يبدو المنظر مرعباً لكنه خلاب. سلط ابراهيم الضوء على الجدار المرجاني ليبدو الغورغون متراقصاً كسراخس ضخمة وطاولات من المادريبور بعرضٍ لا يمكن تخيله وكأنهم بانتظار المدعوين لموائد فخمة. كنا نهبط وأنا أحرك زعانفي ببطء وكأنني في محل بورسلان أخاف أن ألمس أو أتلف إحدى عجائبه. تحرك الشقائق ذراعيها

كراقصاتٍ هنديات، عندما نقترب نجد أسماكاً نائمة وأخرى شكلت فقاعة من حولها، يحميها زغبٌ مخاطيٌّ نيّر يبدو ككرةٍ من الكريستال. ثم فجأة مس الجنون كل شيء. تتراقص العوالق ما بين نيران المصباح وتنطلق عدة أسماك كصواريخ ما بين الصخور المغطاة بحزاز أحمر وبنفسجي مطاردة لفريسةٍ لا نرى بوضوحٍ كيف تفلت منها. تمر ثلاث أسماك الأسد دائماً مزينة بالريش. تقوم الضواري بالصيد. الشيء الذي لا يصدق هو الضجيج: فرقعةٌ شديدةٌ لم أكن أسمعها نهاراً. ما زال ابراهيم يمسك بي، قد أموت لو تركني. لم أبعد ناظري عن الحزمة الضوئية الهائلة التي تخترق ليلاً من السائل. كان ماران يسبح أمامنا مع مصباحه الصغير. غاب خلف صخر فتوجست خيفةً، ثم أدركت أن هناك انحناء في الرصيف. ظهر مجدداً وكأنه يطير فوق شرفةٍ بحريةٍ. منطقةٌ مسطحةٌ، شدّني إبراهيم نحو الأسفل فشعرت فجأةً بالرمال تحت زعانفي. جعلني أجثو، تضغط يداه على كتفي. بقي خلفي وساقاه فوق ساقي ليقيد زعانفي. أبقاني في مكاني بوضعية الرهينة وألصقني به. جهدت على مراقبة تنفسي فأي شهيقٍ قوي جداً من شأنه أن ينفخ رئتي ويعرضني لخطر التحول لعوامة. يحدق بي خطر الصعود المحتم والقاتل.

كان ماران على بعد خمسة أمتار منا يلقي عليه النور مصباح إبراهيم المسلط نحوه إلى يساره قليلاً لئلا يبهره. كان يدور حول نفسه يبحث عن شيءٍ ما. أدخل يده في الكيس الذي علقه على كتفه وأخرج منه سمكة.

تمكنت من رؤيتها في هالة الضوء القوي. شكلها مألوف جداً هيفاء تامة، تضرب الموج بذيلها. خيال سمكة الرعاش التي توازنها زعانفها الصدرية وهي أيضاً كانت أكثر تربصاً وأكثر هدوءاً مما كانت عليه حين رأيتها نهاراً.

بدأ الحيوان بالدوران حول ماران. بما أن الحزمة الضوئية كانت ثابتة، فكانت تبتعد عن الضوء بأبعاد منتظمة تختفي وتظهر، دائماً تزداد تأثيراً. تعكس عينها الوميض كالمرآة. تضخمت نبضات قلبي.

اقتربت سمكة قرشٍ أخرىٰ ثم ثالثة ودارت ضمن حلقاتٍ أضيق حول ماران. جذبتهم السمكة. قطعت إحداها هذه الرقصة الحلقية ولامست الرجل لالتقاط السمكة بضربةٍ من فكها. ذاك الفك البطني الذي يشبه الكلاب. بدأت اضطرب وتعالت نبضات قلبي أكثر فأكثر. وددت الصعود. صارع إبراهيم ليمسك بي. ارتجفت هالة المصباح. لابد أن ماران شعر بذلك. أصبح الوضع أكثر خطورة. خطرت لي طلباته. لاشك في أن أسماك القرش التقطت وجود الغريب ذاك الذي لا يعرف كيف يتماسك. ضغط إبراهيم أكثر علىٰ كتفي ليتركني جاثياً. حاولت أن أهدئ من روعي. فكرت بباز بقوة وبك أنت يا بني. كنت ألعب بحياتي وكان عليّ اللعب بدقة.

بعد برهة، أصبح هناك عشر أسماك قرش تدور حوله. غاب ماران خلف شاشةٍ من الزعانف الظهرية والجانبية. رأيتها الآن سمكة قرش جديدة ضخمة انضمت بدورها للرقصة، كانت أكبر من الأخريات، جمالها فاتنٌ وفظيعٌ. في الهالة الضوئية الواسعة تبدو عينها الفارغة، فراغاً فلكياً، وكأنها لا تكترث لشيء. أتلفت زعنفتها، ترىٰ هل هاجمها أحد أبناء جنسها أم كانت عضةٌ من الحوت القاتل؟ مد له ماران يده، مد يده نحو تلك الزعنفة ذات الشكل الذي يروع سكان العالم بأسره. لامسه القرش ثم استسلم لعرض البحر قبل أن يعود نحوه راسماً قوساً كاملاً. سحب ماران سمكة سردين أخرىٰ من كيسه. اتجه الحيوان الضخم نحوه بشكلٍ مباشر دون عجلة ولكن بقوة من هو السيد في هذه الأمكنة. كنت أختنق خوفاً وتتسرع أنفاسي، شعرت أنني أسمع الأوكسجين يفرغ. كنت أخشىٰ من

أزمة ربو حيث لمست الأعراض. لم أعد أرغب في أن أرى. وددت مجدداً أن أصعد فبدأت رجلاي بالانتفاض فثبتني إبراهيم بقوة أكبر على الأرض وتسمر أمامي، وضع المصباح على الرمل وحرّك مصباحاً آخر وجه هالته نحو وجهه، وعيناه تلويان عزمي من خلف الحاجز الزجاجي. أمسك بمقياس الضغط وسجل الرقم وأشار لي بأن الأمور تسير على ما يرام. لم يكن بوسعي الذهاب، كنت مسمراً هنا معهم على هذه الشرفة الرملية، تحيط بي جدران الأعماق في هذا الميدان المرجاني مجبراً على رؤية هذا المصارع ذي الزعانف معزول السلاح وهو يواجه هذه الضواري البحرية. استحضرت بعض الصور تلك التي تصور أوائل المسيحيين الذين قدموا للأسود. بدأ ذهني يشط، ترى هل هذا ما ندعوه نشوة الأعماق؟

ما أراه إذاً يفوق ما سمعنا عنه.

أسند ماران القرش ببطنه ووضع يده على فمه. لم يعد القرش يؤتي بأي حركة بينما كان يحرك يده الأخرى على طول عموده الفقري لتداعبه والقرش بقي دون حراك. قطٌ. قطٌ يبلغ طوله مترين وخمسين سنتيمتراً، قطٌ يبلغ وزنه مئتي كيلو غرام، قطٌ بفكين قاتلين، يخر بين يديه العاريتين. تابعت بقية أسماك القرش الدوران حولهما. أمسك ماران الزعنفة وبيده الأخرى تابع مداعبة خطم الحيوان. متى سيحدث الحادث؟ متى سينقض الفك على يد الرجل ويقضم معصمه؟

عوضاً عن ذلك، رأيت ماران واقفاً يمسك الحيوان بالزعنفة والخطم بشكلٍ متوازٍ على الأرض الرملية قبل أن يدوره عمودياً بكل هدوء ومازال يمسك بالزعنفة من دون جهدٍ يذكر والحيوان يطيع كالمنوم مغناطيسياً وخطمه راقدٌ في يد الرجل الأخرى.

بدا بطن الحيوان الأبيض أكثر بياضاً في الهالة الضوئية. تلك الهالة التي يقطعها أحياناً مرور مفترس آخر يدور حول المشهد كلعبة الدوارة، دوارة الرعب والروعة. تزاوج الطبيعة مع اللامعقول.

الصورة الأخيرة التي احتفظت بها من المشهد تفوق كل ما يمكن لنا تصوره: قرشٌ ثابتٌ مستقيمٌ كالألف متوازن على يد رجل.

لا شيء سوى هذا.

الرعب المدجن. الخطر الذي يلتهمه في يده. تغير الحيوان لطفلٍ مطيع على يد طفلٍ آخر بالكاد تجاوز عمر المراهقة، متوج كالأمير بالهالة الانسيابية للفقاعات التي تشكلها رئتاه ويقدمها فمه لمملكته.

فهمت ما قد قاله لي رقيم، وهذه الإشاعة التي تجوب قرية الصيادين: المجنون.

فهمت ما الذي كان له أن يفتن باز، ذاك الجمال الذي يكاد لا يحتمل لما كنت أرى والذي كانت قد رأته.

فهمت أن هذا الصبي يمتلك مقاليد ثروات لا نمتلكها نحن. فنٌ قديم، سحرٌ.

فهمت أنني، أنا نفسي، كنت مفتوناً وجاثياً أمام هذا المشهد الذي لا يمكن بل لا يحق له أن يكون.

أيقنت أن أنفاسي تراخت بعد أن استحوذت عليها لذةٌ ناعمة. لم يعد جسدي موجوداً. لم يعد هناك ما يشكل حاجزاً أمام هذا المشهد ذي الكمال الآني. مداعبة المطلق.

نقص الأوكسجين

هكتور، لا بد أن تعرف أن هذه الظاهرة تدعى الثبات القوي. يجب أن تعلم أن خطم أسماك القرش مغطى بعدد من المستشعرات الحسية التي أطلق عليها اسم "أمبولات لورزيني" نسبة للمشرح في القرن السابع عشر وهذه الأمبولات قادرة على رصد أصغر حقل كهرومغناطيسي في الماء. تترجم القنوات المغطاة بالخلايا العصبية مباشرة كل شيء لإشارات كهربائية: التقلصات العضلية لفريسة تتحرك بل مجرد نبضات قلبها وهي ساكنة والتغيرات في تيار المحيط والتقلبات المناخية. بوصلة داخلية، حاسةٌ سادسة حقيقية تعوض النقص في بقية الحواس. في غياهب الظلمات، في المياه العكرة حين تقع الفريسة على الرمال، تأخذ هنا هذه الحاسة العليا دورها لتحصد نتائج ملحوظة. لا يمكن لأي فريسة أن تفلت من نشاط أمبولات لورزيني.

لكن لهذه الحاسة نقطة ضعف اكتشفها بعض البشر، يتم تنشيطها بالدغدغة وهو شيءٌ لم يكن بحسبان برنامج الطبيعة. تؤثر هذه الأمبولات بإدخال القرش في حالةٍ من السبات، حالةٍ من التصلب، للدقة يستسلم الحيوان كلياً. هل العبء الحسي ثقيلٌ لدرجة أنه يرغم القرش على أن يرتخي؟ أنا أجهل. يكتنف الغموض معلومات البشر حول أسماك القرش. ما كنا نعرف فقط أن إناث القرش أكثر حساسية من الذكور..

ماران هو من أخبرني بكل هذا، حين كنا ممددين على الجسر. ليس بمجنونٍ إذاً مجرد معرفة يمتلكها وتقنيةٌ يحترفها. معالجةٌ عالية الخطورة أجل لكنها

تعتمد على التشريح وطبيعة أسماك القرش. إذا هذا هو... مضاجعة شباب جزر فيجي على خطم أسماك القرش. رآها صغيراً، لقد رأى ماران الكثير.

أجل هو من قال لي كل هذا.

كان ممدداً على المستطيل الراتنجي على شرفة الشمس، صالباً ذراعيه وعيناه تحملقان بالنجوم المرصعة. ارتفع صوته يغمره الانفعال. بلمحة كالأوكسجين الهارب نحو السماء السوداء والذي لا يمكننا إيقاف تدفقه. بدأ يتكلم بصيغة احترامٍ. يخاطب شخصاً ما يشعر أنه سبب له خطأ لا يصلح.

"لا تطرح أسئلة. سأقول لك كل شيء وافعل بعد ذلك ما شئت. شرطة، محكمة، فلتكن أنت العدالة... افعل ما شئت. أنا متعب. أنا متعبٌ منذ تلك الليلة. لم أكن أعرفك. لم تكن تأتي على ذكرك. لم أكن أعرف أن لديها طفلاً آخر..؟

- آخر؟

- لا تقاطعني، لو سمحت. الموقف صعب. افعل ما شئت بعد ذلك ولكن لا تقاطعني. كنا نغوص ليلاً. كل يوم، كانت تهوى ذلك. كانت تقول إن هذا يغسلها ممَ؟ ما طرحت أسئلة فهذا لا يعنيني. كانت تقول إنها هكذا بعيداً عن أوروبا تلتقط أنفاسها...."

صدمني هذا الفعل في الصميم.

- كل يوم، كما كنا سنفعل، جهزت القارب والأوكسجين والستر. غادرنا بنور النجوم. كانت قد رسمت طيلة النهار. غادرنا. الناس كلهم نيام ونحن نمخر العباب.

صمت قليلاً واعياً لثقل كلامه عليّ، مسحوقٌ في مكاني.

- لم تكن تخلف سوى بأسماك القرش. لست أنا من يجد هذا غير طبيعي. كنا نتقاسم الفرح برؤيتهم يتطورون تحت الماء. رائعي الجمال والكمال. كانت تفضل القرش ذي المطرقة وكانت قد تبنت واحداً، كان اسمه نور..

- أعرف.

- حدده لها هامرشلاغ. كان نور سيمر من هنا فأخبرتها قبل عدة أشهر. استغرق قرارها وقتاً. كانت تقول لي إن الأمر معقد لكنها أتت. نزلت في هذا المنزل وربطت بينها وبين كيم وبيني علاقة.."

أي علاقة؟ أي نوع من العلاقات؟ صرخ صوتٌ داخلي. لم أكن أملك الجرأة الكافية لأطرح هذا السؤال. سؤالٌ قذر.

- في إحدى الأمسيات، بينما كنا تحت الماء ككل مساء. كنت مع أسماك القرش كما رأيت، هنا. ككل مساء. كانت قد طلبت ذلك مني، كانت هي من طلبت. كانت تفضل الليل. وحين عدت لأنضم إليها، اتجهت نحو الضوء... لم أجد شيئاً خلف الضوء، كان مرمياً على الرمال. اختفت. بحثت عنها كالمجنون تحت الماء. بعد بضع دقائق، صعدت بحثت عنها وتحررت من حملي وغصت مجدداً فوجدتها ولكن بعد فوات الأوان.

توقف عن الكلام وبدأ بالانتحاب. كان علي الاقتراب، كان مهزوزاً. أخيراً خرج وطفح، هو ودموعه على صدري. طفلٌ، انهار للحظاتٍ طويلة قبل أن يتمكن من المتابعة ليقول إنه كان حادثاً، حادثاً، غرقاً أولياً أو غرقاً

تلا فقدان وعي، لم يكن يعرف، لم يكن بوسعه أن يراها وهو مع أسماك القرش وكانت تغوص بشكلٍ جيدٍ جداً لا بد أنه أغمي عليها، هل كان السبب البرد أو لسعة حيوان أم إن الماء المالح تسرب عبر التجاويف مفسداً التبادل الغازي، لا بد أنها قضت حتفها خلال عدة دقائق، لم يتمكن من أن يجد لنفسه مبرراً لقد كان لديها هواء وتحقق من السترة قبل وبعد. حديثه كان متقطعاً وعجولاً وجارفاً.

عاد مجدداً لسيل الدموع التي تهزه كدمية متحركة "لم أفعل لها مكروهاً".

حمل جسدها إلى القارب، وقاده إلى الميناء. إبراهيم كان هناك يدخن على الرصيف وحين رأى جسد دولور

قلت: باز

- ترجاني ألا أذهب إلى الشرطة وإلا لأغلقوا المركز ولضاع عملهم سدى. وأنه مجرد حادث لا صلة له بالموضوع.

- فتركتها على الشاطئ...

هز رأسه.

- أنت؟

- كلا.

- إبراهيم؟

- هو من فعل كل شيء. لم أكن بوعيي. إنه هو. ولكن إن أخبرت الشرطة سأقول: إنه أنا من قام بكل شيء.

توضح المشهد أخيراً أمام عيني. البدل المخلوع والجسد العاري وشمس الصباح. وحبيبتي باز سلمت لرياح الليل وللكلاب. استشطت غضباً. ابتعدت عنه لئلا أرميه من متن القارب.

وصل القارب إلى الميناء. تركته على السطح ونزلت. وعندما ربط إبراهيم القارب غادرت وسرت حتى الفندق.

حادث. مجرد حادث. تسبب به صبية.

عبرت البوابة وألقيت التحية على الرجل ذي اللباس الأزرق الحارس. حاذيت الدرب الرملي ذا الحصى الدافئة المؤدي لمنزلي. وهج المصباح يلوح بهدوء في النسمات الدافئة كروحٍ ترتعد بين يدي بارئها. بعد لحظات، لاح طيفٌ أمامي، واقفٌ مستقيمٌ ما بين شعلتين.

كيم، لاحظت قميصي الـ"JUST ADD WATER" وشعري المبتل.

- رأيت ماران.

لم يكن سؤالاً.

- هل اعترف؟

هذا كان سؤالاً. هززت رأسي نافياً. هل يمكن لي أن ألوم صبياً؟

"لا علاقة له بشيء"

درت حولها وبقيت هي جامدةً في الطريق.

الوداع

الصباح صافٍ وأزرق لازوردي.

اغتسلت من كل شيء مثلها.

تنفست أخيراً مثلها.

طلبت من رقيم أن يصطحبني على متن زورقه الصغير وألا يكلمني. انبثقت في طريقنا أسماك مجنحة وجابت مئات الأمتار حتى رأس الأمواج قبل أن تغوص مجدداً. لأجنحتها تحت نور الصباح انعكاسٌ فضيٌّ.

من الآن فصاعداً، يمكنني أن أتدبر أمري بمفردي. أسطوانة الأوكسجين هنا مثبتة على سترة التثبيت مع الأنبوب. جلت بناظري بحثاً عن المكان الأفضل. تباطأ محرك رقيم، همسٌ لا بل غناء. يترامى الشاطئ تحت ناظري، هذا الشاطئ الذي أحبت، هذه الصخرة كالخبز الفرنسي وبقع النخيل الخضراء المختفية وترس السماء الأزرق حيث ترقص الشمس. رقيم متيقظ. أبحث بناظري عن المكان، سيدلني قلبي.

لمحت شاطئاً صغيراً على يسارنا أسفل الجرف الصخري. هناك الماء أكثر خضرة. أومأت لرقيم بالتوقف.

رمى المرساة.

نهضت وعقدت حزام الرصاص على خصري وانتعلت الزعانف والقناع على جبيني. الشمس تلقي دفئها.

ساعدني بارتداء السترة. جلست على حافة القارب الذي يتهادى تحت ثقل وزني. أمسكت بالعلبة الأسطوانية الصغيرة التي تحوي رمادها. كل شيء بسيط مع المعدن.

وجدت عبر الإنترنت قصيدة رائعة، احتجت لوقتٍ. كنت أبحث عن شيء غير حزين، شيء غير بسيط، لا تصور فيه، شيء بسيط وحلو، شيء كانت لتحبه، واضح.

ما وجدت لا بالإسبانية ولا بالفرنسية. وجدت قصيدة بالإنجليزية. لفيليب لاركان. اسمها "ماء"

حفظتها عن ظهر قلب لتلك الليلة. لم أبكِ.

بدا لي واضحاً وجلياً أنها لن تعود لأوروبا وأنها ستبقى هنا للأبد ما بين من اختارت أن تحب. اشتريت من الصياد المنزل الصغير الذي اختارته لتحط حقيبتها وريشها وأحلامها. أخذت الملابس وتركت اللوحات وعلب الألوانِ والغطاء كما كانت عليه بفوضى في الورشة. وكأنها ما تزال هنا. حين نفتح الباب وتجتاح الشمس الغرفة يعود لكل شيءٍ معناه الأزرق والنور.. قلت للصياد إن عليه أن يعتني بالمنزل وأنني سأعوضه من أجل ذلك وأنني سأتردد بين الفينة والأخرى معك يا هكتور ولكن يمكنه أن يفتح الباب لمن يطلب منه، لعل البعض يذكرها، وآخرون يودّون التعرف عليها، هذه الفنانة القادمة من طرف العالم وسحرتهم ضربات ريشتها.

وددت أن أجعل من هذا المنزل مكاناً حياً، متحفاً وليس ضريحاً. متحفاً من أجلها لأنني أحب المتاحف لأن المتاحف مكانٌ حي.

شددت العلبة الصغيرة بقوة، ألقيت القصيدة. وضعت الأنبوب بين شفتي. سأنثر جسدك يا باز.

أخذت نفساً عميقاً.

تأرجحت.

غصت.

الغوص

الغوص هي من أجمل روايات الحب التي عرفها الأدب الفرنسي الحديث. غوصٌ في أعماق بحرٍ من حب وحزن وفن. قصةٌ يقحمنا الكاتب بأدق تفاصيلها لنعيش معه تباريح الهوى.

يتبوأ سيزار مكانة في الإعلام ويقع في حب اسبانية تهوى فن التصوير «باز». كما أن لها هواية بالسباحة والمخلوقات المائية لدرجة أن تتبنى سمكة قرش اسمها «نور». تقرر السفر برحلةٍ مجهولةٍ وتقضي حتفها بشكلٍ غامض فيجدونها مرمية على إحدى الشواطئ.

يتقفى سيزار أثر زوجته ليكشف سر وفاتها وفي رحلته يكابد مرار الأسى وعلقم حب مفقود. يروي لابنه هيكتور هذه الرواية لتبقى والدته حيةً أبداً، وتبقى قصة حبهما الحزينة بين يدي الإنسانية.

نفحاتُ هيام تلفحنا في أجمل العوالم فناً وكأننا نقوم برحلة مع الكاتب لنقع بحب اسبانيا وحبيبته الإسبانية، كما ستهزنا عواصف من غضب في مواجهة عالم اكتسحته التكنولوجيا وشوهت أرقى المعاني. أما عالم البحار فهو الرحلة الأعذب التي يهبنا إياها كاتبنا الموهوب لنغتسل مثله من الأحزان.

صراعٌ بين الثقافة القديمة يمثلها سيزار الذي يصعب عليه التصالح مع الحياة المعاصرة التي تمثلها باز. صراعٌ بين الرجل ودوره والمرأة، بين الأمومة والأبوة. مفاهيمٌ شتى ينثرها بين ثنايا صفحاته ليحاورنا ويداعب قيثارة قلوبنا المنهكة بعجلة الحياة.

الحب حتى الموت يحيا في عيون هيكتور.

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع
ISBN 978-9933-536-45-9